[redacted]

سيمون دي بوفوار

الفيلسوفة الوجودية الكبيرة

الجنس الآخر

نقلته الى العربية

لجنة من أساتذة الجامعة

الكتاب الأول

مقدمة

ترددت طويلا قبل ان اقدم على تأليف كتاب حول المرأة ، صحيح ان الموضوع مثير ، خاصة بالنسبة الى النساء ، الا انه ليس بالجديد .

وعلى كل حال ، هل هناك مشكلة ، وما هي ؟ بل هناك نساء ؟ يقال لنا : «الانوثة في خطر» ويحثوننا قائلين : «كن نساء ... أبقين نساء» . فكأنما كل كائن انساني مؤنث ليس امرأة بالضرورة بل ينبغي له ان يساهم بهذا الواقع الخفي الذي هو الانوثة . وهل تتكفل المبيضات بافراز الانوثة ام ان هذه تكمن في سماء افلاطونية ؟

في عهد القديس توماس كانت المرأة تبدو كجوهر تحدد خصائصه كما تحدد خصائص ومزايا نبات الخشخاش . الا ان هذا المذهب الفكري فقد من نفوذه لان العلوم البيولوجية والاجتماعية لم تعد تقر بوجود جوهر جامد ثابت يحدد نماذج معينة كالمرأة واليهودي والزنجي .

ان موقف التحدي الذي تقفه النساء الاميركيات يثبت ان شعور الانوثة يطغي عليهن . والحقيقة انه يكفي القاء نظرة للتأكد من ان الانسانية تنقسم الى فئتين تتمايزان باللباس والوجه والجسم والابتسامة والمشية والاهتمام والمشاغل تمايزا واضحا ، وقد تكون هذه الفوارق سطحية وسائرة الى الزوال . انما الاكيد انها موجودة في الوقت الحالي بكل وضوح .

اذا كانت الانوثة وحدها لا تكفي لتعريف المرأة ، ورفضنا ايضا ان نفسرها بمفهوم «المرأة الخالدة» وبالتالي اذا كنا ، نسلم ولو بصورة موقتة ، ان هناك نساء على الارض ، فعلينا حينئذ ان نتساءل ما هي المرأة ؟

ان الرجل يعتبر جسمه كما لو كان كائنا مستقلا يتصل مع العالم اتصالا حرا خاضعا لارادته هو ... بينما يعتبر جسم المرأة حافلا بالقيود التي تعرقل حركة صاحبته . ألم يقل افلاطون : «الانثى هي انثى بسبب نقص في الصفات» !

ان الانسانية في عرف الرجل شيء مذكر فهو يعتبر نفسه يمثل الجنس الانساني الحقيقي ... اما المرأة فهي في عرفه تمثل الجنس «الآخر» . والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو :

كيف تمكن احد الجنسين فقط من فرض نفسه كجوهر وحيد ، منكرا وجود كل نسبية تربطه بالجنس الآخر ، معرفا اياه بانه الآخر الصرف . ومن اين اتى للمرأة هذا الرضوخ ؟

هناك حالات اخرى ترينا تمكن فئة من التحكم بفئة اخرى خلال فترة من الزمن . كان هذا الامتياز ناجما في الغالب عن تمايز العدد فتفرض الاكثرية قانونها على الاقلية وتضطهدها . الا ان النساء لسن اقلية ، فضلا عن ان هذا التسلط له بداية تاريخية معروفة . فمثلا لم يكن هناك بروليتاريا مضطهدة على حين كان هناك دائما نساء . انهن نساء بتكوينهن الفيزيولوجي . ومهما اوغلنا في التاريخ القديم نرى النساء ملحقات بالرجال . هذه التبعية ليست نتيجة حادث تاريخي وليست بالامر

الطارىء ، مما يجعل من المرأة الجنس الآخر بصورة مطلقة •

ان نضال المرأة لم يكن قط الا نضالا رمزيا • ولم تفز الا بما اراد الرجل التنازل عنه • لم تأخذ شيئا ابدا بل تسلمت ما أعطي اليها •

لا تستطيع المرأة حتى في الحلم ازالة الذكور • فالعلاقة التي تربطها بمطهديها لا مثيل لها • ذلك ان انقسام الجنس هو في الواقع شيء عضوي محسوس وليس مرحلة من تاريخ البشر • ان ما يميز المرأة بصورة اساسية هو كونها الجنس الآخر ضمن وحدة ذات حدين متلازمين •

قد يخيل الينا ان هذه العلاقة المتبادلة قد ساعدت على تحرير المرأة • والحقيقة ان الحاجة البيولوجية التي تجعل الذكر مقيدا بالانثى لم تحرر المرأة اجتماعيا • واذا كان الحاح الحاجة متساويا عند الطرفين فانه يتدخل دائما في صالح المضطهدين ضد المضطهدين •

الى جانب ميل المرء الى تأكيد نفسه كشخص ، هناك ميل الى الهروب من حريته وتحويل نفسه الى غرض او الى متاع • ان هذه الطريق ، طريق وخيمة ، لان المرء السلبي العائش في الضياع يصبح فريسة لارادة الآخرين ، عاجزا عن اغناء ذاته ، محروما من كل القيم • ولكنها طريق سهلة لانها تجنب المرء الحيرة والمسؤولية • لذلك يلقي الرجل الذي يجعل من المرأة «الجنس الآخر» استعدادا عميقا من جانبها يساعده في مهمته •

هكذا لا تطلب المرأة لنفسها صفة الشخص الذي يؤكد ذاته ، لانها محرومة من الوسائل الملموسة ، ولانها تحس بالعلاقة الضرورية التي

تربطها بالرجل دون ان تعتبرها علاقة متبادلة ، ولانها تقنع غالبا بدورها «كجنس آخر» .

حينئذ يتبادر الى الذهن السؤال التالي : كيف ابتدأت هذه القصة كلها ؟ من المفهوم ان يتحول ازدواج الجنس (كأي ازدواج) الى نزاع . ومن المفهوم انه اذا نجح احد الطرفين في فرض تفوقه فان هذا التفوق يميل الى تأكيد نفسه تأكيدا مطلقا . ولكن ينبغي لنا ان نشرح لماذا كان الرجل هو الرابح في البداية ؟ لماذا كان هذا العالم دائما تابعا للرجال ، ولماذا لم تأخذ الاشياء في التبدل الا في هذه الايام فقط ؟ وهل هذا التبدل شيء حسن ؟ وهل سيقسم العالم تقسيما عادلا بين الرجال والنساء ؟

هذه الاسئلة ليست بالجديدة ، وقد لقيت اجوبة عديدة . الا ان مجرد اعتبار المرأة «الجنس الآخر» يخرج كل التبريرات التي يقدمها الرجال لانها كانت مستوحاة من مصالحهم .

قال احد انصار المرأة المغمورين : «كل ما كتب عن المرأة من قبل الرجال يجب ان يثير الشبهات لانهم خصوم وحكام في الوقت ذاته . وقد سخروا اللاهوت والفلسفة والقوانين لخدمة مصالحهم» .

وفي القرن الثامن عشر فقط اخذ بعض الرجال المشبعين حقا بالديمقراطية يواجهون المسألة بصورة مو ..وعية .

ان الفئة المهيمنة تحاول ان تبقي المرأة في المكان التي تخصصه لها وتستقي الحجج من الوضع الذي خلقته هذه الفئة نفسها ، وهذا يذكرنا بقول (برناردشو) في الزنوج : «ان الاميركي الابيض يهبط بالزنجي الى

مستوى ماسح الاحذية ليستنتج من ذلك ان الزنجي ليس صالحا سوى لمسح الاحذية» . نعم ان النساء هن غالبا في يومنا هذا اقل مكانة من الرجال بمعنى ان وضعهن لا يفسح لهن الا مجالات أضيق . والمسألة هي ان نعرف فيما اذا كانت هذه الحال ستدوم ؟

لا شك في ان كثيرين من الرجال يتمنون ذلك وكلهم لم يلق السلاح بعد . فالبرجوازية ما زالت ترى في تحرير المرأة خطرا يهدد مفاهيمها الخلقية ومصالحها . وبعض الرجال يخشون منافسة المرأة ، والمصالح الاقتصادية ليست وحدها في الميدان ، لان من محاسن وضع المضطهدين ان ابسطهم يظن نفسه من طينة اخرى . فكان اسهل على الكاتب الفرنسي (مونترلان) ان يحسب نفسه بطلا وهو يقارن نفسه مع نساء (اختارهن هو نفسه) .. من ان يقارن نفسه وهو يأخذ دوره كرجل ، مع بقية الرجال : مع العلم ان بعض النساء فقنه في القيام بهذا الدور . وها هو ذا (كلود مورياك) يكتب بخصوص النساء «نحن نصغي بلا مبالاة مهذبة لاذكى النساء ونحن نعلم جيدا ان فكرها يعكس بصورة متمايزة الوضوح الافكار التي تصدر عنا نحن معشر الرجال» . على كل حال ان المرأة التي يتحدث عنها لا تعكس افكاره لانه معروف بنضوب فكره ولعله يحتاج الى ان يعكس هو نفسه افكار كبار الفلاسفة وهو يتحدث.

ان المسألة النسائية استحالت الى نزاع وخصام نتيجة لوقاحة الرجال . والانسان حين يتخاصم يفقد ملكة المحاكمة . واذا اردنا حقا ان نسلط النور على المسألة فينبغي لنا ان نطرح كل المفاهيم المبهمة كالتفوق والمساواة والنقص وان ننطلق من جديد .

لكن كيف نطرح المسألة اذن ؟ بل من نحن حتى نطرحها ؟ فالرجال

هم خصوم وحكام . والنساء ايضا هن كذلك ، فأين نجد ملاكا يقوم بالمهمة ؟ انني اظن مع ذلك ان بعض النساء هن احسن من يستطيع توضيح وضع المرأة فلقد حظيت نساء كثيرات في يومنا هذا بالتمتع بمزايا الكائن الانساني مما يجعلهن غير مغرضات ، والواقع ان عدم التحيز هذا يشكل حاجة بالنسبة الى النساء ونحن النساء نعرف خيرا من الرجال عالم المرأة لاننا مرتبطات الجذور به ، ونحن اقدر على ادراك ما معنى ان يكون الكائن الانساني «امرأة» .

ان المسألة التالية هي بالنسبة الينا كبيرة الاهمية : اي تأثير في حياتنا نجم عن كوننا نساء ؟ ما هي الامكانيات التي اعطيت الينا والتي منعت عنا ؟ اي مصير يمكن لاخواتنا الصغيرات انتظاره وفي اي اتجاه يجب توجيههن ؟

مما يلفت النظر ان مجموع الكتابات النسائية منعمة في هذه الايام بجهد للتوضيح هو اكثر من الرغبة في المطالبة . وهكذا يجب ان يعتبر هذا الكتاب محاولة من مجموع المحاولات لتوضيح الامور .

الا انه من المستحيل ، دون شك ، البحث في اي مشكلة انسانية بصورة مجردة عن التحيز فان طريقة وضع الاسئلة ، ووجهات النظر المتبناة ، تفترض مجموعة متباينة من المصالح .

وبدل ان نحاول اخفاء المبادىء المفترضة بدرجات متباينة الوضوح ، يجدر بنا ان نبدأ بوضعها وارسائها . اننا بذلك لا نجد انفسنا مضطرين الى توضيح نوايانا في كل صفحة وما نقصده من كلمات امثال : اعلى ، ادنى ، احسن ، اسوأ ، تطور ، تقهقر .

نحن نعتقد ان الصالح العام غير موجود الا اذا كان هذا الصالح يضمن الصالح الخاص للمواطنين • ولا نحكم على المؤسسات والنظم الا من خلال الامكانيات الملموسة المتيسرة للافراد • على اننا لا نخلط بين مفهوم الصالح الخاص ومفهوم السعادة • هذه نقطة اخرى تعترض سبيلنا غالبا • اليست النساء اللواتي يؤلفن الحريم اسعد من النساء العصريات المتمتعات بحق الانتخاب ؟ اننا ، لذلك لن نعتمد ابدا على مفهوم السعادة بل سنتبنى وجهة نظر الاخلاق الوجودية •

كل شخص يعمل على تأكيد نفسه تأكيدا فعليا ملموسا من خلال المشاريع والاهداف ، ولا يحقق حريته الا بارتقاء مستمر وتسام مضطرد نحو مستويات اخرى • ولا يمكن تبرير الوجود الحالي الا بالتفتح نحو مستقبل ممهد السبيل تمهيدا مطلقا ، وكلما تحول الارتقاء الى جمود سار الوجود نحو الانحطاط • ان هذا الانحدار يشكل خطيئة اخلاقية اذا ما رضي به المرء • اما اذا فرض عليه فرضا اصبح ذلك اضطهادا • وفي كلا الحالتين يكمن الشر المطلق • اجل ان كل فرد رائده تبرير وجوده لانه يحس بهذا الوجود كحاجة لا متناهية الى التسامي •

والمرأة تعرف بانها كائن انساني وحرية مستقلة • وهي تكتشف نفسها وتصطفي ذاتها في عالم حرص الرجال فيه ان تلعب دور «جنس آخر» دور الغرض والمتاع •

ان مأساة المرأة تكمن في هذا النزاع القائم بين المطلب الاساسي لكل شخص ينصب نفسه دائما في مقام الجوهر وبين متطلبات وضع يجعل منها لا جوهرا • فكيف يمكن اذن ، للكائن الانساني ، في ظروف مثل

ظروف المرأة ، ان يستكمل ذاته ؟ وما هي الطرق المفتوحة امامه ؟ ايها لا تؤدي الى نتيجة ؟ اي ظروف تحد من حرية المرأة وهل في الامكان مجاوزتها ؟ هذه اسئلة اساسية سنبذل جهدنا آملين توضيحها . واننا اذ نهتم بامكانيات الشخص ، لا نحدد هذه الامكانيات بتعابير السعادة بل بتعابير الحرية .

سيمون دي بوفوار

القسم الاول

مَصيرالمرأة

الفصل الاول

معطيات علم الحياة

•

يقول هواة العبارات السهلة : ما هي المرأة ؟ هذا شيء بسيط • انها رحم ومبيض ، انها انثى وهذه الكلمة تكفي لتعريفها • وبلوك الرجل كلمة «انثى» كما لو كانت اهانة ، ومع ذلك فهو لا يحس باي خجل من حيوانيته ، بل يبدو ، على العكس فخورا اذا قيل عنه : «انه ذكر» • وليست كلمة «انثى» مستقبحة لانها تربط المرأة بالطبيعة وانما لانها تقيدها بحدود جنسها • ولئن كان هذا الجنس يبدو للرجل اهلا للاحتقار فمرجع ذلك الى اضطراب الخصومة التي تخلقها المرأة في نفسه ، الا انه يريد ان يرى في علم الحياة تبريرا لهذا الاحساس •

اذا اردنا الابتعاد عن الافكار المعادة فان هناك سؤالين ينتصبان امامنا :

١ — ماذا تمثل الانثى في مملكة الحيوان ؟

٢ — اي نوع خاص من الانثى يتحقق في المرأة ؟

★ ★ ★

الذكر والانثى هما نموذجان من الاشخاص يتمايزان نوعيا بالتعاون

في سبيل التكاثر ، ولا يمكن تعريفهما الا بالترابط • بيد انه يجب ان نلاحظ اولا ان مدلول انقسام الانواع الى جنسين ليس واضحا • ففي عالم الحيوان نجد ان في وحيدات الخلية كالأميبي تنفصل عملية التكاثر عن العملية الجنسية انفصالا تاما • كما ان منها ما يتكاثر بالانقطاع •

ان انقسام النوع الى جنسين قد اعتبر مفروغا منه من قبل اكثر الفلسفات الا ان هذه الفلسفات لم تتمكن من تفسيره • اما بخصوص دور كل من الجنسين فهناك اختلاف في الآراء • كانت هذه الآراء في البداية خالية من كل اساس علمي ولا تعكس سوى تصورات اجتماعية• فخلال زمن طويل اعتقد الناس ان الاب ليس له اي دور في عملية الحمل• وان روح الجدود تدخل الى بطن الام بصورة بذرة حية • وحين حل النظام الابوي اخذ الذكر يتمسك بذريته • ولما لم يكن بالامكان اهمال كل دور للام في التوالد فقد اعتبر انها تحمل وتغذي البذرة الحية التي يقذفها الاب فقط • وحتى لما تم اكتشاف دور البويضة الايجابي فقد حاول الرجال ان يقابلوا بين عطالة وسكون البويضة ونشاط وحيوية الحيوين المنوي • الا ان هناك اتجاها جديدا معاكسا يحاول ان يثبت ان دور الذكر لا يتعدى دور المؤثر الفيزيائي الكيميائي •

اننا نطرح جانبا كل معتقد سابق للتجربة وكل نظرية عشوائية • ونأمل استخلاص المغزى من فحص الواقع الملموس • وحينئذ قد يتكشف لنا مضمون كلمة «انثى» •

ليست غايتنا عرض فلسفة في الحياة ولسنا نريد التسرع في اتخاذ موقف في النزاع القائم بين المذهبين : الغائي والآلي • ودون ان نتخذ

اي قرار بخصوص العلاقة بين الحياة والشعور ، يمكننا ان نؤكد ان وراء كل وظيفة مشروعا وهدفا •

تتعاون الاعضاء المذكرة والمؤنثة ، لدى اغلب الانواع ، في سبيل التوالد • وهناك تياران خاطئان : يقول الاول بسلبية الانثى ، والحقيقة ان الشرارة الحية تنبثق من التقاء الخليتين المولدتين • اما التيار الثاني فيناقض الاول ، رغم تعايشهما معا اكثر الاحيان ، ويقول بان دوام النوع تؤمنه الانثى اما المبدأ الذكر فليس له سوى ظهور انفجاري ، وعارض • والحقيقة ان الرشيم يخلد بذرة الاب وبذرة الام وينقلهما الى الذرية بصورة ذكر احيانا وصورة انثى احيانا اخرى • ان الخليتين المذكرة والمؤنثة المولدتين تتحدان معا وتذوب فرديتهما في عملية التمازج •

بلغ الشطط في بعضهم انهم استنتجوا من وضع البويضة مكان المرأة في البيت • فقد اوحى (الفريد فوييه) بامكان تعريف المرأة كلها اعتبارا من البويضة ، وتعريف الرجل اعتبارا من الحيوين المنوي •

ان العضوين المذكر والمؤنث اللذين يتوزعان بصورة متساوية في الجنسين ويتطوران تطورا متماثلا اعتبارا من جذور واحدة ، يبدوان متناظرين تمام التناظر بعد انتهاء تكوينهما • وكلاهما يتميز بوجود غدد منتجة للخلايا المولدة • وفي الحالة الساكنة يبدو الذكر والانثى متكاملين ولا يمكن ادراك فرديتهما الخاصة الا من الناحية الوظائفية •

ان التكاثر في الاشكال العليا من الحيـاة يصبح انتاجا لاعضاء متمايزة ، ويأخذ وجها مزدوجا : يحافظ على بقاء النوع ويخلق مخلوقات جديدة : هذه الناحية التجديدية تتأكد بتأكيد الفردية • وعند الحيوانات

الثدية ، تأخذ الحياة اشكالا اكثر تعقيدا وفردية وحينئذ يتحقق الانفصال الى جنسين بصورة نهائية • على ان المرأة رغم مساهمتها مساهمة ايجابية في التوالد ، تتلقى البذرة من الرجل الذي يضعها •

ان هذه المعطيات البيولوجية ذات اهمية كبرى فهل تلعب في تاريخ المرأة دورا اوليا وتشكل عنصرا اساسيا في وضعها • ونظرا الى ان الجسم هووسيلة تمكننا من العالم فان هذا العالم يعرض لنا بصورة تختلف باختلاف هذا التمكن ولئن استعرضنا المعطيات البيولوجية فلانها احد المفاتيح التي تسمح لنا بفهم المرأة لكننا نرفض الفكرة القائلة بان المعطيات البيولوجية هي التي تقرر مصيرها نهائيا • فهذه المعطيات لا تكفي لتحديد التمايز بين الجنسين ولا تفسر لماذا تعتبر المرأة «الجنس الآخر» كما لا تحكم عليها بان تحافظ الى الابد على هذا الدور الثانوي •

★ ★ ★

زعم بعضهم ان الفيزيولوجيا وحدها تسمح بالاجابة على الاسئلة التالية : هل للنجاح الفردي حظ واحد عن الجنسين ؟ اي الجنسين يلعب الدور الاهم في النوع ؟

فالمتشبعون بنظرية الموازاة النفسية ــ الفيزيولوجية حاولوا القيام بمقارنات رياضية بين الاعضاء المذكرة والمؤنثة متخيلين ان هذه القياسات تسمح بتعيين القدرات الوظائفية ، اما نحن فنطرح كل فكرة من هذا النوع ؟ لان هذه نظريات تهدمت نهائيا • كما نطرح كل فكرة تقول بوجود تسلسل طبيعي للقيم لان كل هذه النظريات التي تمزج بين مذاهب طبيعية غامضة ممزوجة باعتبارات خلقية وجمالية هي نوع من

الاسفاف .

لا يمكننا ان نقارن بين الانثى والذكر في النوع البشري الا من الزاوية الانسانية . ولا يعرف الانسان الا بانه كائن غير معطى وانه يصنع نفسه بنفسه ويقرر ما هو عليه . وكما قال (ميرلو بونتي) ليس الانسان نوعا طبيعيا بل هو فكرة تاريخية . والمرأة ليست واقعا لازبا بل هي صيرورة ، لذلك ينبغي مقارنتها مع الرجل في صيرورتها ، اي ينبغي تحديد امكانياتها : ان ما يعيب كثيرا من المناظرات ، انها تريد ان تقصر المرأة على ما كانت عليه او ما هي عليه الآن . ولكننا اذا واجهنا رأيا يوصف بانه تجاوز على الحقيقة فليس بامكاننا ان نغلق الحساب .

ما دمنا تبنا الزاوية الانسانية التي تعرف الجسم اعتبارا من الوجود، فان البيولوجيا تصبح علما تجريديا ، وحين تأخذ احدى المعطيات الفيزيولوجية (النقص العضلي مثلا) مغزى ما فان هذا المغزى يبدو لنا حالا مرتبطا بكل معقد . ويجب الرجوع الى قرائن وجودية واقتصادية ومعنوية كيما يعرف مفهوم «الضعف» تعريفا ملموسا . وعلى ضوء البيولوجيا فقط لا يمكن القول باولية احد الجنسين على اساس الدور الذي يلعبه في تخليد النوع .

واخيرا ، ليس المجتمع نوعا من الانواع . ففي المجتمع يحقق النوع نفسه كوجود ويجاوز ذاته نحو العالم والمستقبل . وان اخلاق المجتمع لا تستنتج من البيولوجيا . والاشخاص ليسوا متروكين لطبيعتهم ، بل يخضعون لطبيعة ثانية هي العرف والتي تنعكس فيها رغبات ومخاوف تعبر عن وضعهم البشري . ولا يتولد لدى الشخص الشعور بذاته

وستكمل نفسه ، بصفته جسما فقط ، وانما بصفته جسما خاضعا للمعتقدات والقوانين • وهو لا يقيم نفسه الا باسم بعض القيم ، ومرة اخرى تؤكد ، ان الفيزيولوجيا عاجزة عن تأسيس القيم ، بل ، بالعكس ، ان المعطيات الفيزيولوجية تكتسب القيم التي يضفيها الكائن عليها • فاذا حال الاحترام تجاه المرأة دون استعمال الشدة ضدها ، فان افضلية الرجل العضلية مثلا تفقد سلطتها •

هكذا ينبغي لنا ان نفسر المعطيات البيولوجية على ضوء مجموعة العوامل البشرية ، والاقتصادية ، والاجتماعية والنفسية • ان خضوع المرأة لواجب النوع وحدود امكانياتها الفردية هي وقائع بالغة الاهمية • فجسم المرأة هو احد العناصر الاساسية من وضعها في هذا العالم • الا انه لا يكفي وحده لتعريفها • اذ ليس له من واقع وجودي الا عن طريق الشعور ومن خلال فعلها ضمن المجتمع •

ليس بوسع البيولوجيا الاجابة على السؤال الذي يشغل بالنا : لماذا تكون المرأة « الجنس الآخر » ؟•

ينبغي لنا ان نعرف ما فعلته الانسانية بالانثى البشرية •

الفصل الثاني

وجهة نظر علم التحليل النفسي

•

على حين يعزو (فرويد) تطور الحياة الانسانية الى الغريزة فقط فان (آدلر) الذي انشق عليه ، يأخذ بعين الاعتبار الشخصية الكلية • وبينما يرى (فرويد) ان السلوك بمجموعه ينجم عن الرغبة ، اي البحث عن اللذة فان (آدلر) يرى ان الانسان يضع نصب عينه بعض الاهداف ويفسح (آدلر) للذكاء مجالا وسيما بحيث لا يكتسب العامل الجنسي عنده في الغالب سوى قيمة رمزية •

بالنسبة الى آدلر ، تدور المأساة الانسانية في ثلاث لحظات : في كل فرد تكمن «ارادة القوة» الا انها تكون مصحوبة «بمركب نقص» • ان هذا النزاع يدفعه الى الهروب من تجربة الواقع خشية ان لا يتمكن من التغلب عليه ، فيترك الشخص مسافة بينه وبين المجتمع • اما لدى المرأة فيتخذ «مركب النقص» شكل الرفض المخجل لانوثتها : اذن ليس حرمانها من عضو الذكر كما يظن فرويد هو الذي يحدث مركب النقص عند المرأة بل مجموع الوضع • وان الفتاة الصغيرة لا تفتقد العضو الا على اعتبار انه رمز للامتيازات الممنوحة للصبيان • ان المكان الذي يحتله الاب في الاسرة والافضلية العامة للذكور والتربية ••• كل شيء

يوطد فيها فكرة تفوق الذكور • وفيما بعد يؤكد وضع المرأة تحت الرجل خلال عملية الجماع اذلالها من جديد • الا أنها بفضل الامومة تجد في طفلها ما يعيد التوازن ويكسبها نوعا من الاستقلال •

يرفض اصحاب مدرسة التحليل النفسي رفضا تاما فكرة «الاصطفاء» و «مفهوم القيمة» المرتبط بها • هذا هو الضعف الداخلي لهذه المدرسة، وبما ان فرويد يفصل بين الدوافع والموانع وبين الاصطفاء الوجودي ، فانه يفشل في تفسير منشئها ويعتبرها كمعطيات •

لا شك في ان الغريزة الجنسية تلعب في حياة الانسان دورا بالغا حتى ليمكننا القول انها تغلغل في حياته كلها • ان الكائن الموجود هو جسم ذو جنس • ولئن كان الجسم والغريزة الجنسية يشكلان تعبيرا محسوسا للوجود فلا يمكننا اكتشاف مغزاهما الا اعتبارا من هذا الوجود •

يعتبر اصحاب مدرسة التحليل النفسي الحقيقة الاولى للانسان علاقته مع جسمه الخاص وجسم امثاله ضمن المجتمع ، الا ان الانسان يهتم اهتماما اساسيا بالعالم الطبيعي واللعب وغير ذلك ويدعي الالتقاء المحسوس بالوجود من خلال العالم كله وبكل الوسائل الممكنة •

لا يكفي القول ان المرأة هي انثى ولا يمكن ايضا تعريفها على اساس الشعور الذي يتملكها بانوثتها • انها تشعر بانوثتها ضمن مجتمع هي احد اعضائه • ان لغة التحليل النفسي ذاتها باستبطانها كل الحياة النفسية، توحي بان مأساة الفرد تجري ضمن ذاته : هذا ما تفترضه كلمات : عقد ، ميول ••• لكن الحياة علاقة بالعالم ، وان الفرد يحدد نفسه بما يصطفيه

لنفسه • وينبغي لنا ان نلتفت صوب العالم لنجد الحلول للاسئلة التي تشغلنا • وان مدرسة التحليل النفسي تفشل بصورة خاصة في ان تفسر لماذا تكون المرأة «الجنس الآخر» • لذلك نرفض طريقة التحليل النفسي مع اعترافنا ان بعض ملاحظاتها ذات نفع •

زد الى ذلك اننا نثير بصورة اخرى مسألة المصير النسوي • فنضع المرأة في عالم من القيم ونظن ان عليها ان تصطفي بين تأكيد رغبة الارتقاء والمجاوزة وبين اعتبارها كغرض ومتاع •

نحن نعتقد ان المرأة تختار بين دورها كغرض ، كطرف آخر ، وبين مطلبها في الحرية •

وهي تعرف بالنسبة الينا ككائن انساني يبحث عن القيم ضمن عالم من القيم ، ضمن عالم لا بد من معرفة تكوينه الاقتصادي والاجتماعي • لذلك نحن ندرس المرأة من زاوية وجودية من خلال وضعها الكلي •

الفصل الثالث

وجهة نظر المادية التاريخية

•

لقد ابرزت نظرية المادية التاريخية حقائق ذات اهمية بالغة • فالانسانية ليست نوعا حيوانيا بل هي واقع تاريخي • ولا يتأثر المجتمع بالطبيعة تأثرا سلبيا بل يحاول التمكن منها • هذا التمكن ليس عملية ضمنية شخصية وانما يجري بصورة موضوعية • لذلك لا يمكن ابدا اعتبار المرأة فقط ككيان عضوي ذوي جنس • والمعطيات البيولوجية التي تكتسب اهمية هي التي تأخذ قيمة محسوسة ضمن العمل • وان شعور المرأة بذاتها لا تحدده غريزتها الجنسية وحدها ، وانما يعكس وضعا يتعلق بالتكوين الاقتصادي للمجتمع ، هذا التكوين الذي يعبر عن درجة تطور الانسانية الفني •

رأينا ان الصفتين الاساسيتين اللتين تميزان المرأة من الناحية البيولوجية هما : اولا ان تمكنها من العالم اضيق نطاقا من تملك الرجل له • ثانيا انها اكثر خضوعا لمستلزمات النوع • الا ان هذه الوقائع تكتسب قيمة مختلفة بحسب الحالة الاقتصادية الاجتماعية • ففي تاريخ الانسانية ، لا يتحدد التمكن من العالم بالجسم المجرد ابدا لان الآلة التي تلعب دور الواسطة تضاعف من قدرة الانسان • قد تكون المرأة عاجزة عن تحريك

اداة ثقيلة فيبدو عجزها واضحا بالنسبة الى الرجل ، الا ان التطور الفني قد يلغي الفارق العضلي الذي يميز الرجل عن المرأة وتصبح معادلة له في العمل .

ان (انجلز) يسرد تاريخ المرأة في كتابه «اصل الاسرة» ويظهر ان تاريخ المرأة مرتبط ارتباطا اساسيا بتاريخ التكنيك .

ففي العصر الحجري ، لما كانت الارض مشاعا بين افراد القبيلة كانت قوة المرأة كافية للعمل في البساتين ، فكان هناك تقسيم متساو للاعمال بين الرجل والمرأة ، الرجل يصطاد والمرأة تبقى في المنزل حيث تقوم ببعض الاعمال الانتاجية كالنسج والبستنة وغيرهما ، وبالتالي كان لها دور كبير في الحياة الاقتصادية .

ولما اكتشفت المعادن واخترع المحراث واتسع نطاق الاستثمار الزراعي وازدادت صعوبته ظهرت الملكية الفردية ، فصار بامكان الرجل ان يصبح سيدا للعبيد والارض واصبح ايضا مالكا للمرأة .

ذلك هو «الانكسار التاريخي الكبير للجنس النسائي» ، وانه ليفسر بالثورة التي طرأت على تقسيم العمل نتيجة لاختراع وسائل جديدة ، ان العمل المنزلي الذي كان يضمن للمرأة استقلالها في السابق ، صار يضمن سيطرة الرجل ، لان العمل المنزلي لم تعد له سوى قيمة ثانوية جدا امام عمل الرجل المنتج ، حينئذ حل الحق الابوي محل حق الام ، وظهرت الاسرة الابوية القائمة على الملكية الفردية ، في مثل هذه العائلة اصبحت المرأة مضطهدة ، اما الرجل المتربع على عرش السيادة فاباح لنفسه التقلب مع الهوى والتسري بالاماء ، وحينما تبيح الاعراف

تنقم المرأة بالخيانة ، هذه وسيلة المقاومة الوحيدة ضد عبوديتها المنزلية، وما الاضطهاد الاجتماعي الذي يحيق بها الا نتيجة استعبادها الاقتصادي «ولا يمكن للمرأة ان تتحرر الا حينما تستطيع الاسهام الى حد بعيد في الانتاج ولا يستدعيها العمل المنزلي الا بصورة طفيفة ، وهذا لم يصبح ممكنا الا ضمن مجتمعات الصناعة الكبرى الحديثة التي لا تفسح المجال لعمل المرأة فحسب بل تتطلبه بصورة ملحة» .

ان مقاومة وتحفظات النظرية الابوية الرأسمالية هي التي تحول دون تحقيق المساواة في كثير من البلاد ، وحينما يحل المجتمع الاشتراكي في العالم كله فلن يكون هناك رجال ونساء بل عمال متساوون فيما بينهم .

لا شك في ان تحليل (انجلز) يشكل خطوة الى الامام ، الا انه يهمل كثيرا من النقاط المهمة : ان محور التاريخ كله هو الانتقال من نظام المشاع القديم الى الملكية الفردية ، دون ان يقال لنا كيف حدث هذا الانتقال ، بل ان انجلز يعترف «باننا لا نعرف شيئا حتى الآن» ، فهو لا يجهل تفصيلات التاريخ فقط بل انه لا يوحي باي تفسير له ، كما انه ليس واضحا ان الملكية الفردية ادت حتما الى عبودية المرأة ، ان المادية التاريخية تعتبر الاشياء التي ينبغي تفسيرها ، امورا مفروغا منها ، فهي تضع ، دون نقاش ، صلة المصلحة التي تربط الانسان بالملكية ، ولكن ما هو منشأ هذه المصلحة التي منها تنبع المؤسسات الاجتماعية ؟ هكذا تبقى دعوى انجلز ناقصة وتبدو الحقائق التي يكتشفها محتملة لانه لا يمكن التعمق فيها دون تجاوز المادية التاريخية التي لا يمكنها تقديم الحلول للمسائل التي عيناها لانها مسائل تهم الانسان كله ، وليس مفهوم «انسان الاقتصاد» التجريدي .

من الواضح ، مثلا ان فكرة التملك الفردي لا تكتسب معنى الا اعتبارا من الوضع الاصلي للكائن . وكيما تظهر ، يجب اولا ان يكون في الشخص ميل الى فرض نفسه في فرديته الجذرية ، ونزعة الى تأكيد وجوده المستقل المنفصل . ومن المفهوم ان هذا الادعاء يبقى شخصيا ، داخليا ، غير حقيقي ، ما دام المرء محروما من الوسائل العملية الكفيلة بتلبية هذا الادعاء تلبية موضوعية : فنظرا لحرمانه من الآلات الملائمة ، لم يكن يحس في البداية بسلطته على العالم ، وكان يحس بنفسه ضائعا في الطبيعة والجماعة ، سلبيا مهددا ، تتلاعب به القوى المظلمة ، ولم يكن يجرأ على التفكير في نفسه الا من خلال ذوبانه في العشيرة .

ان اكتشاف البرونز سمح للانسان باكتشاف نفسه ، في تجربة العمل القاسي والمنتج ، كمبدع مسيطر على الطبيعة ، فلم يعد يخشاها وصارت له الجرأة امام تغلبه على الصعاب على فهم نفسه كفعالية مستقلة وعلى استكمال فرديته . الا ان هذا الاستكمال لم يكن ليتحقق لو ان الانسان لم يشأ اولا . ان عظة العمل لم يتلقفها شخص سلبي بل ان الانسان بنى نفسه بسيطرته على الارض . ان تأكيد الذات لا يكفي لتفسير الملكية ، ففي التحدي والنضال والمعركة الفردية يحاول اكتساب شعور الارتقاء الى السيادة . وكيما يكتسب التحدي شكل الخصومة الاقتصادية ، وكيما يطالب الرئيس ثم افراد العشيرة ، اعتبارا من ذلك ، بممتلكات فردية ، ينبغي ان يكون في الانسان ميل اولي آخر : قلنا سابقا ان الكائن لا ينجح في اكتناه نفسه الا بالتقمص وهو يبحث عن نفسه خلال العالم تحت صورة اجنبية يجعلها صورته وفي نفس الوقت حاول كل واحد امتلاك قطعة ارض ، وادوات عمل ومحاصيل . وقد

وجد الانسان ذاته في هذه الثروات التابعة له ، لانه ذاب فيها ، وندرك حينئذ انه اخذ يعطيها نفس الاهمية التي لحياته ، على هذا الضوء يصبح اهتمام الانسان بملكيته رابطة ونزعة متهومة .

من المستحيل ايضا ان نستنتج اضطهاد المرأة هو وليد الملكية الفردية فهنا ايضا تظهر عدم كفاية وجهة نظر انجلز . لقد فهم جيدا ان ضعف المرأة العضلي لم يصبح نقصا ملموسا الا في علاقته مع الادوات الحديدية والبرونزية ، الا انه لم ير ان طاقة عملها المحدودة تشكل عبثا ملموسا الا من وجهة معينة ، ان الرجل نظرا الى كونه ذا طموح ، يبرز من خلال كل آلة جديدة مطالب جديدة . فحين اكتشف الادوات البرونزية لم يكتف باستثمار البساتين بل اراد استثمار حقول جديدة واسعة ، ولم تنبع هذه الارادة من البرونز نفسه . ان عجز المرأة جر الى خرابها لان الرجل استحوذها من خلال سعيه للثروة والتوسع الا ان هذا لا يكفي ايضا لتفسير اضطهادها فقد كان ممكنا لتقسيم العمل بين الرجل والمرأة ان يكون مشاركة ودية ، ولو كانت العلاقة الاولية الاصلية للرجل مع اشباهه علاقة صداقة صرفة لما امكن تفسير اي نوع من الاستعباد . ان الاستعباد هو نتيجة لجبروت الشعور الانساني الذي يبحث عن تحقيق سيادته بصورة فعلية ، لو لم يكن في المرأة صفة «الجنس الثانوي الآخر» اصلا لما كان في وسع اكتشاف آلة البرونز ان يقود الى اضطهاد المرأة .

كما ان انجلز لا يفسر الصفة الخاصة لهذا الاضطهاد ، فقد حاول ان يعزو التعارض بين الجنسين الى خلاف طبقي ، صحيح ان تقسيم العمل على اساس الجنس والاضطهاد الذي ينجم عنه يذكر بتقسيم العمل

في بعض النقاط ، الا انه لا يمكن الخلط بينهما • فلا يوجد اي اساس بيولوجي في التقسيم الطبقي • ذلك لان العبد يشعر اثناء العمل بالعداء للسيد • والبروليتاريا الشاعرة بوضعها تشكل تهديدا لمستثمريها وتهدف الى القضاء على نفسها كطبقة •

ان وضع المرأة مختلف جدا وخاصة بسبب الحياة والمصالح المشتركة التي تربطها بالرجل ، وبسبب المشاركة التي تلاقيها ضمن ذاتها • فلا تتمخض نفسها عن ثورة ولا يمكن لها ان تقضي على نفسها كجنس ، بل تطالب فقط بالغاء بعض النتائج المرتبطة بالجنس •

واخطر من ذلك ايضا ، انه لا يمكننا اعتبار المرأة كاملة فقط دون ان تكون مفرضين • ان وظيفتها في التوالد مهمة مثل طاقتها الانتاجية سواء في الاقتصاد الاجتماعي او في الحياة الفردية وهناك فترات يجدي فيها اكثار الذرية اكثر من العمل بالمحراث •

ان الاخلاق الاشتراكية حقا ، اي الاخلاق التي تبحث عن العدالة دون ان تقضي على الفردية ، ستجد نفسها في مأزق امام المسائل التي يثيرها وضع المرأة • فالمرأة لا تحشر في العملية الجنسية وفي الامومة زمنا وقوة بل قيما جوهرية • وعبثا تحاول المدرسة المادية العقلانية تجاهل الغريزة الجنسية واعتبارها كماساة • فلا يمكن تنظيم الغريزة الجنسية بقرارات •

ان الغريزة الجنسية لا يمكن الحاقها بالوضع الاجتماعي لانها تعبير عن ثورة اللحظة على الزمن والفردية على الجماعية • فاذا ما اردنا توجيهها ، فقد نقضي عليها لانه لا يمكن التصرف بالعضوية الحية كما

تتصرف بالمادة العاطلة ولا يمكن ترويضها كما تروض الحرية بالقيود .

لا يمكننا ان نجبر المرأة مباشرة على اعطاء الحرية ، ان كل ما يمكننا هو ان نحصرها في اوضاع تجعل من الامومة المخرج الوحيد بالنسبة لها : فالقانون والاعراف تجبرها على الزواج ويمكن منع الوسائل المستعملة ضد الحبل كما يمكن منع الطلاق . في احدى الخطب في الاتحاد السوفياتي طلب الى المرأة ان تعنى بزينتها لتستهوي زوجها . نرى من ذلك ان من المستحيل اعتبار المرأة قوة مولدة فقط ، انها بالنسبة الى الرجل شريكة ، ومولدة ، ومتاع للشهوة ، انها «الطرف الجنسي الآخر» ومن خلالها يبحث الرجل عن ذاته . وعبثا تحاول النظم الموجهة منع التحليل النفسي والاعلان بان المواطنين المنضوين باخلاص تحت راية الجماعة لا يعرفون المآسي الفردية . الحياة الجنسية تجربة لا يتلقف فيها ما هو عام بما هو فردي . وبالنسبة الى اشتراكية ديموقراطية تزول فيها الطبقات لا الافراد يحافظ مسألة المصير الفردي على اهميتها ويبقى للتمايز بين الجنسين اهمية ايضا لان العلاقة الجنسية التي تربط المرأة بالرجل ليست مثل العلاقة التي تربط الرجل بالمرأة والعلاقة التي تربط المرأة بالطفل ليس لها اي شبه .

لا يمكن ارجاع الصلة التي تربط المرأة بالطفل الى اية صلة اخرى . ولا تعني المطالبة لها بكل حقوق وكل فرص الكائن الانساني وجوب الاغضاء عن وضعها الخاص . وفي سبيل معرفة هذه الصلة ينبغي تجاوز المادية التاريخية التي لا ترى في الرجل والمرأة سوى كيانات اقتصادية .

وقد يفسر عالم التحليل النفسي كل المطالب الاجتماعية للمرأة

كظاهرة «احتجاج رجولي» . وبالعكس ، لا تعبر غريزتها الجنسية ، بالنسبة الى الماركسية ، الا عن وضعها الاقتصادي بصورة متفاوتة التعقيد . ان كل هذه التصنيفات عاجزة عن الاحاطة بامرأة فعلية حقيقية . فوراء المآسي الفردية وتاريخ الانسانية الاقتصادي ، يوجد اساس وجودي يسمح وحده بفهم هذا الشكل الخاص ، هذه الحياة في وحدانيتها وفرديتها .

ان قيمة مدرسة فرويد تنجم عن ان الكائن جسم ، وطريقة احساسه بنفسه كجسم امام الاجسام الاخرى تشخص وضعه الوجودي تشخيصا موضوعيا . كما ان الصحيح في الماركسية هو ان رغبات الكائن الحي تأخذ شكلا محسوسا بحسب الامكانيات المادية التي تعرض له ، خاصة تلك التي يؤمنها تقدم التكنيك . الا اننا اذا لم نضف اليها مجموع الواقع الانساني فان الغريزة الجنسية والتكنيك وحدهما لا يفسران شيئا . لذلك تبدو لدى فرويد الموانع التي تضعها «الانا العلوية» واندفاعات «الانا» كاشياء ممكنة . وفي عرض انجلز لتاريخ الاسرة تبدو اهم الحوادث وكأنها تنبع فجأة بحسب اهواء صدفة غامضة .

اننا لا نرفض ، في سبيل اكتناه المرأة ، بعض مساهمات علم الحياة والتحليل النفسي والمادية التاريخية ، الا ان القوة العضلية والعضو التناسلي والاداة لا يمكن تعريفها الا في عالم من القيم .

القسم الثاني

نظرة تاريخية

لقد كان هذا العالم دائما عالم الرجال ، وكل الاسباب المطلة لذلك بدت لنا غير كافية • على اننا سنتمكن من ان نفهم كيف تشكل التسلسل والتمايز بين الجنسين اذا ما فحصنا معطيات فترة ما قبل التاريخ ، وعلم الاجناس البشرية ، على ضوء الفلسفة الوجودية •

بينا سابقا ان التقاء مجموعتين بشريتين تدفع كل واحدة منهما الى بسط سيادتها على الاخرى • فاذا كان لكلتيهما امكانية ابداء هذا الطلب حصلت بينهما علاقة متبادلة دائمة التوتر سواء في الصداقة او العداوة • فاذا كانت احداهما متميزة تفوقت على الاخرى وعملت على ابقائها مضطهدة •

وطبيعي ان يكون للرجل ارادة التحكم في المرأة ، ولكن ما الامتياز الذي اتاح له تحقيق هذه الارادة ؟

تتضارب المعلومات التي يقدمها علماء الاجناس البشرية عن الاشكال البدائية للمجتمع البشري تضاربا كبيرا • ومن الصعب خاصة ان نكون فكرة عن وضع المرأة في الفترة التي سبقت مرحلة الزراعة • ولا يمكننا ان نعرف فيما اذا كان نمو عضلات المرأة وجهازها التنفسي مساويا لنمو عضلات الرجل وجهازه التنفسي • فقد كان يعهد اليها بالاعمال الشاقة ، خاصة انها كانت هي التي تحمل الاثقال ، على حين كان الرجال يبقون طليقي الايدي ليؤمنوا الدفاع عن القافلة • على ان النساء كن في كثير

من الحالات من القوة بحيث كن يساهمن في الحملات الحربية ويبدين من ضروب الشجاعة والقسوة ما يضاهي الرجال •

بالرغم من ذلك • يحتمل ان الرجال كانوا سابقا كما في الوقت الحالي متميزين ، بالقوة الجسدية • مثل هذا التفوق كان في العصور البدائية بالغ الاهمية دون شك •

ومهما كان من امر قوة المرأة آنذاك فان واجبات التناسل كانت تشكل بالنسبة اليها عائقا كبيرا • ويحكى ان النساء المحاربات في القديم كن يقطعن اثداءهن ليتخلصن من الامومة • وكن بحاجة الى حماية المحاربين في سبيل اتقاء شر العدو وضمان معيشتهن ومعيشة اولادهن • وكان من شأن تكرر الحمل والوضع ان يأخذ اكبر قسط من قوتهن ووقتهن •

هذا امر له اهميته العظمى • فبداية الجنس البشري كانت شديدة الصعوبة • وكانت شروط الحياة شاقة على حين كانت المرأة تخلق حاجات متزايدة بانجابها الاطفال انجابا متواصلا • لئن كانت المرأة ضرورية لبقاء النوع فانها كانت تخلف النسل بكثرة وكان على الرجل ان يحقق التوازن بين تكاثر النسل والانتاج •

لم تكن المرأة ، اذن ، تلعب دور البويضة امام الحيوين المنوي ، بل كانت تساهم في مجهود الجنس البشري للبقاء فقط ، وبفضل الرجل كان هذا الجهد يكلل بالنجاح الفعلي •

ما دام التوازن بين الانتاج والتناسل كان يتحقق ، ولو كان ذلك احيانا عن طريق قتل الاطفال والتضحيات والحروب فان الرجال والفساد

معا كانوا ضروريين بالنسبة الى بعضهم فيما يتعلق ببقاء الحياة الجماعية .
بل يمكننا ان نفترض ان دور الرجل الحربي والغذائي كان تابعا في اوقات النعومة والرخاء لدور المرأة كأم . الا ان الانسانية لم تسمح للنساء باحتلال المقام الاول حتى في اوقات الحاجة القصوى الى التوالد .
والسبب في ذلك ان الانسانية ليست نوعا طبيعيا فقط ، وانها لا تحاول الديمومة كنوع ، وان هدفها ليس التوقف والجمود . ان الانسانية تميل الى المجاوزة وتجنح الى الارتقاء .

لم تكن الجماعات البدائية قط تهتم بالنسل اذ كانت غير مرتبطة بالارض ولم يكن لديها فكرة عن الديمومة . ولم يكن افرادها يتعرفون على انفسهم من خلال ذريتهم بل كان الاطفال يشكلون عبئا ثقيلا بالنسبة اليهم . لذلك لم تكن المرأة التي تنجب طفلا تعرف الكرامة المرتبطة بانجاب الذرية . الا ان اهمية الطفل ارتفعت فيما بعد . ولكن الانجاب والارضاع ، على كل حال ، ليسا انواعا من النشاط بل وظائف طبيعية لا تستدعي تخطيط الاهداف وتصميم المشاريع . لذلك لم تكن المرأة تجد في نفسها باعثا على تأكيد أفعال لوجودها . بل كانت تتلقى مصيرها البيولوجي تلقيا سلبيا . اما الاعمال المنزلية المناطة بها فتتفق مع اعباء الامومة وتتصف بالرتابة والجمود دون ان تنتج شيئا جديدا . اما الرجل فيختلف في وضعه اختلافا جذريا . انه لا يغذي الجماعة كما تفعل النحل اي بنشاط حيوي بسيط، بل باللجوء الى افعال تسمو بوضعه الحيواني. هكذا كان الرجل مبدعا منذ البداية . وفي محاولته الاستحواذ على ثروات العالم كان يضم العالم نفسه اليه . وكان يحس في هذا العمل بمدى سلطته . كان يضع الاهداف ويمهد للمستقبل . وفي عمله

الانثائي لم يكن يسعى للابقاء على عالم معين بل كان يفجر الحدود ويرسي قواعد مستقبل جديد معرضا حياته للخطر . فكان يثبت بذلك ان الحياة ليست الهدف الاسمى للانسان بل ينبغي لها ان تخدم غايات اهم من الحياة نفسها . ولا يرتفع الانسان عن مستوى الحيوان لانه يعطي الحياة وانما لانه يغامر بحياته .

اننا نمسك هنا بمفتاح اللغز كله . في مستوى البيولوجيا يدوم النوع بالتوالد الا ان هذا الخلق لا يشكل سوى تكرار للحياة نفسها في صور مختلفة اما الانسان فيجاوز الحياة بتأكيد الوجود وبهذه المجاوزة والتسامي يخلق قيما تنكر على التكرار قيمته . ان الذكر الانساني ، بعكس الحيوان ، اذ يحترم النوع يغير وجه العالم فيخلق ادوات جديدة ويبدع ويبني للمستقبل . وهو حين يؤكد نفسه كسيد يلقى مشاركة واسهاما من المرأة نفسها لانها لها هي ايضا كائن يكمن فيها التجاوز وهدفها ليس التكرار بل السمو الى مستقبل آخر . وانها لتجد في اعماق نفسها تأكيدا لادعاءات الذكور . ان مصيبتها تكمن في انها نذرت من الناحية البيولوجية لتكرار الحياة على حين ان الحياة في عينيها لا تحمل معها اسباب وجودها ، والمرأة هي ايضا تعرف القيم التي يقوم الذكر بتحقيقها بصورة فعلية ، والحقيقة ان النساء لم يجابهن قيم الرجال بقيم انثوية . والرجال الراغبون في ابقاء ميزات الذكور هم الذين خلقوا هذا التقسيم .

لقد سمحت لنا النظرة الوجودية ان نفهم كيف ادى الوضع البيولوجي والاقتصادي للجماعات البدائية الى تسلط الرجل . فالمرأة اكثر خضوعا من الرجل لمستلزمات النوع . وقد حاولت الانسانية دائما التحرر من مصيرها النوعي ولما اخترعت الاداة اصبحت ادامة الحياة

بالنسبة الى الرجل نشاطا وهدفا على حين كانت المرأة تبقى في مرحلة الامومة والحمل مقيدة بجسمها مثل الحيوان • ولما كانت الانسانية تفضل على الحياة بالذات ان يكون لها اسباب للحياة فان الرجل نصب من نفسه سيدا امام المرأة • وهدف الانسان ليس ان يتكرر عبر الزمان بل ان يسود على الحاضر ويمهد للمستقبل • ان نشاط الذكور الذي خلق القيم جعل الوجود نفسه كقيمة وقهر قوى الحياة المتخبطة واخضع الطبيعة والمرأة •

ينبغي لنا الآن ان نرى كيف تخلد هذا الوضع وتطور خلال العصور، وما هو المكان الذي خصصته الانسانية لاحد جزئيها ، هذا الجزء الذي تحدد ضمن ذاتها «كجنس آخر» ؟ ما هي حقوقه المسلم بها ؟ وكيف حددها الرجال ؟

* * *

كان مصير المرأة ، كما رأينا ، قاسيا جدا في الجماعات الاولية • وكانت النساء احيانا مستثمرات من ناحية التناسل حتى الاعياء من قبل سيد مستبد ولا سيما في فترات حاجة الجماعة الى امكانيات المرأة لرد الاخطار الداهمة • ومن المؤرخين من يدعي ان تفوق الرجال في مثل هذه الفترات كان اقل بروزا • والحقيقة ان هذا التفوق كان جزءا من العيش غير مقصود • فلم تكن الجهود تبذل للتعويض عن جهدها او لكبح جماحها كما حدث فيما بعد ضمن النظام الابوي • ولم تكن هناك نظم تؤكد عدم التساوي بين الجنسين لان الملكية والوراثة والحقوق كانت مجهولة • اما الدين فكان محايدا والاله المعبود لا جنس له •

ولما استقر الرجال في الارض وصاروا يعملون في الزراعة ، بدأت النظم والحقوق بالظهور • فلم يعد الرجل يكتفي بمجابهة القوى المعادية بل شرع يعبر عن ذاته من خلال الصورة التي يفرضها على العالم • اخذ الرجل اذن يفكر في العالم وفي نفسه • في هذه الفترة اخذ التمايز الجنسي ينعكس في تكون الجماعة ويكتسب مظهرا خاصا • ففي الجماعات المعتمدة على الزراعة ، بدأ الرجل يخلع على المرأة ، في اغلب الاحيان ، سحرا استثنائيا وقيمة خاصة • ويمكن تفسير هذه القيمة بصورة خاصة بالقيمة الجديدة التي صارت للولد في حضارة تعتمد على الكدح في الارض • فالرجال ، اذ يقيمون في الارض ، يحققون امتلاكهم لها • وظهرت الملكية المشاعة وهي تتطلب من المالكين ذرية ، حينئذ اصبحت الامومة مقدسة ، لم يكن هذا يعني ان المرأة كانت تخص كل الرجال بل لم يكن للرجال والنساء معا من كيان اجتماعي وديني واقتصادي الا كجماعة • اما فرديتهم فبقيت واقعا بيولوجيا صرفا • ولم يكن للزواج ، بغض النظر عن اشكاله ، اي قيمة غيبية • ولم يكن ينجم عنه اي عبودية بالنسبة الى المرأة التي كانت تبقى مرتبطة بعشيرتها •

ولئن كانت القبائل الجوالة (البدوية) لا تعرف الا اللحظة الآنية كمفهوم فان الجماعة الزراعية استعاضت عن اللحظة بمفهوم مرتبط بالماضي ومطل على المستقبل • واخذت الجماعة تشعر بوحدتها وترغب في تمديد وجودها الى المستقبل فعرفت نفسها في الاطفال •

الا ان اكثر الاقوام البدائية كانت تجهل دور الاب في الانجاب فالاولاد بالنسبة اليهم ينحدرون من روح الجدود المتقمصة في جسم المرأة • اما المرأة فضرورية للانجاب لذلك اخذت تلعب دورا اوليا •

وكثيرا ما كان الاولاد يتبعون عشيرة امهم واخذت الملكية الجماعية تنتقل من خلال النساء ، بل ان النظام القائم على الام يتميز بتشبيه المرأة بالارض والربط بينهما ، اذ عن طريقهما تدوم الحياة .

في هذه المرحلة لم يكن الرجل يشعر بقوته بل يحس بنفسه سلبيا معلقا بالطبيعة التي تهب الموت والحياة ، مثل هذه المعتقدات لا تزال سائدة حتى يومنا هذا عند بعض القبائل المتأخرة .

* * *

لا يعي الرجل نفسه ابدا الا اذا وعى هذا «الجنس الآخر» . ولا يكتنه العالم الا من خلال الازدواج الذي ليس لـه صفة جنسية في البداية . ولما كانت المرأة مختلفة عن الرجل الذي يعتبر نفسه الاصل فانها تصنف في زمرة «الجنس الآخر» . وان ذلك ليزداد وضوحا بازدياد دورها . حينئذ تظهر «الآلهة ـ الانثى» التي تعبد من خلالها فكرة الخصب . هذه الآلهة تتصف بالتقلب والقسوة شأنها في ذلك شأن الطبيعة ، وقد اطلق عليها اسم «عشتار» في بابل و «ايزيس» في مصر ... واذا كانت هذه المرحلة لم تترك لنا ادبا فان المرحلة الابوية تحفظ في اساطيرها وتقاليدها ذكريات عهد كانت النساء فيه تحتل مكانا عاليا جدا .

هذه الوقائع ادت الى افتراض وجود سيطرة حقيقية للنساء في الازمنة البدائية . وقد عرض هذه الفرضية (باشوفين) ثم اخذها عن (انجلز) واعتبر الانتقال من عهد سيطرة الام الى السيطرة الابوية «الانكسار التاريخي الكبير للجنس النسائي» . والحقيقة ان هذه الفترة الذهبية من تاريخ المرأة ليست سوى اسطورة .

اذا قلنا ان المرأة كانت «الجنس الآخر» فمعنى ذلك انه لم تكن بين الجنسين علاقة متبادلة : فالارض والام والآلهة لم تكن شبيهة بالرجل بل كانت من طينة اخرى ، اما المجتمع فكان دائما مذكرا والسلطة السياسية كانت دائما في أيدي الرجال •

ان نظام القرابة يحدد العلاقات بين فئتين من الذكور • ولا يرتبط الوضع الفعلي للمرأة ، بصورة عملية ، بهذا النوع من الحقوق او ذاك • وتذهب المرأة غالبا لتعيش في بيت زوجها وهذا يكفي لابراز افضلية الذكر • ولما كانت تحافظ على اولادها بجانبها فمعنى ذلك ان التنظيم الارضي للقبيلة كان مباينا لعلاقاتها الطوطمية • ومن الطبيعي ان تكون العلاقة الاولى اقوى من الثانية •

وفي النظم الانتقالية ، يلاحظ وجود نوعين من الحقوق متشابكين : حقوق دينية وحقوق مستندة الى شغل الارض • ولا يعود الاولاد الى عشيرة الاب ولكن هذه العشيرة هي التي تغذيهم وتربيهم • لذلك ينشأ بين الزوج والمرأة والاطفال علاقة سكن مشترك ومصالح مشتركة وحنان متبادل • وتكون العلاقات بين هذه العائلة والعشيرة الطوطمية معقدة كما يشهد بذلك اختلاف طقوس الزواج • على ان التوازن بين الوقائع الغيبية والاقتصادية لم يكن مستقرا وحينما تتاح الفرصة للرجل فانه يؤكد نفسه كأب • لذلك يميل كل مجتمع الى شكل ابوي حينما يسمح التطور للرجل بان يشعر بذاته ويفرض ارادته •

كان سحر المرأة في عين الرجال يأتيها منهم انفسهم • فهم يركعون امام ذلك «الجنس الآخر» ويعبدون الآلهة الام • ولكن هذه الآلهة ، مهما بلغت من القوة ، تبقى وليدة مفاهيم من صنع الرجال •

تبقى المرأة في حالة الجمود ولا تجد من المجتمع الا ناحيته الساكنة المغلقة على نفسها ، في حين يتابع الرجل احتكار المهام التي تفتح له في المجتمع المجال على الطبيعة وعلى كل الجماعة البشرية .

ان الحروب والصيد من شأنها توسيع افاق الوجود وتحقيق خطوات الى الامام نحو العالم ، والذكر وحده يبقى مجسدا لهذا التجاوز والارتقاء . ولئن لم تتوفر له الوسائل ليتسلط تسلطا تاما على الام – الارض ، الا انه يحاول الانفصال عنها والانعتاق التدريجي منها . والامتناع عن الزواج من الاقارب يكتسب منذ القدم بالنسبة للام نفس المعنى اي انه تعبير عن الرغبة في الاتحاد مع التباين المختلف فالخطف وكل مظاهر العنف تأكيد للمفارقة والتباين . اما انخفاض قيمة المرأة فيشكل مرحلة حتمية في تاريخ الانسانية لان المرأة كانت تجسد الالغاز المغلقة الكامنة في الطبيعة . فبمقدار ما يتحرر الرجل من الطبيعة يتحرر ايضا من المرأة . والذي سمح للرجل بغزو الارض والتمكن من ذاته هو الانتقال من عصر الحجر الى عصر البرونز .

يبدو المزارع عاجزا كل العجز امام تقلبات الطبيعة . اما الصانع فيستطيع ان يكيف الآلة بحسب رغبته وان يفرض عليها بيديه صورة اهدافه ومشاريعه . ان الرجل ، حين يخضع الطبيعة التي تقاومه ، يؤكد ذاته ويشعر بنفسه كارادة مستقلة ذات سيادة . ويتعلم في نفس الوقت كيف يتحمل المسؤولية لان يكيف الاداة رهن ارادته ومهارته . حينئذ تصبح القيم الغيبية في المقام الثاني بينما ترتقي المشاغل العملية الى المقام الاول . صحيح ان الانسان لم يتحرر نهائيا من الآلهة الا انه يفصلها عنه اذ يبدأ بالانفصال عنها ، ومن خلال العلاقة بين يده المنتجة والسلع

المصنوعة كان الرجل يتمرس بتجربة السببية مما جعل ظهور الحساب والمنطق ممكنا ، وانقلبت بالتالي صورة العالم رأسا على عقب .

كان تأليه المرأة مرتبطا بالزراعة ، اما الانسان الذي بدأ يعمل في الصناعة فقد دشن عهد امكان الانتصار على الزمن والمكان ، وعهد الضرورة والاهداف والمشاريع . لم تكن المرأة معبودة من الرجل الا عبادة خوف فلم تكن عبادته عبادة حب . ولم يكن بوسعه استكمال ذاته الا بتحريرها من صفاتها الالوهية . لذلك اخذ يعتبر المبدأ المذكر «التذكير» اساس القوة المبدعة والنور والفهم والنظام .

هكذا ظهر بجانب الآلهة ـ الام ، اله ولد او حبيب . كان في البداية اقل منها ولكنه يشبهها ويشترك معها ويجسد هو ايضا مبدأ الخصب . ان هذا يدشن ظهور الآلهة المزدوجة : في مصر ايزيس وحوروس ، وفي فينقيا عشتروت وادونيس . بعد ذلك خلعت الام الكبرى عن عرش الالوهية واصبح لإله الذكر هو الاساس .

لم يكن انتصار نظام امتياز الابوة نتيجة لصدفة طارئة او ثورة عاصفة . فمنذ نشأة الانسانية اتاحت للذكور ميزاتهم البيولوجية ان يؤكدوا انفسهم كسادة وحدهم وهم لم يتخلوا قط عن هذا الامتياز . الا انهم تخلوا جزئيا عن وجودهم وقصدوه في الطبيعة والمرأة وفيما بعد استرجعوه . ولما كان محكوما على المرأة ان تكون «الجنس الثانوي الآخر» فقد حكم عليها ايضا ان لا تتمتع بالسلطة الا بصورة موقتة . وهي لم تصطف لنفسها ان تكون معبودة او مستعبدة . ومكان المرأة في المجتمع لم يكن الا المكان الذي خصصه الرجال لها ، ولم تفرض ، في اي زمن من الازمان ، قانونها الخاص بنفسها .

لم تعرف الازمنة البدائية ثورة تضاهي استبدال الانتساب الى الام بالانتساب الى الاب . فقد استحالت الام نتيجة لذلك ، الى مرضع وخادمة اما سلطة الاب فازدادت رسوخا . هو الذي يتمتع بالحقوق ويورثها من بعده .

ها هو ذا يعلن على لسان ابولون :

«ليست الام هي التي تحدث ما يسمى طفلها . فهي ليست سوى مغذية للبذرة الموضوعة في احشائها . اما الرجل وحده فهو الذي يحدث الطفل» .

لذلك لم تعد المرأة سوى عبدة ، بعد ما كرست للانجاب والاعمال الثانوية ، وبعد ان رفعت عنها اهميتها العملية وسحرها الغيبي» .

وقد صور الرجال هذا الانتصار كنهاية لصراع عنيف . فمثلت الاساطير الآشورية والاغريقية انتصار قوى الرجولة في عالم الطبيعة والافلاك .

والحقيقة ان الانتقال الى الحق الابوي جرى بصورة بطيئة . ولم يكن هناك صراع او ظفر او انكسار . على ان هذه الاساطير تخفي مغزى بعيد الدلالة . فالعلاقة مع «الجنس الآخر» اخذت شكل مأساة فقد اكد الرجل نفسه كشخص ؛ ذي كيان حر ، لان وجود «الآخر» تهديد وخطر .

لذلك نرى الديانات القديمة ومجموعات القوانين تنظر الى المرأة نظرة عداء لان هذه الديانات ظهرت وسجلت في عهد انتصار حق الابوة. من الطبيعي ان يكون الوضع المخصص للمرأة وضع الحاق وتبعية.

وقد يخيل الينا انهم نظروا اليها نظرة حسنة كما ينظرون الى اطفالهم ومواشيهم ولكن مثل هذا الامر لم يحدث اطلاقا • كان المشرعون الذين نظموا اضطهاد المرأة يشعرون تجاهها بالخوف ، لذلك استحالت من مقدسة الى دنسة •

فالمرأة اذن ، تعني السلبية المعاكسة للنشاط ، والتعدد المهدد للوحدة، والمادة المقاومة للقاعدة ، والفوضى المناوئة للنظام •

يقول فيثا غورس :

«هناك مبدأ خير انبثق من النظام والنور والرجل ، ومبدأ شر خلق الفوضى والظلمة والمرأة» •

على ان الشر ضروري للخير ، والمدة للفكر ، والليل للنهار • والرجل يعلم جيدا انه بحاجة الى المرأة ليطفىء شهواته ويديم وجوده • فلا بد اذن من ضمها الى المجتمع • لذلك تستطيع المرأة ان تتطهر من دنسها الاصلي بالخضوع للنظام المشرع من قبل الرجال •

تقول قوانين الديانة المانوية :

«تكتسب المرأة المتزوجة شرعيا نفس خصائص الزوج كالنهر الذي يضيع في المحيط» •

اما الديانة المسيحية فرغم بغضها الجسد ، تحترم العذراء والزوجة العفيفة الطيعة •

هكذا بقيت المرأة خاضعة لارادة الرجل حتى اليوم تجعل منها التبعية التامة للرجل مجرد شيء من الاشياء على ان «الجنس الآخر» يبقى مع

ذلك محافظا امام الرجل بسحره الاصلي • فكيف يستطيع الرجل اذن ان يجعل من الزوجة خادمة ورفيقة في نفس الوقت • هذه مسألة حاول حلها باشكال مختلفة خلال العصور مما احدث تطورا في مصير المرأة •

* * *

بما ان المرأة خلعت عن عرشها الالهي بحلول الملكية الفردية فقد كان مصيرها مرتبطا خلال الزمن بهذه الملكية • وان تاريخها يختلط اختلاطا بعيدا بتاريخ الميراث • وتصبح اهمية هذا النظام مفهومة اذا تذكرنا ان المالك يقمص وجوده في الملكية ويتمسك بها اكثر من حياته • فهي تجاوز نطاق الحياة المحدود وتجسد الروح الخالدة •

لذلك يرفض الرجل ان تشاركه المرأة في املاكه واولاده • على انه ليس بوسعه دائما ان يفرض مثل هذه الرغبة فرضا كليا دائما • ولما كان بالغ القوة في عهد السلطة الابوية فقد خلع عن المرأة كل حقها في الامتلاك وانتقال الملكية ، ومن المنطقي ان ينكر عليها ذلك • اذ لم تعد المرأة تعار، حين الزواج ، من عشيرة الى اخرى ، بل صارت تنفصل انفصالا جذريا عن عشيرتها وتلحق بعشيرة زوجها اما اولادها فيتبعون اسرة الزوج • لذلك حرمت من الميراث ، وبما انها لا تملك شيئا فانها لا تكتسب صفة الشخص بل تصبح جزءا من املاك الرجل حتى ان الاب يستطيع قتل بناته بعد الولادة • واذا قبل بالابقاء عليهن فانه يعبر عن سخائه • والمرأة لا تدخل هكذا في المجتمع الا اذا من عليها الرجل بذلك • ولما كانت المرأة كالمتاع فقد كان حق الرجل ان يتزوج بقدر ما يشاء، تبعا لامكانياته الاقتصادية ، كما من حقه ان يهجر المرأة حسب هواه • وعلى العكس

من ذلك ، فانه يتطلب من المرأة عفة تامة •

حين تكون الاسرة والملكية الفردية اساسا للمجتمع دون اعتراض تكون المرأة عديمة المركز • وفي النظم التي تجعل المرأة تحت الوصاية ، يثير وضع الارمل مشكلة • فقد يصار الى التخلص منها بتضحيتها فوق قبر زوجها الا انها توضع في اغلب الاحيان تحت تصرف ورثة الزوج •

الا ان الحق الابوي لم يكن يطبق بصورته المطلقة • فقوانين حمورابي مثلا تقر للمرأة ببعض الحقوق • فتأخذ حصة من ارث الاب وحين تتزوج يقدم لها والدها بائنة • الا ان خير وضع للمرأة كان في مصر القديمة • على ان ذلك لم يكن نتيجة للصدفة ، فقد كانت الارض تابعة للملك والطبقات العليا ، اما الطبقات الدنيا فلم يكن لها الحق في التملك بل يحق لها التمتع والاستثمار ، وتبقى الاملاك والاراضي موقوفة • لذلك حافظت المرأة على مقامها كشخص لان الاملاك الفردية غير موجودة • وفي اليونان كانت العادات قريبة العادات من الشرقية • الا انهم لم يكونوا يطيقون تعدد الزوجات • كانت المرأة في اثينا قاصرة طيلة حياتها حيث يظل زوجها وصيا عليها والا فانها تقع تحت وصاية الدولة ممثلة في الموظفين العامين •

كان اضطهاد المرأة يرجع الى الرغبة في تخليد الاسرة والمحافظة على الاملاك فبقدار ما تتحرر المرأة من الاسرة تتحرر من التبعية • فاذا انكر المجتمع الملكية الفردية والاسرة بالتالي ، فان حظ المرأة يتحسن تحسنا كبيرا • ففي مدينة سبارطة الخاضعة لنظام المشاع كانت المرأة معادلة للرجل تماما • وكانت الفتيات يربين مثل الصبيان •

وقد عرفت الشعوب البدائية البغاء المقدس • يروي هيرودوت ان المرأة في بابل كانت مضطرة ان تستسلم مرة في حياتها ضمن المعبد • ثم استحال البغاء المقدس الى بغاء قانوني حين وجدت طبقة الكهنوت فيه وسيلة للاغتناء • ففي الجزر اليونانية مثلا :

كانت المومسات يستسلمن للغرباء • اما الاموال المحصلة فكانت تخصص للعبادة اي للكهان وبصورة غير مباشرة لتأمين مصاريفهم • وقد جعل صولون من البغاء مؤسسة رسمية فكانت الجواري الاجنبيات يقبضن اجورهن المحددة اما الارباح الفائقة فتعود الى الدولة ، ثم انقسمت المهن اليونانيات الفقيرات •

ان ارسطو يعبر عن الرأي السائد حين يقول :

«ان المرأة مرأة لنقص فيها • وعليها ان تلزم بيتها كتابعة لزوجها» على ان وضعها البسيط لم يكن ليحول دون التعريض بها • يقول هيبوناكس : «لا تسعدك المرأة في الحياة الا يومين : يوم الزفاف ويوم دفنها» •

* * *

[8] لم يتطور وضع المرأة بصورة متصلة ٠ فالغزوات الكبرى قلبت كل شيء ، والحقوق الرومانية نفسها تأثرت بعقائدية جديدة : المسيحية ٠ ثم انتصرت في العصور التالية قوانين البرابرة .لقد انقلب الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي وتأثر وضع المرأة بهذا الانقلاب ٠ولا شك في ان الانجيل تضمن نفحة من المحبة دفعت المساكين والعبيد والنساء الى التمسك بالقانون الجديد ٠ وكانت النساء يوم خضوعهن للكنيسة في ايام المسيحية الاولى ، معززات نسبيا ، وصار بامكانهن ان يكن شهيدات مثل الرجال ٠ ولكنهن لم يستطعن الاسهام في العبادة الا بصفة ثانوية ٠ ولئن اعتبر الزواج نظاما يتطلب الاخلاص من الطرفين فان المرأة كانت مضطرة الى ان تكون ملحقة الحاقا كاملا بالرجل ٠ وقد ارسى القديس بول خاصة مبدأ الحاق المرأة بالرجل استنادا الى العهد القديم والعهد الجديد ٠ «كما تخضع الكنيسة ليسوع فلتخضع المرأة للزوج» ٠

يقول القديس امبراوز :

«سارت حواء بآدم نحو الخطيئة ولم يسر آدم بحواء نحوها ٠ من قادته المرأة الى الخطيئة من حقه ان يستقبل استقبال الاسياد» ٠

ولما شرعت الحقوق الدينية بدا الزوج استجابة للضعف البشري ،

فهو لا يتفق مع الكمال المسيحي ٠ واعتبارا من غريغوار السادس ، فرضت العزوبية على القس وجرى التأكيد على طابع المرأة الخطر ٠ لذلك لا تقبل الحقوق الدينية سوى نظام البائنة الذي يجعل المرأة قاصرة

بغير حقوق • فلا يحق لها مثلا الشكوى امام العدالة كما لا تقبل شهادتها • وتأثر الاباطرة تأثرا نسبيا بآباء الكنيسة فتشريع جوستينيان يمجد المرأة كزوجة وكأم يخصصها لوجائب هاتين المهنتين • ويعود قصورها الى الوضع الذي تحتله في الاسرة وليس الى جنسها •

وفي المناطق التي كانت خاضعة للبرابرة ، كانت التقاليد الجرمانية هي السائدة كانت اعرافهم غريبة ، فلم يكونوا يعترفون برئيس الا ايام الحروب ، اما في اوقات السلم فكانت الاسرة تشكل مجتمعا مستقلا • وكانت المرأة دائما تحت الوصاية الا انها كانت تشترك مع الرجال اشتراكا وثيقا في حياة الاسرة •

امتدت هذه التقاليد حتى القرون الوسطى • بيد ان (الفرانك) كانوا في عهد الاسرتين الميروفنجية والكارولانجية يتزوجون بعدة نساء • ولم تكن ثمة حاجة الى الحصول على موافقة المرأة لتزويجها • كما كان الزوج يهجرها وفق هواه وكان له عليها حق الموت والحياة وكان يعاملها معاملة الخادمة •

كانت المرأة محمية من القانون ولكن على اعتبار انها ملك الرجل وام لاطفاله • اما كشخص فلم يكن لها اي حق ، واما كأم فكانت تساوي اكثر من الرجل فالمرأة الولود مثلا تساوي ثلاثة رجال احرارا والمرأة العاقر ليس لها اية قيمة •

* * *

ولما ازدادت قوة الدولة لم تعد الوصاية على الاطفال والنساء حقا مرتبطا بالاسرة بل حقا عاما ، واحتكر الملك تدريجيا كل السلطات التابعة

للاسرة . على انه لم يكن من شأن هذا التغير ان يؤدي الى تحرير المرأة .

اهم ما يميز الحقوق في عهد الاقطاع هو التشابك بين حق السيادة وحق الملكية ، بين الحقوق العامة والحقوق الخاصة وهذا ما يفسر تقلب وضع المرأة بين الارتفاع والانخفاض في هذا النظام . وترينا كثير من الملاحم الشعرية في القرون الوسطى كيف يتصرف الملك او السيد الاقطاعي في زواج الارامل والفتيات . هذه الحضارة الغربية لم تكن تحس تجاه المرأة الا بالازدراء . فالفارس لا يهتم بالمرأة بل يفضل عليها حصانه .. وفي الملاحم الشعرية نرى النساء يقمن هن بالمبادرة .

ادعى بعضهم ان «الحب الرفيع» الذي ظهر في القرن الثاني عشر في جنوبي فرنسا حسن من وضع المرأة . وكثيرا ما وصف هذا الحب على انه حب افلاطوني ، وكان ينفس عن وحشية الطباع والعادات الرسمية . وكما يقول انجلز «ان الحب بالمعنى الحديث لهذه الكلمة لم يكن يجري قديما الا خارج نطاق المجتمع الرسمي» . وعلى كل ، ليست الافكار والاشعار هي التي تؤدي الى تحرير المرأة . ولاسباب مخالفة تماما تحسن وضعها قليلا في اواخر العهد الاقطاعي . ذلك ان سلطة الملك حين ازدادت ، رفعت عن النبلاء بعض صلاحياتهم فاخذوا يقررون مثلا امر زواج تابعاتهم .

الا ان العناصر التي كانت تتضافر ضد استقلال المرأة كانت من الكثرة بحيث لم يحدث مطلقا انها الغيت تماما . صحيح ان ضعف المرأة الجسمي لم يعد يتدخل الا ان تبعية المرأة بقيت مفيدة للمجتمع في حالة

الزواج . لذلك بقيت سلطة الزوج بعد زوال النظام الاقطاعي . وهكذا شاهد نفس التناقض الذي ما يزال موجودا الى الآن . فالمرأة الاكثر اندماجا في المجتمع اي المرأة المتزوجة هي التي تتمتع باقل قسط من الامتيازات . ولئن كان الزوج وصي الزوجة في عهد الاقطاع ، فان البورجوازية حافظت ، حين تشكلها ، على نفس القوانين .

في الحقوق الدينية كما في الحقوق الاقطاعية لا تكون المرأة متحررة الا خارج نطاق الزواج . فالفتاة والارمل لهما نفس امكانية الرجل . اما اذا تزوجت المرأة صارت تحت وصاية الرجل الذي يستطيع التصرف بثروتها بمجرد الزواج وليس بالاستناد الى عقد لان مصلحة الاملاك تقتضي ان يكون هناك سيد واحد يسهر على ادارتها . هكذا يضحى بالمرأة المتزوجة منذ عهد الاقطاع حتى يومنا هذا ، عمدا ، في سبيل الملكية الخاصة . وان هذا ليظهر بشكل خاص عند الطبقات الغنية ، اما الفقر المتبادل فيجعل من الزواج علاقة متبادلة .

لم تتحرر المرأة بفضل النظام الاقطاعي ولا بفضل الكنيسة ، بل بالاحرى ابتدأ الانتقال من الاسرة الابوية الى الاسرة الزواجية المشتركة الصحيحة اعتبارا من الرق .

كان رقيق الارض لا يملكون مع زوجاتهم الا حق التمتع المشترك بالمنزل والاثاث وادوات المنزل . فلم يكن للرجل اذن اي سبب يدفعه الى التسلط على زوجته لانها لا تملك شيئا.وعلى العكس من ذلك،كانت علاقات العمل والمصالح التي تربط بينهما ، ترفع للزوجة الى وثبة رفيعة. ولما ألغي الرق بقي الفقر . فكان يرى ، في بيوت الريفيين والحرفيين ، الزوجان وهما يعيشان على قدم المساواة . المرأة في مثل هذه الحال لا

يمكن ان تكون لا متاعا ولا خادما لان هذا بذخ لا يتاح الا للاغنياء . ففي العمل الحر ، تحصل المرأة على استقلالها الفعلي لانها تعود الى احتلال دور اقتصادي واجتماعي .

والحكايات الهزلية التي تصور المجتمعات البسيطة في القرون الوسطى ، مجتمعات الريفيين والحرفيين وصغار التجار ، نرى الزوج لا يتمتع بأي امتياز سوى ضرب زوجته التي تقابل قوته بحيلتها ومكرها ، فيصبح الطرفان متعادلين . في حين ان المرأة الغنية كانت تدفع بالخضوع ثمن بطالتها .

وفي القرن السادس عشر جرى جمع القوانين الباقية خلال النظام الملكي القديم هذه القوانين التي كانت متأثرة بالحقوق الرومانية والتي تنظر الى المرأة نظرة احتقار . فكانت كل الاتهامات التي توجه للمرأة كالحماقة والضعف قد اتخذت اساسا لتبرير نصوص القوانين الموجهة ضد المرأة .

هكذا كان وضع المرأة الفرنسية في النظام الملكي القديم . كانت تبدو في العمل وفي الامومة كخادمة اكثر من رفيقة . اما الاشياء والقيم والاطفال التي توجدها المرأة فلا تخصها هي بل تخص الاسرة وبالتالي الزوج رب الاسرة .

وفي البلاد الاوروبية الاخرى ، لم يكن حظها احسن ، لان مجموعات القوانين الاوروبية شطرت اعتبارا من الحقوق الكنائسية والحقوق الرومانية والحقوق الجرمانية التي كانت جميعها مجحفة بحقوق المرأة . كل البلاد اذن كانت تطبق الملكية الفردية والاسرة وتخضع لمستلزمات

هذه النظم .

كان من نتيجة استعباد «المرأة الشريفة» في كل هذه البلاد وجود البغاء . لذلك كانت المومسات الموضوعات على هامش المجتمع يقمن بدور اساسي فيه . فالمسيحية تزدريهن ولكنها ترضى بهن كشر لا بد منه .

يقول القديس اوغستان :

«احذفوا المومسات ، تكدروا المجتمع بالخلاق» .

كان تنظيم المجتمع اذن يجعل من البغاء ضرورة . يقول شوبنهاور :

«البغايا هن الضحايا البشرية على مذبح الزواج بواحدة» .

وقال احد مؤرخي الاخلاق الاوربية ، ليه كي :

«البغايا اعلى نموذج للفجور ، وانشط حراس للفضيلة» .

البغايا مجبرات مثل اليهود في المانيا النازية ، على ارتداء اثواب مميزة تحمل اشارات خاصة .

في مثل هذه الشروط يستحيل على المرأة او من النادر جدا ان تظهر . ففي الطبقات العاملة ، يلغي الاضطهاد الاقتصادي التمييز بين الجنسين الا انه يقضي على كل امل للشخص مهما يكن جنسه . اما عند النبلاء والبورجوازيين فالمرأة مضطهدة كجنس . وبصفتها جنسا آخرا ، ليس لها الا وجود طفيلي . فهي محدودة التعليم ويتمي حدوث ظروف استثنائية لتفكر في هدف ملموس تحققه .

قليلا ما كان رأي الرجال في القرون الوسطى في صالح المرأة . صحيح ان «الادب الرفيع» يشيد بالحب الا ان الادب المتأثر بالاوساط

البورجوازية كان يهاجم المرأة «بخبث» على ان اعدى اعدائها هم رجال الدين •

وقد طالبت كريستين دوبيزان في القرن الخامس عشر بالسماح للنساء بالتعلم الا ان وضع المرأة لم يتأثر بالمعركة الادبية لانه لم يكن هناك احد يفكر في اعطاء المرأة دورا اجتماعيا يختلف عن الدور الذي كان لها •

★ ★ ★

يقال ان الوضع القانوني للمرأة بقي على حاله من مطلع القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر • الا ان وضعها الفعلي عند الطبقات ذات الامتياز قد تطور فالنهضة الايطالية كانت عصر الفردية وكانت مناسبة لتفتح الشخصيات القوية بغض النظر عن الجنس • الا ان الحرية بالنسبة الى الاكثرية كانت تأخذ شكل الخلاعة • اما الاخلاق السائدة فبقيت بصورة عامة على ما كانت عليه في القرون الوسطى واما ازدهار الشخصية فلم يكن ميسورا الا لعدد محدود • حينئذ كانت النساء تظهر امكانيات مثل الرجال في حالة تكافؤ الفرص • على ان هذه الفرص بقيت في الواقع غير متساوية •

وفي القرن السادس عشر كانت النساء محدودات التعليم • الا انهن تقدمن في الميدان الفكري خاصة ، خلال القرن السابع عشر • فقد توسعت الحياة الاجتماعية وازداد دور المرأة في الحلقات الادبية • ولما لم تكن منهمكة في بناء العالم فقد كان بامكانها الاستمتاع بالمحادثة والفنون والآداب • ولم يكن تعليم النساء منتظما الا انهن كن يحصلن على الثقافة عن طريق المحادثات والقراءات والمعلمين الخصوصيين • وفي القرن

الثامن عشر ازداد استقلال المرأة وحريتها ، اما العادات فبقيت قاسية شديدة فلم تكن الفتاة تأخذ الا قسطا محدودا من الثقافة ، كما كانت تزوج أو توضع في الدير دون استشارتها .

ان البورجوازية الصاعدة فرضت على الزوجة اخلاقا شديدة . اما طبقة النبلاء السائرة الى الانحطاط والانحلال فكانت تسمح للنساء البارزات بالمجون . ثم انتقلت العدوى الى البورجوازية فلم تعد الاديرة او المنازل الزوجية تستطيع ايقاف النساء .

هكذا بقيت الحرية ، للمرة الثانية بالنسبة الى اكثر النساء ، سلبية ومجردة . فكانت محدودة في البحث عن اللذة . وقليلات كن الذكيات الطموحات اللواتي خلقن لانفسهن مجالا للنشاط .

اما حياة الصالونات فقد اتسعت . يقول مونتسكيو بان كل شيء يمكن عمله في فرنسا بواسطة النساء ، فهن يشكلن «دولة جديدة ضمن الدولة» .

هكذا كان الميدان الثقافي ، خلال العهد الملكي القديم ، اقرب منالا بالنسبة الى النساء ، على انه ما من احد وصلت الى القمة وصارت مثل دانته وشكسبير . هذا الامر يفسره وضعهن العام البسيط . فلم تكن الثقافة سوى امتياز تحظى به بعض النظر عن العوائق التي كانت توضع في طريقهن .

* * *

قد ينتظر البعض من الثورة الفرنسية ان تغير مصير المرأة ، لكن لم

يحدث شيء من هذا • فالثورة البورجوازية احترمت النظم والمفاهيم البورجوازية وكانت تقريبا من صنع الرجال فقط • ومن المهم ان نشير الى ان نساء الطبقات الكادحة ، ابان العهد الملكي القديم ، كن اكثر من غيرهن استقلالا • وكان ينتظر منهن ان يؤكدن انفسهن كأشخاص ... الا ان تقاليد الحياء والخضوع كانت تقيدهن • والشعب لم يكن هو الذي قام بتوجيه المشروع الثوري ولم يكن هو الذي قطف ثمار الثورة• اما نساء البورجوازية فكن مندمجات بالاسرة لدرجة حالت دون نشر تضامن فعلي بينهن • ولم يكن يشكلن طبقة قائمة بذاتها تستطيع فرض مطاليبها ، لانهن كن طفيليات من الناحية الاقتصادية •

ولن يكون ممكنا للكادحات الحصول على حقوق لم تحصل عليها مطلقا نساء النبيلات والبورجوازيات الطفيليات ، الا حينما تصبح السلطة في يد الكادحين •

صحيح ان فرنسا كانت متقدمة على غيرها من البلاد من الناحية النسائية ، الا ان من سوء حظ المرأة الفرنسية الحديثة ، ان وضعها الاقتصادي قد بت فيه في عهد ديكتاتورية عسكرية ، لان مجموعة قوانين نابليون التي ثبتت وضعها خلال قرن كامل قد اخرت كثيرا من تحررها •

فالزوج يمارس سلطته بشدة على شخص الزوجة واموالها ايضا •

ولم تفعل اجتهادات المحاكم ، خلال القرن التاسع عشر ، سوى ترسيخ شدة قوانين نابليون ، لان البورجوازية لم تكن ، في اي وقت من الاوقات ، في مثل هذه القوة • ولكنها كانت تدرك ، في نفس الوقت ، ما تحويه الثورة الصناعية من تهديد لكيانها • لذلك كانت

تبسط نفوذها وهي تحس بالقلق ، ولم تؤثر الحرية الفكرية المتوارثة عن القرن الثامن عشر في اخلاق الاسرة التي بقيت كما حددها في مطلع القرن التاسع عشر المفكرون الرجعيون الذين طالبوا بمجتمع يسوده التسلسل مع اعتبار الاسرة الخلية الاساسية في المجتمع .

وطالب الفيلسوف (اوغست كونت) بصورة مختلفة اعتماد مبدأ تسلسل الجنسين : فبالنسبة اليه تعتبر الانوثة «طفولة مستمرة» تبعد المرأة عن «النموذج المثالي للعرق» بدعوى ان هذه الطفولة البيولوجية تقود الى ضعف فكري ، والدور الوحيد لهذا الكائن العاطفي المنفعل هو دور الزوجة وربة البيت ، فلا يمكنها بشكل من الاشكال منافسة الرجل . فهو يقول :

«لا يمكن للمرأة ان تصبح من زمرة المؤلفين شأنها في ذلك شأن العمال البروليتاريين» ولكنه رفع المرأة الى مرتبة الالوهية في الجزء الثاني من مؤلفه بعد ما تأثر بحب احد النساء .

ويعبر (بالزاك) ايضا عن نفس المثل الاعلى للمرأة . فهو يقول في «فيزيولوجيا الزواج» :

«ان مصير المرأة ومجدها الوحيد هو في دفع قلوب الرجال على ان تخفق لها» .

والمرأة بالنسبة اليه متاع منقول يحصل عليه عن طريق العقد ، ولا تعتبر سوى ملحق بالرجل ، انه ينطق هنا بلسان البورجوازية التي اشتد عداؤها للنساء بعد مجون القرن الثامن عشر وضد الافكار التقدمية المهددة لها . ويحث بالزاك الزوج على ابقاء المرأة في حالة الخضوع

التام • وعليه ان يرفض تعليمها وتثقيفها وان يمنع عنها كل ما من شأنه تطوير شخصيتها وان يفرض عليها ثيابا غير مناسبة وان يجبرها على نظام يضعف جسدها •

ولكن بالزاك يعوض على النساء ، تجاه هذه الشدة ، باحاطتهن بكل التصرفات المهذبة ، يقول بالزاك :

«المرأة المتزوجة عبدة ينبغي لنا ان نعرف كيف نرفعها على العرش»

لذلك يبادر الى تجنيبها الاعمال الشاقة ، وهذا يعني في نفس الوقت اعفاءها من كل مسؤولية •

★ ★ ★

على ان هذه المقاومات العنيدة لا يمكنها ايقاف سير التاريخ ، فحلول الآلية في الانتاج العام يهدم الملكية العقارية ويقود الى تحرير الطبقة العاملة وبالتالي المرأة •

ان قضية المرأة تأثرت بالافكار التي تشيد بالمرأة وباسم انوثتها وتأبى ان تشبهها بالرجل بل تقر لها بالحدس والعاطفة دون العقل •

الا ان الحركة الاصلاحية التي ازدهرت في القرن التاسع عشر كانت مؤيدة للحركة النسائية ، لانها تبحث عن العدالة ضمن المساواة •

وفي هذا المجال يعتبر المفكر «برودون» استثناء للقاعدة • وليس من شك في ان منشأه الريفي قد اثر فيه فهو يهاجم سان سيمون بشدة ويقي من انصار الملكية الصغيرة وبالتالي طالب بابقاء المرأة في البيت • وينظر برودون ان المرأة تتأرجح بين حالتين «اما سيدة بيت او خليلة» •

برودون هو الذي قطع التحالف بين الحركة النسائية والاشتراكية • وفي كتابة «العدالة» يقول بان على المرأة ان تظل مرتبطة بالرجل • والرجل وحده مهم كفرد اجتماعي وانه ليس بين الزوجين اشتراك قد يفترض المساواة بل اتحاد •

لم تكن هذه المجادلات النظرية هي التي اثرت في مجرى الحوادث ، فالمرأة استعادت الاهمية الاقتصادية التي فقدتها منذ عصور ما قبل التاريخ • وخرجت من البيت لتساهم في الانتاج ضمن المعامل • والآلة هي التي سمحت بهذا الانقلاب لان الفوارق الجسدية بين الذكور والاناث اصبحت لاغية في كثير من الاحيان • ولما كان ازدهار الصناعة الفجائي يتطلب يدا عاملة كثيرة لا يستطيع الذكور وحدهم تأمينها ، اصبحت مساهمة المرأة ضرورية •

هذه هي الثورة الكبرى التي حولت في القرن التاسع عشر مصير المرأة وفتحت لها آفاق عهد جديد •

ان ماركس وانجلز يقدران اهمية هذا الحادث ويعدان المرأة بحرية تفرضها حرية البروليتاريا • وقد بين انجلز ان مصير المرأة كان دائما مرتبطا ارتباطا وثيقا بتاريخ الملكية الخاصة التي استبدلت الحق المرتكز الى الامومة بالحق الابوي • الا ان الثورة الصناعية ستعيد الى المرأة حريتها السليبة •

* * *

كانت المرأة في مطلع القرن التاسع عشر مستثمرة بشناعة اكثر من العمال الذكور • وكان ارباب العمل يفضلون النساء على الرجال •

والعبارة القائلة : «يعملن خيرا من الرجال باجور اخفض» تلقي النور على مأساة العمل النسوي .

يقول بلانكي :

«في مدينة ليون ، بعض النساء يشتغلن وهن معلقات مستخدمات ارجلهن وايديهن معا» .

وفي عام ١٨٣١ كانت عاملات الحرير يشتغلن في الصيف من الساعة الثالثة صباحا حتى المساء ، وفي الشتاء من الخامسة صباحا حتى الحادية عشرة مساء ، اي سبع عشرة ساعة في اليوم ضمن ورشات غير صحية لا تدخل اليها اشعة الشمس ابدا .

وكتب در فيل : «المرأة في هذا اليوم اما حيوان للبذخ او حيوان للجر» .

ان عادة الرضا والخنوع ونقص التضامن والشعور الجماعي ، ان هذه العادة هي التي تركت النساء دون سلاح امام الامكانيات الجديدة المتفتحة امامهن . ونجم عن ذلك ان القانون المنظم للعمل النسائي لم يصدر الا في وقت متأخر . كن مضطرات الى القبول باجور منخفضة خاصة انهن لم يكن يعرفن الدفاع عن انفسهن ضد المستثمرين المستغلين . ويجدر الملاحظة ان ارتباط المرأة ببيت والدها او زوجها كان لا يستلزم منها الا تقديم عون اضافي . كانت تشتغل خارج الاسرة ولكن من اجلها . ولما لم تكن تعمل لتفي بجميع حاجاتها كانت تضطر الى قبول اجور اقل من اجور الرجال .

وبما ان نساء كثيرات كن يرضين باجور منخفضة فان المعدل العام

لاجور النساء كان يتكيف مع ادنى حد وانسبه لرب العمل .

ولئن اقبل ارباب العمل على استخدام النساء لهذا السبب ، فان هذا السبب نفسه ولد مقاومة عند العمال الذكور ، لذلك لم ينشأ تضامن مباشر بين قضيتي البروليتاريا والنساء . ان مثل هذا الحادث يجري بصورة مقاربة مع العمال السود في اميركا .

يستعمل ارباب العمل الاقليات الاكثر تعرضا للاستثمار والاضطهاد ضمن مجتمع ما ، كسلاح ضد مجموع الطبقة التي ينتمون اليها . وهم يظهرون في بداية الوقت كأعداء . وينبغي ارتفاع مستوى الوعي كيما تتجه مصالح السود والبيض ، والنساء والرجال في التضامن بدل التناحر والتنافر .

ولم تستطع النساء الدفاع عن مصالحهن الخاصة والتوقف عن تهديد مصالح الطبقة العاملة في مجموعها ، الا حين ادخلن في الحياة النقابية .

★ ★ ★

من المسائل الاساسية التي تثار بخصوص المرأة : التوفيق بين دورها في التناسل وعملها الانتاجي . ان السبب العميق الذي حصر المرأة في العمل المنزلي ، في بداية التاريخ ، ومنعها من المساهمة في تعمير العالم هو استعبادها لوظيفة التناسل . وفيما يخص تحديد النسل ، قلبت الديانة المسيحية المفاهيم الخلقية باعتبارها ان الرشيم ذو روح ، حينئذ اصبح الاجهاض جريمة ضد الجنين ذاته .

ان تطور وضع المرأة يفسر تضافر العاملين التاليين : المساهمة في الانتاج والتحرر من عبودية التناسل .

فيما يخص الحقوق السياسية فان المرأة لم تتوصل اليها في فرنسا وانكلترا واميركا بسهولة ، وان النساء لينتظرن الحرية من تحرر العمال بصورة عامة ، ولا يتمسكن بقضيتهن الخاصة الا بصورة ثانوية ، اما البورجوازيات فيطالبن بحقوق جديدة ضمن المجتمع كما هو ، ولا يدعين انهن ثوريات بل يردن ادخال بعض الفضائل على العادات كالغاء الشرب والكتب الخليعة والبغاء .

والبلاد اللاتينية مثل البلاد الشرقية ، تضطهد المرأة بحكم العادات اكثر مما تضطهدها بحكم القوانين . وايطاليا الفاشستية استعبدت المرأة للسلطات العامة وللزوج ، اما في الاتحاد السوفياتي فان الحركة النسائية كانت اوسع منها في اي بلد آخر . وقد ابتدأت تلك الحركة منذ اواخر القرن التاسع عشر حيث ارتبطت النساء في العمل الثوري اكثر مما ارتبطن بقضيتهن الشخصية . وكانت الثورة هي التي حررت العاملات. ومن الصعب استنتاج وضع المرأة الحالي في روسيا من خلال الشهادات العاطفية المتضاربة ، الا ان الامر الاكيد في يومنا هذا ، ان السياسة العائلية بعد الحرب تقوم على اعتبار الاسرة خلية المجتمع الاولية والمرأة عاملة وربة بيت معا .

* * *

اذا ما القينا نظرة على هذا الاستعراض التاريخي ، ظهرت لنا عدة نتائج ، اولها ان تاريخ النساء كان من صنع الرجال ، لذلك كانت مسألة المرأة دائما مسألة رجال ، فهم الذين امسكوا دائما بمصير المرأة بين ايديهم ، ولم يقرروا فيه تبعا لمصلحتها ، بل اخذوا بعين الاعتبار اهدافهم

الخاصة ومخاوفهم وحاجاتهم • فلم يقدسوا ـ الآلهة ـ الام الا لانهم كانوا يخشون الطبيعة ، وما ان سمحت لهم الادوات المعدنية بتحدي هذه الطبيعة حتى اوجدوا النظام الابوي • ان النظام الاجتماعي القائم على الملكية الخاصة هو الذي جر الى الوصاية على المرأة المتزوجة والثورة الصناعية التي حققها الرجال هي التي حررت نساء اليوم • والحركة النسائية لم تكن في يوم من الايام حركة مستقلة ، بل كانت الى حد ما اداة في يد السياسيين • والنساء لم يشكلن قط طبقة منفصلة • والحقيقة انهن لم يحاولن مطلقا لعب دور في التاريخ كنساء • والعقائد التي تعتبر المرأة كجسد وحياة جمود «كجنس آخر» هي عقائد ذكور لا تعبر بحال من الاحوال عن المطالب النسائية • ان اغلبية النساء ترضى بحظها دون ان تقوم بأي محاولة عمل ، واللواتي حاولن تغيير حظهن والتدخل في مجرى العالم ، فعلن ذلك بالاتفاق مع الرجال ومن خلال وجهات نظرهم •

ان هذا التدخل ، كان اجمالا ، تدخلا ثانويا وعرضيا • فالطبقات التي تتمتع نساؤها بشيء من الاستقلال الاقتصادي وتساهم في الانتاج هي طبقات مضطهدة والنساء العاملات كن اكثر تعرضا للاضطهاد من العمال • وفي الطبقات الحاكمة تبقى المرأة طفيلية وبهذه الصفة تكون خاضعة لقوانين الرجال • وفي كلا الحالتين كان النضال مستحيلا • ان الحقوق والعادات لم تكن دائما متطابقة ، فكان التوازن بينهما يحدث بصورة يستحيل على المرأة ان تكون حرة بصورة فعلية • وفي اوقات تفكك المجتمع ، تتحرر المرأة ، ولكنها اذ تكف عن كونها تابعة للرجل لا تربح سوى حرية سلبية تأخذ شكل الخلاعة والمجون •

(٥)

ومهما يكن من تأثير النساء فان الاصوات النسائية تسكت ، حيث يبدأ العمل الفعلي ، فقد استطعن اثارة الحروب ولكنهن لم يوجهن بخطط القتال ، ولم يوجهن قط السياسة الا اذا اخذت هذه شكل مؤامرات . ان القيادة الحقيقية للعالم كانت دائما في يد الرجال ولم يكن في ايديهن . الا ان ظهور نساء مثل (مدام كوري) يثبت بوضوح نقص النساء لم يكن هو الذي حدد تاريخهن العادي البسيط بل ان تاريخهن البسيط هو الذي كتب عليهن هذا النقص . وان الانجازات الشخصية تصبح تقريبا مستحيلة الفئات البشرية المقيدة جماعيا في وضع منخفض .

ان نساء كثيرات يردن اليوم ان ينتصر عندهن ، كما في مجموع الانسانية ، التطور على الجمود وان يمنحن اخيرا الحقوق المجردة والامكانيات الفعلية التي تضحي الحرية بدون تضافرهما ، نوعا من التعمية .

ان هذه الارادة في طور التحقق ، الا ان الفترة التي نمر بها هي فترة انتقال وهذا العالم الذي كان دائما تابعا للرجال لا يزال في حوزتهم ، وان الامر الذي يتحكم بالوضع الحالي للمرأة هو وجود اقدم التقاليد ضمن الحضارة الحديثة التي هي آخذة في التكون . والحقيقة ان وضعها غير متوازن ، ولهذا السبب يصعب جدا التكيف معه . المعامل والجامعات تفتح امام المرأة ولكن الناس لا يزالون يعتبرون الزواج احسن مهنة للفتاة تغنيها عن كل مساهمة في الحياة الجماعية .

ولا يزال الاهل يربون ابنتهم في سبيل الزواج اكثر من ان يشجعوا تطويرها الشخصي . والفتاة ترى في ذلك من المزايا حتى انها تتمناه

لنفسها • وينجم عن ذلك انها تكون غالبا اقل اختصاصا من اخوتها واقل اهتماما بمهنتها ، لذلك تبقى اقصر باعا فيها • حينئذ تصبح الحلقة فاسدة مغلقة فيقوي فيها نقصها الرغبة في ايجاد زوج •

ان العصر الحالي يقتضي من النساء العمل بل يضطرهن اليه ، وفي نفس الوقت يغررهن بالبطالة واللذائذ • والنساء لا يزلن الى الآن في حالة التبعية • وينجم عن ذلك ان المرأة تعرف نفسها وتختار لنفسها لا على انها موجودة بذاتها بل كما يحددها الرجل • ان كونها «للرجل» عنصر جوهري من عناصر وضعها الواقعي •

القسم الثالث

صورة المرأة

ان صورة المرأة النموذجية تلعب دورا مهما في الادب والحياة اليومية فكل كاتب يعكس في انتاجه امزجة واحوال مجتمعه وخيالاته عن المرأة المثلى الا ان هذه الصورة النموذجية للمرأة تأخذ شكلا مباينا بالنسبة الى كل فرد ، حسب المقام الذي يعطيه لنفسه من حيث التحرر والارتقاء .

فالكاتب «مونترلان» يعتبر نفسه المتسامي المحوم في السماء اما المرأة فتركع عند اقدامه . اما «كلوديل» فبالنسبة اليه تقوم المرأة بادامة الحياة في حين يتكفل الرجل بتمديد وثبة الحياة بالاعمال . وعند الشاعر «بروتون» ينعكس التسلسل : فالعمل والتفكير الواعي اللذان يشكلان ميدان تسامي الذكور هما غبية سطحية تؤدي الى الحرب والحماقة والتنكر لما هو انساني . والمرأة وحدها تستحق الاجلال لانها تحمل راية السلم .

اما «ستاندال» فيعتبر المرأة كالرجل من حيث المجاوزة والسمو . وفي العلاقات المشتركة بين الرجل والمرأة تستكمل الحريات .

* * *

هناك انواع مختلفة للصورة النموذجية . فالصورة التي تسمو باحد الاشكال الدائمة للوضع البشري ، وهو انقسام الانسانية الى فئتين ، هي صورة ساكنة . والانسان يقذف في سماء افلاطونية واقعا مستمدا

من التجربة يستحيل الى مفهوم . ويستعيض عن الواقع والقيمة والمغزى والقانون التجريبي بفكرة متسامية ، واقعة خارج نطاق الزمن ، ثابتة ، ضرورية تكتسب صفة الحقيقة المطلقة .

هكذا تواجه الفكرة الصورية الوجود الموزع المتعدد للنساء ، بالانثى الخالدة الفريدة . فاذا ما تعارض تعريف الصورة النموذجية مع سلوك النساء الواقعيات فهن المخطئات .

تظهر النساء في الواقع الملموس باشكال مختلفة . الا ان كل صورة نموذجية تدعي انها فريدة . والنتيجة هي وجود صور نموذجية متعددة لا يمكن لها ان تتعايش معا . اما الرجال فيبقون حالمين امام التهلهل الغريب لفكرة الانوثة .

يجب ان نميز بين الصورة النموذجية وادراك المغزى ، فتأمل جسم المرأة ومقارنته مثلا بالازدهار لا يعني الانتقال الى الصورة النموذجية . اما اذا قلنا المرأة هي الجسد والجسد هو الليل والموت فانا نقطع عن الارض .

ان اكثر الصور رسوخا بالاذهان هي فكرة «لغز المرأة» . فلهذه الفكرة مزايا عديدة اولها انها تسمح لنا ان نفسر دون جهد ما يستعصي علينا تفسيره ، وبدل ان يقر الرجل بجهله ، يقول بوجود لغز خارج شخصه .

الحقيقة ان اللغز متبادل . الا ان القاعدة العامة تبقى صحيحة هنا ايضا فالرجال لا يواجهون الاشياء الا من خلال وجهة نظرهم . انهم يجهلون هنا كما في اي مجال ، المبادلة . ولئن كانت المرأة لغزا بالنسبة

الى الرجل فانه ينظر اليها كلغز بالذات .

ان العصور والطبقات التي لها مجال التمتع بالاحلام هي التي نصبت التماثيل السوداء والبيضاء للانوثة . صحيح ان اغلب الصور النموذجية ذات جذور في الموقف العضوي للرجل ازاء وجوده الخاص والعالم المحيط به . الا ان مجاوزة التجربة الى الفكرة التسامية قامت بـه المجتمعات الابوية عن عمد هادفة من وراء ذلك الى تبرير ذاتها . فمن خلال الصور النموذجية كانت تفرض على الافراد قوانينها واعرافها بطريقة صورية محسوسة . وتحت شكل الصورة النموذجية كان الواجب الجماعي يفرض نفسه في ضمائر الافراد محاولا عن طريقها استبدال التجربة الحية وما تستدعيه من احكام حرة ، بصنم جامد .

ان الرجل ، في الحقيقة ، لا يفقد شيئا اذا كف عن التعمية واقلع عن اخفاء المرأة تحت الرموز والطلاسم . كما ان تجربته لا يحل بها الفقر اذا رأى في المرأة كائنا انسانيا . ولا يعني ذلك الغاء الشعر والحب والتخلي عن الاحلام بل يكون من نتيجته ارساء التصرفات والاحساسات على اسس واقعية حقيقية .

الكتاب الثاني

مقدمة

تسعى المرأة جاهدة في هذه الايام للقضاء على اسطورة انوثتها ، فقد أخذت توطد دعائم استقلالها بالنسبة للرجل لكنها مع ذلك لم تستطع التوصل الى التمتع بكامل كيانها الخاص كانسان بشري مستقل الا بعد عناء شديد .

ان المرأة تنشأ تترعرع وسط عالم تحف به مظاهر الانوثة من كل جانب ، في عالم نسوي يكون مصيرها فيه الزواج من رجل تربطها به عليا صلة التبعية . ذلك ان سحر الرجولة لا يزال محافظا على تأثيره الكبير لدى النساء وما ذلك يستند على قواعد واسس اقتصادية واجتماعية راسخة .

من الضروري اذن والحالة هذه ان ندرس بعناية المصير التقليدي للمرأة كيف تتلقى شروط حياتها الجديدة ، كيف تتمرس عليها وفي اي عالم تجد نفسها حبيسة ، وما هي وسائل هروبها وعزوفها عنه ... هذا ما سأحاول وصفه . وسيكون في وسعنا بعد ذلك ان نتفهم المشاكل المطروحة امام المرأة ، هذه الانسانة المناضلة التي ترزح تحت عبء وراثة ماض ثقيل ضخم محاولة دون كلل او ملل ان تشق لنفسها طريقا جديدا يحررها من عبوديتها .

ان هذا الكتاب لا يرمي بتاتا الى سرد حقائق ازلية ثابتة ، وانما ينحصر هدفه في وصف المحتوى المشترك الذي ترتكز عليه كل حياة نسوية خاصة .

القسم الاول

مراحل تكوين المرأة

الفصل الاول

الطفولة

•

لا يمكن لاي حدث بيولوجي او نفساني او اقتصادي ان ينفرد بتحديد الشكل الذي ستتخذه الانثى البشرية في قلب المجتمع ، لكن مجموعة الظروف الحضارية هي التي تكون هذا المنتوج المتوسط بين الذكر والخصي ، الذي تسبغ عليه صفة الانوثة عند المرأة . ان الجسد لدى البنات والصبية لا يخرج عن كونه الاشعاع الذي يعبر عن وحدة الشخصية ويميزها عن غيرها كما انه يشكل الاداة التي تساعد على تحسس العالم وتفهمه . انهم يتحسسون ما يحيط بهم بواسطة العيون والايدي وليس باعضائهم التناسلية فلا فرق في ذلك بين الطفل والطفلة والفتاة والفتى . اما مأساة الولادة والفطام ، فانها تدور على الوتيرة ذاتها بالنسبة الى مواليد الجنسين فهم يبدون نفس الاهتمام بالنسبة للاشياء المحيطة بهم ويتمتعون بنفس المسرات ويكتشفون اسرار اجسامهم بنفس الفضول او عدم الاهتمام ويستمدون نفس المتعة الغامضة من اكتشاف اعضائهم التناسلية . وفي هذا تسعى الفتاة الصغيرة حتى الثانية عشرة من عمرها الى ان تكتسب نفس متانة الجسم التي يمتلكها اخوتها ، وتنم عن امكانيات فكرية مماثلة لامكانياتهم حتى انه لا يوجد اي مجال

يتعذر على الفتاة منافستهم فيه . واذا كانت الفتاة تبدو لنا قبل بلوغها سن الرشد واحيانا منذ حداثة طفولتها متميزة بطابع جنسي خاص فهذا لا يعود الى وجود دوافع فطرية غامضة تؤهلها لحياة السلبية والتبرج والانوثة ، وانما الى كون تدخل الآخرين في حياتها يبدأ اصلا منذ السنوات الاولى لطفولتها فيفرض عليها مصيرها المحتوم .

يظهر العالم للمولود الجديد في البدء ، على شكل انفعالات كامنة في ذاته : فهو لا يزال غارقا في لجة (الكل) كما كانت عليه الحال في زمن اقامته بين ظلمات احشاء امه ولا يبرح واقعا تحت تأثير حرارة جسدها . ثم يتعلم شيئا فشيئا تمييز الاشياء المنفصلة عنه ويبدأ بالتفريق بين ذاته وبينها ، لكنه يحس في ذات الوقت بالعزلة والوحدة والانفراد ، خاصة بعد الفطام حيث يظهر حينئذ رغبة جارفة في حيازة اعجاب الآخرين بواسطة بعض الحركات والمظاهر ليعوض الفراغ الحاصل لديه من جراء انفصاله عن الجسم المرضع . وبناضل الطفل حين ينمو بوسيلتين ضد انعزاله الاصلي فهو يحاول ان ينفي وجود الانفصال فيتهالك بين ذراعي امه ناشدا حرارتها الحية مستزيدا من مداعباتها . ثم هو يلجأ الى الاشخاص الآخرين الراشدين الذين يعتبرهم كالآلهة لانهم يستطيعون لوحدهم ان يمنحوه ميزة الشعور بوجوده . انه ليشعر بسحر النظرة التي تحوله احيانا الى ملاك صغير واحيانا اخرى الى وحش ، وحين ينجح في نيل اعجابهم تجد هذه النزعة تأكيدا جسديا لها في القبلات والمداعبات التي يتلقاها .

لا يوجد هنالك اذن خلال الثلاث او الاربع سنوات الاولى اي اختلاف بين وضعية البنات والصبية ، انهم يحاولون جميعا ادامة المهد

السعيد الذي سبق الفطام فنلحظ لدى الطرفين سلوك التظاهرات ولفت النظر ونصادف لدى الذكور نفس الرغبة التي تشعر بها الاناث في اثارة الابتسامات وحيازة الاعجاب .

في هذا العالم المشع بالغموض والمفاجآت يتعثر الطفل في كل خطوة يخطوها وهذا هو السبب في ان عددا من الاطفال يرغبون البقاء صغارا ويخشون النمو والكبر ، وكثيرا ما يقعون فريسة لليأس اذا توقف الاهل عن تدليلهم بوضعهم على ركبهم وقبولهم ضمن اسرتهم . لكن الفتاة الصغيرة تتمتع في هذا المجال بامتياز كبير على الفتى ، لان الفتى يحرم بشكل خاص تدريجيا من القبلات والمداعبات وكأن فطاما ثانيا اقل عنفا واكثر بطأ قد فرض عليه . اما الفتاة الصغيرة فانا نستمر في تدليلها بعد الفطام ونسمح لها بان تعيش في ذيل امها ونكسوها بالفساتين الناعمة ونتسامح معها اذا ارادت ان تكيد لنا وتضحك من حركاتها وتبرجها ، كما تحميها اللمسات الجسدية والنظرات العطوفة من وحشة العزلة . وفي مقابل ذلك يحرم الصبي من كل مناورات نيل الاعجاب والتمثيليات فنقول له : «ان الرجل لا يطلب القبل والمداعبات ... والرجل لا يبكي ...» ولعل هذا هو السر الذي يدفع كثيرا من الفتيان الصغار الى توجس الخيفة من الاستقلال الذي تفرضه عليهم حياتهم الجديدة ، ويتمنون لو خلقوا فتيات ، وقد قص موريس ساش يقول : «كنت اتمنى من كل قلبي ان اكون فتاة ، وبلغ بي عدم الاهتمام بعظمة الرجولة حدا جعلني ابول جالسا مقلدا الفتيات» ومع ذلك اذا ظهر لنا الصبي اقل محاباة من اخواته فان ذلك يعود الى الآمال الجسام التي يعلقها الاهل عليه مستغلين فيه نزعة الرجولة التي تؤلف هذا المفهوم المجرد الذي يتجسد

عليا لدى الذكر في عضوه التناسلي • ولا يشعر الفتى بالفخر والعزة تجاه عضوه التناسلي الصغير الا من خلال نظرة الناس المحيطين به فالعادة جرت لدى الامهات والمرضعات على النظر الى عضو الطفل التناسلي بعين العطف ، وقد حفظ لنا التاريخ قصصا كثيرة عن مرضعات يتغزلن بعضو الطفل الصغير وينعتنه بشتى الصفات المحببة كما درج بعض النساء على التكلم مع العضو كأنما يمثل بالاضافة الى شخصية الطفل الصغير شخصا مستقلا بذاته • وهكذا فان العضو التناسلي لا يشكل بالنسبة للذكر امتيازا يستمد منه شعورا بالتفوق وانما زيادة في الاعتبار ابتكرها له الآخرون تعويضا له عن مصاعب فترة ما بعد الفطام لكنه يصبح منذ ذلك الوقت نتيجة للعادات والتقاليد ، تجسيدا ورمزا لتفوق الذكر وسيادته المتعالية •

اما مصير الفتاة فهو مختلف تمام الاختلاف اذ لا تكن الامهات والمرضعات لاعضائها التناسلية اي احترام او عطف ولا يلفتن نظرها الى هذا العضو الخفي الذي لا نرى منه في الحقيقة سوى غلافه ولا يسمح لنا بأن نمسكه بقبضة يدنا ، لدرجة دفعت بعض العلماء الى القول بأن الفتاة لا تملك عضوا جنسيا • وبذلك تكتشف الفتاة بان وجودها في العالم يختلف عن وجود الفتى ويكفي ان تجتمع لديها بعض العوامل وتتفاقم كي يتحول هذا الاختلاف في نظرها الى شعور بالنقص •

من المؤكد ان الوظائف التفريغية وبشكل خاص الوظائف البولية تلفت اهتمام الاطفال بشدة ، فالتبول في السرير دليل عن احتجاج الطفل على تفضيل اهله لطفل آخر واذا كانت هنالك بلاد درجت فيها العادة ان يبول الرجال وهم قاعدون بينما تقوم النساء بذلك وهن واقفات ، فان

العادة استقرت بصورة عامة في المجتمع الغربي المعاصر على ان تجثو الفتاة بينما يحتفظ الرجل بامتياز الوقوف . ويشكل هذا الاختلاف بالنسبة للفتاة الصغيرة الفرق الجنسي الاشد بروزا ، فلكي تبول يجب عليها ان تجثو على قدميها وان تتعرى وبالتالي يتحتم عليها ان تحجب نفسها عن عيون الناس .

ويزداد الخجل في الحالات التي تشكو خلالها الفتاة من الانفلاتات البولية غير الارادية في حالة الضحك العنيف المتواصل مثلا ، فالسيطرة هي اقل متانة لديها من الفتيان ، لان الوظيفة البولية تظهر لدى هؤلاء كلعبة مستقلة تتمتع بجاذبية بقية الالعاب التي يمارسها الطفل في صباه ، فالعضو التناسلي للذكر يمكن التحكم فيه وقيادته بكل حرية وهذا ما يجلب اهتمام الفتيات . يروى ان فتاة صغيرة صاحت بدهشة واعجاب حين رأت صبيا وهو يبول : «يا لها من عملية سهلة مريحة !» . وفي هذا يتحدث ابراهام عن : «اللذة الطاغية التي تشعر بها المرأة حين تسقي الحديقة بأنبوب ماء» ، وانا اعتقد بالاتفاق مع نظريات سارتر وبشلايه ان هذا لا يعني بحكم الضرورة تمثيل العضو التناسلي للذكر بالانبوب ولا يمكن ان يكون مصدر اللذة والسرور ، فسقي الماء على هذه الطريقة يظهر للطفل الصغير بشكل المعجزة لانه يعد تحديا لقانون الثقالة : وان قيادة العضو التناسلي للذكر والتحكم فيه يعد انتصارا صغيرا على قوانين الطبيعة ، وهو على كل حال تسلية يومية يتمتع بها الذكر وتحرم منها الفتيات الصغيرات . وتلجأ بعض الفتيات الصغيرات رغبة منهن في مزاولة تجربة التبول لدى الذكور الى الانبطاح على ظهرهن في محاولة قذف المادة البولية «نحو الاعلى» . كما تلجأ بعضهن الى محاولة التبول

في وضع الوقوف . كما يقول (كارن هورني) فان الفتيات الصغيرات يحسدن الصبية على الامكانية الممنوحة لهم في عرض اعضائهم التناسلية اثناء التبول امام الناس . ويروى ان فتاة مريضة صاحت فجأة بعد ان رأت في الشارع رجلا يبول : «اذا كان لي ان اطلب هدية من الآلهة فسأطلب منحي امكانية التبول مرة واحدة في حياتي كما يفعل (الرجل)» ويظهر ان هذا الشعور يعود الى حرية الفتى في ان يمس عضوه ويستعمله كلعبة بينما لا تستطيع الفتيات ان تفعلن ذلك بسبب تركيبهن العضوي ولا شك ان هذه المجموعة من العوامل التي تثير الرغبة لدى عدد كبير من الفتيات الصغيرات في امتلاك عضو تناسلي ذكر ، هو امر اكده عدد من التحقيقات والابحاث والاعترافات السرية التي حصل عليها العلماء النفسانيون . فمثلا يورد لنا هفلوك الياس بعض كلمات احدى الفتيات التي يطلق عليها اسم زنيا : «ان ضجة انبعاث الماء وخاصة حين يخرج من انبوب سقي طويل كان دائما بالنسبة لي امرا مثيرا يذكرني بالضجة التي كان يحدثها اخي والآخرون حين يبولون» . وتقص فتاة اخرى انها كانت تحب بشدة وهي طفلة صغيرة ان تمسك بين يديها العضو التناسلي لاحد رفقائها ، وفي احد الايام وقع في يديها انبوب للسقي فقالت : «ظهر لي في ذلك الوقت انه مما يبعث على اللذة والسرور ان امسكه كما كنت امسك العضو التناسلي للذكر في حداثتي» لكنها تؤكد مع ذلك انها لم تكن تشعر بأي احساس جنسي في ذلك وانما يقتصر الامر على فضولها في التعرف على اداة التبول لدى الفتيان . واكثر هذه الحالات اهمية هي حالة فلوري التي اوردها هفلوك الياس : فلوري امرأة ذكية فنانة ذات حيوية شديدة عادية من وجهة النظر البيولوجية وقد روت لي ان الوظيفة

البولية لعبت دورا كبيرا في طفولتها ، كانت تلعب مع اخوتها لعبات بولية فترشقهم ويرشقونها بهذه المادة دون اي قرف او اشمئزاز ، «كانت مفاهيمي الاولى حول تفوق الذكور على الاناث ، ذات علاقة وثيقة مع الاعضاء البولية • وكنت اعتب على الطبيعة حرمانها لي من عضو مريح وسهل الاستعمال وذي شكل حسن كعضو الرجل ولم يكن هناك من حاجة بي لتعلم نظرية هيمنة وتفوق الرجال على النساء فقد كان لدي مثل حي ، تحت عيني» ان هذه الحالة هي هامة بالطبع لانها توضح عددا من العناصر التجريبية في زمن الطفولة ، ولكن الامر لا يتعدى بالتأكيد بعض الظروف الخاصة التي اعطت هذه الظاهرة اهمية ضخمة بالنسبة لفلوري • ذلك ان الامتياز البولي لدى الفتيان هو في اكثر الاحيان شيء ثانوي بالنسبة للفتيات الصغيرات اللاتي تلقين تربية طبيعية ولا يمكن ان يؤدي الى الاحساس بشعور النقص •

ان التركيب الجسماني للذكر يوحي بالقوة لدرجة لا تستطيع معها الفتاة الصغيرة ان ترى جسمها الخاص • ويورد «سوسور» مثلا على ذلك لفتاة صغيرة تبلغ الرابعة من عمرها محاولة ان تبول على طريقة الفتيان وهي تقول بانها تريد «شيئا صغيرا طويلا قويا» وهي تؤكد بنفس الوقت انها كانت تمتلك (قضيبا) اضاعته الآن ، وهذا يتفق تماما مع التفكير بطريقة «المشاركة» التي وصفها (بياجيه) لدى الاطفال • فالفتاة الصغيرة تفكر بكل براءة ان جميع الاطفال يملكون قضيبا حين الولادة لكن الاهل يلجأون بعد ذلك الى قطع بعضها لتحويل اصحابها الى اناث ، غير ان حدثا خارجيا كما تقول (روتش) ، كرؤية القضيب مثلا لا يمكن ان يؤدي الى حدوث ردود فعل داخلية : «ان رؤية العضو

الذكر يمكن ان يكون له تأثير انفعالي ولكن بشرط ان يسبق ذلك سلسلة من التجارب الماضية التي يمكن ان تخلق مثل هذا التأثير » فاذا شعرت الفتاة الصغيرة بعدم قدرتها على اشباع رغباتها في ممارسة العادة السرية وتعريض نفسها لانظار الناس ، واذا تولد لديها الشعور بانها غير محبوبة وتحظى بتقدير اقل من اخوتها ، حينئذ تعكس على عضو الذكر عدم رضائها • ان الناس المحيطين بها يعتبرون اخاها مثلا متفوقا عليها وهو نفسه يعتز برجولته ، فينتاب الفتاة الصغيرة الشعور بالحسد ويخيل اليها ان مصيرها هو الفشل في الحياة • وتشعر احيانا بالحقد تجاه امها وفي بعض الحالات النادرة تجاه ابيها او تتهم نفسها بانها هي التي اجتثت عضوها التناسلي ثم تعزي نفسها مفكرة بان القضيب مخبأ في جسمها وانه لا بد وان يظهر في يوم من الايام •

من المؤكد ان نقص القضيب لدى الفتاة يلعب في مصيرها دورا هاما حتى ولو لم ترغب جديا في حيازته ، اذ ان الامتياز الذي يتمتع به الذكر ينشأ من ملكيته لعضو تناسلي بارز يمكن فحصه وكشف جميع اسراره ، فهو يستطيع ان يقيس طوله ويقارن بينه وبين الاعضاء التناسلية لرفاقه كما يستطيع ان يجعله مصدرا للذته ومتعته ، اما الفتاة الشابة فانها لا تتمتع بهذا الامتياز ، ولذلك فهي تنسج تعويضا عن ذلك دمية تكون بالنسبة لها بمثابة بديل عن النقص الذي تشعر به اذا قورنت مع الفتى • لكنه يوجد اختلاف كبير في الواقع بين الدمية التي تمثل الجسم بكامله وبين العضو التناسلي للذكر كما ان الدمية لا تتعدى كونها شيئا سلبيا وهذا هو السبب الذي يشجع الفتاة على اعتبار ذاتها كفرضية جامدة سلبية • وبينما نجد الصبي يبحث عن نفسه في القضيب بصفته كيانا

مستقلا ، نرى الطفلة تدلل دميتها وتزينها كما لو انها تحلم بأن تلقى الدلال والزينة لنفسها . انها تعتبر نفسها دمية رائعة . وخلال كلمات الاعجاب والاستهجان ومن بين الصور والكلمات تكتشف معنى كلمة (جميلة) و (قبيحة) فهي تعرف انه لكي تثير اعجاب الآخرين يجب ان تكون جميلة كالصورة ، ولذلك نراها تحاول ان تشبه الصورة فتستكر وتنظر الى نفسها في المرآة وتقارن نفسها مع الاميرات وجنيات الاساطير. وقد زودتنا ماري باشكيرتسيف بمثل عن هذا النوع من الفتيات المولعات بالحصول على اعجاب الآخرين فكتبت تقول : «لم يكن عمري يتجاوز الخمس سنوات حين كنت ارتدي مختلف الدانتيلا العائدة لامي وكنت اتخيل نفسي الراقصة الكبرى (بانتيا) وجميع اهل البيت ينظرون الي باعجاب شديد ...» .

ان هذه الطبيعة النرسيسية «اي ولع الانسان الشديد بذاته» تظهر لدى الفتاة الصغيرة بصورة مبكرة وتلعب في حياتها كامرأة دورا رئيسيا اوليا لدرجة ان البعض يعتبرون هذه النزعة وكأنها تصدر عن احساس انثوي غامض . لكننا رأينا في الواقع ان الفتاة لا تخضع في تطورها الى العناصر العضوية لانها تستطيع ان تتحرر بشتى الطرق من تأثير الاختلاف العضوي الذي يميز الصبي عنها فالقضيب يشكل حتما امتيازا بالنسبة للصبي لكن تأثيره يتضاءل حين لا يعير الطفل اي اهتمام لوظائفه التفريغية : واذا احتفظ على الرغم من ذلك ببعض التأثير بعد ان يتجاوز الثامنة الى التاسعة من عمره فذلك يعود الى ان القضيب اصبح رمزا لرجولة تتمتع بحد ذاتها بزيادة في الاعتبار اجتماعيا .

والحقيقة هي ان تأثير التربية والاشخاص المحيطين بالطفل كبير جدا .

فجميع الاطفال يحاولون ان يعوضوا وحشة الانفصال التي تتبع الفطام بسلوك يهدف الى اثارة الاعجاب ، ولذلك فاننا نضطر الصبي الى تجاوز هذه المرحلة وتخلصه من طبيعته النرسيسية بتحويل اهتمامه نحو عضوه التناسلي بينما تبقى الفتاة منشغلة في نفس الاتجاه تساعدها على ذلك الدمية التي لا تقوم مع ذلك بالدور الاساسي . فالصبي بدوره يستطيع ان يتسلى بدمى من نوع آخر كالدب وغير ذلك ، وهذا ما يدعونا الى ان نستنتج ، ان كل عامل من العوامل : سواء كان القضيب او الدمية تتضح اهميته وتبرز قيمته من خلال الشكل الاجمالي العام لحياة الاطفال.

وهكذا فان السلبية التي تميز بصورة رئيسية المرأة «الانثى» هي ظاهرة تتطور لديها منذ السنين الاولى . لكنه من الخطأ ان نزعم ان هذه الظاهرة تشكل معطية بيولوجية ، فالحقيقة هي ان القائمين على تربيتها والمجتمع الذي تعيش فيه كل ذلك يفرض عليها هذا المصير . ان الحظ الكبير للصبي يكمن في طريقة وجوده بالنسبة للآخرين التي تشجعه على ان يعيش لنفسه فهو يتلقى دروس الحياة بحركة حرة تنفتح نحو العالم الواسع ويتنافس بصلابته واستقلاله مع الصبيان الآخرين فيحتقر البنات ويتصرف بكل حرية واستقلال . وعلى العكس من الصبي تتعرض المرأة منذ البداية الى نزاع بين وجودها المستقل و «وجودها الآخر» فنحن نعلمها بان الواجب يحتم عليها ان تحاول الحصول على اعجاب الآخرين وان تشكل وجودا سلبيا وتتخلى بالتالي عن استقلالها ، اننا نعاملها كدمية حية ونمنع عنها كل قبس من الحرية وهكذا تتشكل حولها حلقة مفرغة ، كلما تضاءلت حريتها في فهم وتحسس واكتشاف العالم الذي يحيط بها تضاءلت في نفس الوقت امكانياتها ولم تعد تجرأ على تأكيد

شخصيتها كوجود مستقل • ولا شك اننا لو بعثنا فيها الشجاعة لتسلك طريق التفكير المستقل كان بوسعها ان تظهر نفس الحماس المتوقد والفضول وروح المبادرة والبراعة التي وجدناها لدى الصبي • وهذا ما يحدث احيانا حين يشرف الرجال على تربية الفتاة فتتحاشى بذلك عددا كبيرا من المشاكل وتتخلص من القسم الاعظم من مساوىء الانوثة • غير ان العادات تعارض هذا الاتجاه وتمنع معاملة الفتيات تماما كالصبيان• ولقد اتيح لي ان اتعرف في احدى القرى على فتيات صغيرات يبلغن ٣ الى ٤ سنوات من العمر وكان والدهن يشرف على تربيتهن فيرتدين السراويل الرجالية • كان جميع الاطفال يستهجنون ذلك فيقولون انهن فتيات ولسن بصبيان ويحاولون بعد ذلك التأكد من طبيعة جنسهن لدرجة اضطرتهن الى التوسل كي يرتدين الاثواب النسائية • وباستثناء حالة الفتاة التي تعيش وحيدة منعزلة عن الناس فانها لن تستطيع ان تعيش وتتصرف كالصبي حتى ولو سمح لها اهلها بذلك لان الاشخاص الآخرين المحيطين بها ، صديقاتها واساتذتها سوف يضغطون عليها كي تقلع عن هذا الاتجاه فهنالك دائما العمات والجدات وبنات العم على استعداد في كل لحظة لمقاومة تأثير الاب • يقول ميشلة : ان احدى اللعنات المفروضة على المرأة هي انها تترك منذ حداثتها لتعيش في جو يحفل بالنساء • ان الصبي كذلك ينشأ في البداية ويترعرع تحت اشراف امه ، لكنها تكن الاحترام لرجولته فتتركه طليقا بعض الشيء بينما تسعى في ضم ابنتها الى عالمها النسوي • .

وسنرى فيما بعد ان العلاقات بين الام والفتاة معقدة للغاية : فالفتاة بالنسبة للام تشكل بنفس الوقت ازدواجا منها وشخصا آخر غريبا عنها ،

والام تحدب وتعطف على ابنتها بنفس الوقت الذي تظهر لها عداءها ، انها تفرض على الطفلة مصيرها الخاص وهذه طريقة تبرز بواسطتها انوثتها وتؤكدها وتحاول بنفس الوقت ان تنتقم منها . نحن نجد نفس العملية لدى اللواطيين والمقامرين وضحايا المخدرات فهم يغرون بالانتماء الى جماعة معينة ويشعرون بالخجل مع ذلك في نفس الوقت . وهكذا نرى انه اذا عهد بالطفلة الى النساء لتربيتها فانهن يعملن بقسوة وتعنت على تحويلها الى امرأة تماثلهن في الصفات والعادات . وحتى اذا كانت الام كريمة الطباع تسعى بصراحة واخلاص في سبيل هناء ورفاهية ابنتها، فانها تفكر عادة بانه من الانسب تربية ابنتها بشكل تصبح فيه «امرأة حقيقية» ما دام المجتمع سيقبلها على هذا الشكل بكل سهولة وترحيب .

لا تجد الفتاة والحالة هذه حولها سوى الفتيات الصغيرات ، ولا يعهد بها الا الى اساتذة من النساء اللواتي يخترن لها الكتب والالعاب التي تعدها وتدربها على اداء دورها كامرأة وبعلمنها الصفات والطباع النسائية فهي تتدرب على اصول الطبخ والعناية بالبيت في الوقت الذي تتعلم فيه كيف تتبرج وتتزين وتظهر بمظهر الحياء والخجل امام الناس . انها لا تنفك تسمع من هنا وهناك : فتي مستقيمة ، لا تتبختري مثل البطه ولا تقتبسي طرق الصبيان في الحركة ، كما يحرم عليها ان تقوم بالحركات العنيفة فلا يجب ان تصارع او تتضارب ، وبالاختصار يجب عليها كشلالها من النساء ان تكون خادمة وتمثالا محببا الى النفس . الا انه اصبح في يومنا هذا من الامور العادية ــ بفضل انتصارات الحركة النسائية ــ ان تشجع الفتاة على متابعة دراستها ومزاولة الرياضة وغير ذلك من الامور لكن اهلها يغفرون لها عدم نجاحها ويشترطون فيها ان

لا تهمل في الوقت ذاته شأنها كامرأة بل ان هذا الشرط يتمتع بالافضلية لدى الاهل لان الواجب الاساسي الملقى على عاتقها يبقى في ان تحافظ على انوثتها .

خلال السنين الاولى تستسلم الفتاة الصغيرة بدون اية مقاومة الى هذا المصير فالطفل يحيا في جو من اللعب والاحلام ولا يبالي بالمصير الذي ينتظره خاصة وانه بوسع الفتاة ان تعوض شعورها بتفوق الصبيان عليها في الآمال الكامنة في مستقبلها كامرأة هذه الآمال التي تحققت منذ الآن في لعبها . وما دامت الفتاة لا تعرف بعد سوى عالم الطفولة فان امها تظهر لها متمتعة بسلطة اكبر من سلطة الاب . ولذلك فهي تتخيل العالم بشكل تسود فيه سلطة الامومة وهذا ما يدعوها الى تقليد امها في حركاتها وسكناتها والى التمثل بها وغالبا ما تلجأ الى قلب الادوار فتقول «حين اصبح كبيرة وتصبحين انت صغيرة» والدمية ليست بالنسبة للطفلة الصغيرة ازدواجا لشخصيتها وانما هي طفلة كذلك ، فهي تدافع عن نفسها ضد امها وتتحلى بوقار الامومة حين توبخ وتعاقب ثم تغري وتدلل دميتها . وتلجأ احيا اخرى الى ائتمانها على اسرارها وتقوم بتربيتها وتؤكد عليها سلطتها المطلقة بل انها كثيرا ما تنتزع ذراعها وتضربها وتعذبها : اي انها تحقق من خلالها تجربة تأكيد شخصيتها وحلمها بالسيطرة . يتضح للفتاة الصغيرة ان العناية بالاطفال يقع على عاتق الام وهذا ما تتعلمه من خلال القصص التي تسمعها والكتب التي تقرأها كما ان تجربتها الشخصية تؤكد لها ذلك ، ويمكننا القول بالنتيجة ان وظيفة (المقدرة لها) تفرض عليها فرضا وتملى عليها املاء . وما دامت تربية الاطفال ستصبح في يوم من الايام من نصيبها فان فضولها ورغبتها في

معرفة خفايا التوالد يزداد شيئا فشيئا • انها لم تؤمن بان الاطفال يولدون او يأتون الى الحياة في ورقات الملفوف او تأتي بهم اللقالق (ج لقلق) خاصة اذا كان لديها اخوة واخوات ، وعلى كل حال فهي تتعلم بعد ذلك ان الرضيع يتشكل في بطن امها • وفي ايامنا هذه لم يعد الاهل يكتمون اسرار وخفايا الحمل والولادة عن الطفل كما درج الناس على كتمانها في الماضي • اما الفتاة الصغيرة فانها تعجب وتدهش اكثر مما تخاف نتيجة لاكتشاف هذه الظاهرة التي تعتبرها نوعا من السحر لانها لا تلم دفعة واحدة بالتفاصيل الفيزيولوجية لعملية الولادة • فهي تجهل دور الاب وتفترض ان المرأة تصبح حاملا نتيجة لتناولها لبعض الاغذية ، وهذه قصة اسطورية ، «يروى ان ملكات القصص الخرافية يلدن فتاة صغيرة او صبيا جميلا بعد تناول بعض الفاكهة ونوعا خاصا من الاسماك» •

تأخذ مجموعة هذه المشاكل والقضايا بلب الفتاة الصغيرة وحواسها وتغذي خيالها • واني اورد فيما يلي حالة نموذجية تشابه في عدة نواح حالة هانس الصغير التي حللها فرويد في نفس الوقت :

بدأت «آنا» تستفهم من اهلها عن مصدر المواليد الجدد وهي لم تتجاوز بعد الثالثة من عمرها ، وحين بلغت الرابعة رزقت امها بمولود ولم تكن آنا قد لاحظت انتفاخ بطن امها اثناء الحمل لكنها نظرت اليها بعد الولادة بحذر وضيق وانتهت الى القول : «هل ستموتين يا اماه ؟» • كانت تخيل ان الناس حين يموتون يصعدون الى السماء ثم يتقمصون هيئة الرضيع ولذلك فقد زادت دهشتها حين رأت امها في الفراش بعد الولادة ، وقد اصبحت بعد ذلك تشعر بالغيرة تجاه اخيها الصغير فكانت تحدث نفسها قصصا غريبة ولا تطيع اوامر اهلها وتهدد باللجوء الى

جدتها لحمايتها ، كانت تتهم في اغلب الاحيان بالكذب لانها كانت تشك في عدم اعلامها بحقيقة ولادة اخيها وكانت تسأل والدتها بالحاح «هل سأصبح امرأة مثلك يا أماه» واخذت تنادي اثناء الليل اهلها بصراخ عال • وفي يوم من الايام بدأت تسأل بلهفة «ما هو السبب في ان صوفي تصغرني سنا؟ اين كان فريتز قبل ان يولد؟ هل كان في السماء ؟٠٠ وماذا كان يفعل هناك ؟٠٠ ولماذا هبط منها الآن فحسب ؟٠٠» واضطرت امها اخيرا ان تشرح لها بأن الاخ الصغير نبت في بطنها كما تنبت النبتة في قلب الارض • أثار هذا التفسير اعجاب وسرور آنا لكنها استطردت متسائلة : هل خرج لوحده دون مساعدة احد ؟ ـ نعم • ـ ولكن كيف يفعل ذلك وهو لا يستطيع المشي ؟٠٠ ـ لقد خرج زاحفا ـ هل يوجد هنالك اذن ثقب ؟٠٠ (واشارت الى صدر امها) ، من اي مكان خرج هل فعل ذلك من خلال الفم ؟٠٠ وبدون ان تهتم بالجواب استدارت الى لعبها يشع من عينيها بريق الرضا والطمأنينة • وفي احد الايام سألت اباها حين رأته يرقد في السرير : «لماذا اراك مستلقيا في السرير يا أبتاه ؟٠٠ هل لديك انت الآخر نبتة في بطنك ؟٠٠» في هذه الفترة بدأت تعاودها احلامها المزعجة ومن السهل علينا ان نستنتج بانها كانت تسائل نفسها عن دور الاب في عملية الولادة • وفي صبيحة احد الايام كان والدها في غرفة التواليت فقفزت على سريره واستلقت متمددة على بطنها واخذت تحرك ساقيها قائلة : «اليس هذا ما يفعله والدي ثم سألت والدها قائلة : «ولكن كيف دخل فريتز الصغير بطن امي ؟٠٠ من هو الشخص الذي زرعه في جسمها ؟ وأنت من زرعك في بطن امك ؟ ومن اي مكان خرج فريتز ؟» فقال لها والدها ضاحكا «ماذا تعتقدين انت ؟٠٠» حينئذ اشارت

بيدها الى اعضائه التناسلية : هل خرج من هنا ٢٠٠ — نعم — «ولكن كيف استطاع ان يدخل في امي ٢٠ هل بذر في بطنها بعض الحبوب ؟» حينئذ افهمها والدها ان الاب هو الذي يعطي البذار . ظهرت علائم الرضا والسرور على وجه آنا وفي اليوم التالي بدأت تهكم على امها قائلة : «روى لي والدي ان فرتيز كان ملاكا صغيرا وان اللقلق هو الذي حمله الينا» واصبحت بعد ذلك هادئة اكثر من ذي قبل الا انها حلمت في يوم من الايام بمشاهدة بعض الفلاحين وهم يبولون وبينهم والدها وحلمت كذلك بعد ان شاهدت البستاني يصقل الخزانات بمنجر في يده . انه يجري نفس العملية على اعضائه التناسلية ، كانت بالطبع مشغلة البال في معرفة دور الاب الصحيح ، وعندما اكتملت معلوماتها نهائيا في سن الخامسة لم تعد تشعر بعد ذلك بأي قلق او اضطراب .

هذه القصة ، لها ميزتها الخاصة على الرغم من ان البنات يتساءلون بشكل اقل عن الدور الذي يلعبه الاب لان الاهل يتهربون من الجواب على هذا السؤال .

وكلما نضج ذهن الطفل اكثر فاكثر اتسع افق تفكيره وتوطدت دعائم مبدأ افضلية الذكور على الاناث . حينئذ لا يعود تقليد الفتاة لامها حلا مرضيا بالنسبة اليها واذا كانت الفتاة الصغيرة قد قبلت وظيفتها الانثوية فهذا لا يعني انها تنازلت ورضخت بل على العكس من ذلك فانها كانت تجد في هذا الحل وسيلة لاعلاء شأنها ، والحصول على السيادة ، فهي تريد ان تكون سيدة لان مجتمع السيدات يظهر لها متمتعا بالامتياز ولكن حين تنتزعها اتصالاتها مع الناس ودراستها والعابها وقراءاتها من محيط الامومة فانها تفهم ان اسياد العالم ليسوا النساء وانما

هم الرجال • وهذا الاكتشاف ــ اكثر من اكتشاف القضيب ــ يعدل بشكل جذري وعيها وفهمها لنفسها وتقديرها لمنزلتها •

يتضح تسلسل افضلية الجنسين باديء ذي بدء خلال التجربة العائلية ، فهي تفهم شيئا فشيئا انه اذا كانت سلطة الوالد لا تظهر بشكل محسوس كل يوم فانها هي التي تسود في البيت اولا واخيرا • حتى ولو كانت الام هي التي تسود في البيت عمليا فانها تحاول في شتى المناسبات ان تثبت بان ارادتها هي نتيجة لارادة زوجها الاب وذلك على الاقل في الحالات الهامة ، فمن خلال ارادته تتحكم هي في ادارة البيت وبأسمه تمنح وتعاقب •

ان حياة الاب محاطة بهالة من النفوذ الغامض : فالساعات التي يقضيها في البيت والغرفة التي يعمل فيها والاشياء التي تحيط به ومشاغله وهواياته كل ذلك يتخذ في نظر الاطفال صفة القدسية • انه هو الذي يقوم باعالة الاسرة وهو المسؤول عنها بصفته رئيسها • وهو يعمل عادة في الخارج وبواسطته يتصل البيت مع بقية الناس وهذا ما يجعله يظهر امام افراد عائلته وكأنه يجسد هذا العالم المغامر الواسع الصعب والرائع، انه السمو وانه لله ! وحينئذ تتغير وضعية الطفلة بشكل جذري فلقد كانت مدعوة لان تصبح في يوم من الايام امرأة مماثلة لامها التي لا حدود لسطوتها وسيطرتها لكنها لن تكون بعد الآن ابدا الاب الذي يتمتع بالسيادة المطلقة ، كانت صلتها بامها تتميز بنوع من المنافسة التي تحثها على تقبل الحياة،اما بالنسبة لابيها فهي لا يمكن ان تنتظر منه سوى تقديرا سلبيا ودون ان تكون هناك اية حاجة لمشاركتها • ان الصبي يتحسس السيادة الابوية من خلال شعوره بالتنافس بينما تتحمل الطفلة

هذه السيادة باعجاب سلبي •

لقد بينت من قبل ان ما يسميه فرويد بمركب (الكترا) لا يعبر في الواقع عن رغبة جنسية وانما هو تنازل عميق من صاحب العلاقة الذي يرضى بأن يكون مادة في الخضوع والتعذيب ، واذا اظهر الاب حنانه وعطفه نحو ابنته فانها تشعر ان وجودها له ما يبرره وتصبح حينئذ مزودة بجميع المناقب والصفات التي يصعب على الآخرين الحصول عليها ومن المحتمل انها ستشعر بالشوق طوال حياتها الى هذا الكمال وهذه الطمأنينة •

اما اذا لم يحظ بمثل هذا الحب فستشعر الى الابد بانها مذنبة او ستلجأ الى البحث في مكان آخر عن التقدير وزيادة الاعتبار وتصبح حين ذلك عديمة الاهتمام تجاه والدها وقد تشعر نحوه بالعداء • غير ان الاب لا يتمتع لوحده بهذا السلطان • فجميع الرجال يساهمون في خلق عظمة الرجولة وليس هناك من مجال للكلام عنهم (كبديل) عن الاب لانهم يسلبون لب الفتاة الصغيرة مباشرة بصفتهم رجالا سواء كانوا جدودها او اخواتها او اعمامها او اصدقاء الاسرة الخ •••

ولا شك ان التقدير المثير الذي تكنه الفتيات الراشدات نحو الرجل يكفي لكي يرفع مكانته نحو العلاء • كل شيء يساهم في تأكيد تفوق الرجل على المرأة في نظر الفتاة الصغيرة • فثقافتها التاريخية والادبية ، والاغاني والاساطير التي تسمعها تهدف جميعها الى تمجيد الرجل • ان الرجال هم الذين بنوا مجد اليونان ، والامبراطورية الرومانية ، وفرنسا وجميع الامم • وهم الذين اكتشفوا الارض واخترعوا الادوات التي تسمح لهم باستغلالها وهم الذين حكموها ، ونحتوا التماثيل ، ورسموا

اللوحات وألفوا الكتب • ويعكس ذلك ادب الاطفال والميتولوجيا والقصص والروايات والاساطير التي خلقتها كبرياء ورغبات الرجل ، فمن خلال عيون الرجال تسبر الفتاة الصغيرة غور العالم وتكشف عن مصيرها • والتاريخ مليء بقصص عظماء الرجال كما ان الفتيان هم الذين يدورون حول العالم في قصص المغامرات ويسافرون كملاحين في البواخر، وتقع جميع الاحداث الهامة بواسطة الرجال • ويؤكد الواقع صحة ما جاء في هذه القصص والاساطير فاذا ما قرأت الفتاة الصغيرة الصحف او اصغت الى محادثات الرجال الكبار فانها تتأكد هذا اليوم كما كانت تفعل في الماضي بان الرجال هم الذين يقودون العالم ويتحكمون فيه • ان رجالات الدولة ورؤسائها ، والجنرالات والمكتشفين ، والموسيقيين والرسامين الذين تولع بهم الفتاة هم رجال كذلك ، انهم رجال يبعثون في قلبها الخفقان من شدة الحماس •

كل شيء يدعو الفتاة لكي تتهالك حالمة بين ايدي الرجال فتنتقل بعد ذلك الى سماء المجد • انها تتعلم انه لكي تصبح سعيدة يجب عليها ان تحظى بحب الرجال ولكي تكون محبوبة يجب ان تكرس وقتها لانتظار الحبيب الموعود وامير الاحلام ••• المرأة هي (جميلة الغابات النائمة) وهي كذلك (بلانش نيج) و (ساندريلا) انها تلك التي تتقبل وتتحمل • ثم تقص علينا الاناشيد القديمة والاساطير الخرافية ، ان الفتى الشاب يذهب مغامرا للبحث عن المرأة ، فيفلق رأس التنين بسيفه ، ويصارع الجبابرة بينما تكون الفتاة سجينة في احدى القلاع او القصور ، في البستان او في الزنزانة مقيدة الى صخرة ، حبيسة ، نائمة او قلقة : انها تنتظر • في يوم ما سيعود امير احلامي وينقذني ••• في احد الايام

سيأتي على الدرب الطويل الرجل الذي احبه ... وهذه هي الالحان الشعبية تساهم كذلك في توجيه الفتاة وتبعث فيها احلام الصبر والامل . لقد اصبح من الضرورة القصوى بالنسبة للانثى ان تأسر قلب الرجل ولكي تتوصل الى ذلك تراها تحاول ان تظهر في حياتها بمظهر الضحية الى ان يأتي فارس احلامها فينتشلها من ورطتها . وقد كتبت مدام دو نواي تقول : «كنت اتمنى وانا لم ازل صغيرة السن ، ان احظى بعطف الرجال وان اثير قلقهم علي وان انجو من المآزق بفضلهم ، وحتى ان اموت بين ايديهم» . توجه الالعاب والاحلام الفتاة الصغيرة، وتطورها شيئاً فشيئاً نحو السلبية في تصرفاتها . لكنها مع ذلك تشعر بانها نفس بشرية قبل ان تكون امرأة ، وهي تعرف منذ الآن ان قبول مصيرها كامرأة يعني تخليها عن استقلالها وتشوه شخصيتها . ان الرجل والحب لا زالا بعيدان عنها في ضباب المستقبل ، اما الآن فانها تبحث مثل اخوتها عن النشاط والحركة والاستقلال . ولا شك ان عبء الحرية ليس بثقيل على الاطفال لانه لا يستلزم وضع اية مسؤولية على عاتقهم . ولذلك فان جنوح الفتاة القطري الى الحياة وتذوقها اللعب والضحك والمغامرة يجعلها تشعر بأن الوسط الذي تعيش فيه مع امها هو وسط ضيق خانق وتتمنى لو تتخلص من سيطرته وسلطانه .

ومما يزيد في عنف ثورة الفتاة ان امها تفقد في اغلب الاحيان نفوذها وسمعتها وتتلاشى من حولها هالة السيطرة والنفوذ وتظهر كبقية النساء في وضعها السلبي، تنتظر وتتحمل، وتشكو وتبكي فتبدو حياتها نموذجاً حياً للتكرار الممل .

تأبى الفتاة الصغيرة في هذه الفترة ان تشبه امها ، ولذلك فانها تكن

تقديساً واحتراماً كبيرين للنساء اللواتي يتفادين الوقوع تحت وطأة العبودية النسوية كالممثلات والكاتبات والاستاذات كما نراها تشغل نفسها بالرياضة والدراسة ، وتحاول ان تقلد الذكور فتتسلق الاشجار وتمزق الثياب ، وتختار في اكثر الاحيان صديقة وفية ، تفشي لها اسرارها وتكن لها حبا يشبه الحب العاطفي كما انها تقاسمها الاسرار الجنسية والواقع ان الفتيات الصغيرات يتبادلن المعلومات التي نجحن في الحصول عليها ويعلقن عليها .

وتستاء الفتاة الصغيرة عادة من قواعد التحفظ والسلوك المفروض عليها كما تتضايق كثيرا من ثيابها وقد اثبت احد الاستفتاءات ان الاكثرية الساحقة من الفتيان صرحوا بعدم وجود اية رغبة لديهم في التحول الى فتيات وصرح اكثر من ٧٥٪ من الفتيات انهن كن يفضلن لو خلقن رجالا ، وتبرر الفتيات هذا الاختيار بالحجج التالية :

«لا يتألم الفتيان كما تتألم الفتاة في حياتها» «ان امي تحبني اكثر اذا كنت صبيا» «يستطيع الفتى ان يقوم باعمال اكثر اهمية» «يتمتع الفتى بامكانيات اكبر في الدراسة» «حينئذ سأتمكن من تسلية نفسي في تخويف البنات» «ولن احس بالخوف من الصبيان» «انهم جميعا احرار» «لايتضايقون من لباسهم» .

وحين تبلغ الفتاة ١٠ — ١٢ من عمرها يمكننا ان نطلق عليها لقب (الصبي الفاشل) وهي لا تتألم من فشلها هذا لانه يشكل بالنسبة لها حرمانا وظلما فحسب وانما لان النظام الذي يفرض عليها هو في حد ذاته غير صالح للحياة فايامها تصبح فارغة لا يوجد فيها اي نشاط او حركة يسود فيها الضجر والتبرم وحدة الاعصاب لذلك نراها تستسلم لاحلامها

العاطفية لتعوض مرارة فشلها فتبدأ بفقدان معنى الواقع وتنشد التعزية في عواطفها النرسيسية (عبادة الذات) ، فتتخيل نفسها بطلة قصة تعجب بجمالها وتشكو من واقعها المؤلم • ومن الطبيعي جدا ان تصبح نتيجة لذلك مولعة بالزينة والتبرج والكوميديا ، كما تتضاعف هذه المساويء في فترة البلوغ فتكثر حالات نفاذ الصبر وازمات الغضب ومشاهد الدموع • ان الفتاة تولع بشكل خاص بالبكاء وسبب ذلك يعود الى ميلها للظهور بشكل الضحية وقد روى المونسنيور دوبانلوب يقول : «تحب الفتيات الصغيرات البكاء حبا شديدا لدرجة ان احداهن كانت تذهب للبكاء امام المرآة لتتمتع بشكل مضاعف بلذة منظرها وهي تبكي» •

انها والحق لتجربة غريبة بالنسبة لانسان كان يحس بنفسه كشخصية مستقلة يتصرف بحياته بكل حرية فيكتشف فجأة بانه مكبل بقيود التبعية • انها لتجربة غريبة لمن يفترض كونه (واحدا) مستقلا متمتعا بكافة صفات الشخصية فيكتشف ان الميزة الرئيسية لطبيعته هي الشعور بالنقص تجاه الآخرين • وهذا ما يحدث للفتاة الصغيرة عندما تتمرس في مدرسة الحياة فتشعر بأنها امرأة وان الوسط الذي تنتمي اليه مغلق عليها من كل جانب ، محدود الافق يسيطر عليه عالم الذكور • ومهما اتبعت من اساليب التحرر والمغامرة فسيكون دائما فوق رأسها سقف يمنعها من الارتفاع وستنتصب من حولها جدران تحد من حركتها وتقطع عليها السبل • ان آلهة الرجل يقطنون بعيدا عنه في أقاصي السموات لدرجة لا يشعر بوجودهم ، اما الفتاة الصغيرة فانها تعيش بين آلهة على صورة البشر !

لقد تقرر مصيرها ! فستصبح زوجة ، وأما ، وجدة ، وستشرف على العناية ببيتها وبأطفالها كما تفعل امها تماما انها لم تتجاوز بعد الثانية عشرة من عمرها ومع ذلك فان تاريخها مكتوب في السماء بحروف من نار ، وعلى مر الايام ستكتشف مستقبلها السلبي دون ان تساهم في بنائه ، وانها لتشعر بالفضول الممزوج بالخوف حين تفكر بهذه الحياة التي تحددت طبيعتها منذ الآن والتي تقاد نحوها انقيادا اعمى في كل لحظة تعيش فيها .

ولا شك ان مصيرها المحتوم يدفعها لان تهتم اكثر من اخوتها باسرار وخفايا الحياة الجنسية ، هذه الاسرار التي تشعر شعورا مبهما بانها تهدد جسمها وكيانها . لقد تبدد سحر الامومة وسواء اكتشفت اسرار الحياة الجنسية بصورة مبكرة او متأخرة فانها تعلم ان الطفل لا يظهر مصادفة في بطن امه وانه لا يخرج منها بفضل العصا السحرية ، وانها لتهدس بقلق في هذه الامور ، اذ لم يعد يبدو لها من الامور المحببة الرائعة ان تتولد في احشائها اجسام طفيلية . نعم ان السؤال يدور ويدور في رأسها : كيف يخرج الطفل ! وحتى لو انها لم تسمع من قبل بآلام الولادة فلا بد ان تكون قد قرأت كلمات الانجيل : «ستلدين في الالم» انها تشعر منذ الآن بآلام الولادة دون ان تتوصل الى تحديد طبيعتها فتتخيل عددا غريبا من العمليات في بطنها واذا ما افترضت بأن الجنين سيقذف من الخلف فهذا لن يكون من بواعث طمأنينتها . وقد روي بأن بعض الفتيات الصغيرات أصبن بانقباض عصبي في الامعاء اثر تصور طريقة الولادة ، كما ان الشروح الحقيقية الصحيحة لاسرار التوالد لا تقدم اية مساعدة للطفلة لان صور الجروح والتمزق والنزيف

لا تنفك تراود مخيلتها كالكابوس . وقد روت الكاتبة الشهيرة (كوليت) ان امها وجدتها مغميا عليها بعد ان قرأت في كتب (اميل زولا) وصفا مفصلا لعملية الوضع .

توحي الصفات الفيزيائية للحمل والوضع ، بأنه لا بد وان يحدث (شيء جسماني) بين الزوجين . ان كلمة (الدم) التي تتردد كثيرا في بعض التعابير مثل «اولاد من نفس الدم ، دم اصيل ، دم ممزوج» توجه احيانا مخيلة الطفلة فتفترض ان الزواج لا يتم الا خلال احتفال تجري فيه عملية نقل الدم بين الرجل والمرأة . لكن (الشيء الجسماني) يبدو مرتبطا في اغلب الاحيان بعمليات التبول والتفريغ بصورة خاصة فيفترض الطفل ان الرجل يبول ضمن جسم المرأة ولذلك فانه ينظر الى الجماع كشيء (وسخ) ويتساءل مع نفسه : كيف يقبل الراشدون القيام بمثل هذه العملية الوسخة ؟ لكنه لا يجد اي معنى للاجوبة الغامضة التي يسمعها او يقرؤها ويبدو له ان كل شيء خيالي بعيد جدا عن الواقع . بل ان الخوف يداهمه في بعض الاحيان حين يشتبه ان اهله واصدقاءه واساتذته يقومون بمثل هذا العمل . وفيما يلي اعترافات طفلة عن خواطرها حين اكتشفت هذه الحقيقة :

«حين حدثوني لاول مرة عن العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة ، صرحت بأن هذا مستحيل لانه لو كان الامر كذلك لوجب على والدي ان يقوم بها وانا اقدرهما لدرجة لا اتصور . . قدامهما على مثل هذه الامور . لكنني اردد بأنه لا يمكن ان . . نما على ذلك ابدا فهي عملية مقرفة للغاية . ولكني ادركت بعد مدة كم كنت مخدوعة عندما اكتشفت ما يقوم به والداي ... كانت لحظة فظيعة مؤلمة وكنت اخفي وجهي تحت

الغطاء واسد اذني متمنية ان اكون على بعد آلاف الكيلومترات من مكاني !» .

كيف يمكن للطفل ان ينتقل من صورة اناس وقورين يرتدون الثياب ، اناس يرددون كل يوم على مسامعه تعاليم الحشمة والتحفظ والوقار ، الى صورة وحشين عاريين يتعانقان ويتصارعان ؟ ان في هذا تشكيك في هيبة الراشدين يزعزع مكانتهم ومنزلتهم الكبيرتين . وكثيرا ما يرفض الطفل بعناد هذا الاكتشاف المقيت فيقول : «ان اهلي لا يفعلون ذلك» ويحاول في بعض الاحيان ان يضفي على العملية صورة محتشمة كما صرحت بذلك احدى الفتيات مثلا : «حين يريد المتزوجون ان يرزقوا اطفالا فانهم يذهبون الى الطبيب فيخلعون ثيابهم ويسترون اعينهم بشريطين من القماش كي لا يروا شيئا ، ثم يربط الطبيب الزوجين الى بعضهما ويدهنهما بدهن العون لكي تسير الامور على ما يرام» اي ان الفتاة حولت في مخيلتها العمل الجنسي الى عملية جراحية ، لا شك انها لا تجلب شيئا من المتعة لكنها تشكل عملا مشرفا في حد ذاته يعادل الزيارة التي يقوم بها كل انسان الى طبيب الاسنان . لكن الشك يتسلل الى قلب الفتاة على الرغم من الرفض والهرب وتحدث فيه ظاهرة مؤلمة تعادل الآلام التي خلقتها فترة الفطام في نفسها لانها في هذه الحالة لم تفقد عطف امها عليها فحسب كما كانت هي الحال بعد الفطام ، وانما تشعر وكأن عالمها الخيالي الذي كان يحميها قد انهار من حولها ، فتجد نفسها بدون سقف فوق رأسها منعزلة وحيدة امام مستقبل حالك الظلام.

ومما يزيد في بؤسها انها لا تتمكن من تحديد تفاصيل هذه اللغة المبهمة التي ترزح تحتها بشكل كامل ، فالمعلومات التي حصلت عليها متناثرة

وغير مرتبطة فيما بينها والكتب متناقضة وحتى الشروح الفنية لا تستطيع ان تزيل الظل الثقيل الحالك السواد ، فهنالك مائة سؤال بدون جواب : هل يؤلم العمل الجنسي ام يبعث في النفس اللذة والنشوة ؟ وكم من الوقت يستغرق ؟ خمس دقائق ام طوال الليل ! هل يقوم الناس بالعمل الجنسي كل يوم ام نادراً ؟ ومتى تحمل المرأة وكيف الخ... ان الولد يحاول ان يفهم كل ذلك بقراءة الكتب ومراجعة القواميس وسؤال الرفقاء في جو يسوده الظلام والاشمئزاز . وقد اجرى الدكتور (ليجان) استفتاء لدى بعض الفتيات فيما يتعلق بمعلوماتهن عن الحياة الجنسية فقالت احداهن :

«من اين يخرج الاطفال ؟ لقد تعلمت الجواب على هذا السؤال في المدرسة وشعرت حينئذ بأن ذلك يجب ان يثير القرف والاشمئزاز . ولكن كيف يأتون الى الدنيا ؟ كنا نتصور ذلك كشيء غريب وحتى ، خاصة منذ ان صادفنا ونحن ذاهبات الى المدرسة في يوم من ايام الشتاء رجلا ارانا اعضاءه التناسلية قلنا وهو يقترب منا : «الا يبدو لكم هذا لطيفاً يستهوي القضم ؟» وقد بلغ اشمئزازنا من هذا الموضوع بعد هذه الحادثة حدا لا يحتمل ، وبقيت حتى سن الحادية والعشرين اتصور ان الاطفال يأتون الى الدنيا من خلال السرة» .

وقالت فتاة اخرى :

انتحت بي فتاة من زميلاتي جانباً وسألتني : «هل تعرفين من اين يخرج الاولاد ؟» وحين اجبت بالنفي قالت لي : «يا لك من غبية .. ان الاولاد يخرجون من بطن الامهات ، ولكي يأتوا الى الدنيا يجب ان تقوم النساء بشيء مقرف تماما مع الرجل !» ثم فسرت لي معنى كلماتها

بالتفصيل «غير اني لم اصدق ما قالته لي الى ان حدث في يوم من الايام ونحن نيام في نفس غرفة والدينا ، ان سمعنا ما لم اصدقه يجري بينهما ، فغمرني الحياء واصبحت اخجل من والدي واشعر بالحسرة على اكتشاف هذه الاشياء المثيرة للاشمئزاز» .

يجب ان نضيف على ذلك بأنه حتى ولو تلقى الاطفال تعليما مناسبا حول هذا الموضوع فان حسن نية الاهل والاساتذة في تفهيم الاطفال دقائق العمل العاطفي لن تجدي نفعا لانه لا يفهم الا عن طريق الممارسة الحية . ولا شك انه بوسع الكتاب والعلماء ان يكشفوا النقاب نظريا عن خفايا التوالد لكنه من الصعب عليهم ان يبينوا بنفس الوضوح اسرار الشهوة الجسدية والحب الجنسي . كيف يمكننا ان نشرح لطفل لا يتمتع باي احساس جنسي ، معنى ولذة القبل والمداعبات ؟ يحدث كثيرا في جو الاسرة ان يتبادل اعضاؤها القبل و في بعض الاحيان بواسطة الشفاه ، فلماذا يثير هذا اللقاء النشوة والشعور بالارتخاء ؟ لا شك ان شرح هذه الامور للاطفال يعادل القدرة على وصف الالوان للعميان ، وما دام الطفل يفتقر الى هذا الشعور بالانفعال والرغبة الجسدية اللذين يعطيان الوظيفة العاطفية معناها وحدتها ، فان مختلف عناصرها تبقى غريبة مبهمة مثيرة لاشمئزازه .

تتعرض الفتيات كثيرا في هذه الايام بسبب انتشار عادة التعري امام الملا الى رؤية الاعضاء التناسلية للصبية والرجال في وضع الانتصاب وعلى كل حال بد بد وانهن لاحظن الاجزاء الجنسية للحيوانات فتثور ثائرتهن حين يفهمن انه لكي تتحول الفتاة الى امرأة يجب ان ينفذ فيها عضو الرجل . ومن المؤسف ان عضو الحصان هو الذي تقع عليه

انظارهن اكثر من غيره وهذا ما يدعونا الى تفهم اسباب فزع وهلع الفتيات امام هذه المناظر • انهن يتعرضن للخوف من الوضع والخوف من عضو الذكر ومن الازمات التي تهدد المتزوجين ويغمرهن الاشمئزاز لهذه الاعمال الوسخة العديمة المعنى •• كل ذلك يدفع الفتاة الصغيرة لان تصيح : «لن اتزوج مطلقا» وهذا يشكل امنع دفاع تقوم به الفتاة ضد الالم والجنون والحياء •

وعلى الرغم من كل ذلك فان التحول لا بد ان يتحقق في سن البلوغ الذي لا تفهم البنت الصغيرة اي معنى له ولكنها تشعر في قرارة نفسها بأن بعض الاشياء هي في سبيل التبدل والتحول في علاقات جسمها مع العالم الخارجي • انها تصبح حساسة تجاه بعض الاشياء التي تحتك بها وتجاه انواع خاصة من الروائح التي كانت لا تهتم بها في السابق ، وتمر في رأسها الصغير بعض الصور الغريبة كما انها لا تتبين جسمها وشكلها الا بصعوبة امام المرآة ، انها تشعر في قرارة نفسها بوجود شيء مضحك فيها وقد وصفت مارغريت كندي في معرض حديثها عن احدى بطلات قصصها (تيسا) هذا الاضطراب الغريب :

«وفجأة شعرت بعمق انها تعيسة للغاية ، وكانت عيناها تنظران بهلع في ظلمة القاعة التي يتسرب اليها ضوء القمر من خلال الباب المفتوح • لم تعد تيسا تستطيع المكوث طويلا في الظلام فنهضت بقفزة واحدة وهي تصيح بصوت حاد : — اوه كم اكره العالم كله — ثم ركضت بهلع وبغضب نحو الجبال لتختبيء فيها يتبعها احساس حزين بغرابة ما ينفعل في نفسها ، وكانت تهمس قائلة وهي تتعثر على الطريق الوعرة : (كم اود ان اموت ، اريد ان اكون ميتة الآن) •

كانت تعلم انها لا تفكر بتنفيذ ما تقول ، فلم تكن لها اية رغبة في الموت لكن عنف كلماتها كان بمثابة ترضية خاصة لها ...

ان ما يحدث في هذه الفترة المضطربة هو ان جسم الطفلة يتحول الى جسم امرأة ويصبح مشيراً للمشاعر الجنسية وباستثناء حالات الاضطراب الغددي حيث تبقى الطفلة في مرحلة الطفولة فان ازمة البلوغ تدخل في حياة الفتاة حوالي الـ ١٢ أو ١٣ من عمرها .

تبدأ هذه الازمة بشكل مبكر لدى الفتاة وتؤدي الى حدوث تغيرات جذرية هامة في حياتها وتشعر خلال هذه المرحلة بالقلق والاستياء ففي اللحظة التي ينمو فيها ثدياها وشعرها ، يتولد لديها احساس بالخجل والحياء ينقلب في بعض الاحيان الى شعور بالعزة والكرامة ، وتبدي الفتاة بشكل مفاجىء حياءها فترفض ان تظهر عارية امام اخواتها او امها وتتفحص نفسها بدهشة ممزوجة بالفزع ، وتراقب بقلق انتفاخ هذه النواة الصلبة المؤلمة بعض الشيء التي تظهر تحت حلمتي الثديين ولا شك ان هذه الآلام الخفيفة ليست شيئاً مذكوراً امام عذاب الحروق وألم الاسنان لكن الطوارىء والامراض والآلام كانت دائماً شيئاً غير عادي في حياة الانسان . هنالك اشياء تحدث في داخل هذا الجسم الفتي ، انها اشياء لا يمكن ان توصف بالمرض ولكنها مقررة بموجب قانون الحياة نفسه ومع ذلك فهي صراع وألم واحزان . ولا شك ان الفتاة قد نمت منذ الولادة حتى البلوغ لكنها لا تشعر بهذا النمو الا في فترة البلوغ . كان جسمها يظهر لها يوماً بعد يوم كشيء ملموس واقعي تام . اما الآن فانها تتشكل وتتحول وهذه الكلمات نفسها تكفي لتبعث فيها شعور الهلع لان الظواهر الحياتية لا يمكن ان تبعث الشعور بالطمأنينة الا اذا

وجدت في حالة التوازن • لكن براعم صدرها المتفتحة تدفع الفتاة الى الشعور بغموض كلمة •• الحياة ، انها ليست ذهبا ولا لؤلؤا ولكنها مادة غريبة غير ثابتة في حركة مستمرة تتفاعل في قلبها بعض المواد الكيماوية غير الصافية • لقد تعودت على شعر طويل يتهدل كالحرير على جسمها ولكن هذه النبتة الجديدة تحت ابطها وفي اسفل بطنها تحولها الى شكل وحش او شكل الطحلب المتناثر على سطح الماء وسواء كانت تعلم ما يخبيء القدر لها او لم تعلم فانها تكتشف في هذه التبديلات والتغيرات حقائق تنتزعها من نفسها وها هي تجد نفسها الآن تسبح في بحر الحياة الذي يتجاوز في مداه وجودها نفسها ، ومن بعيد تراها تتحسس صلة التبعية التي تربطها الى الرجل ، الى الطفل ، الى القبر • ويخيل للفتاة ان نمو الثديين على هذا الشكل البارز هو في حد ذاته امر عديم الفائدة وغير مرغوب فيه • اما الذراعان والساقان والبشرة والعضلات وحتى الييتاها المستديرتان اللتان تقعد عليهما كل ذلك كان له حتى الآن استعمال واضح صريح باستثناء العضو التناسلي الذي كانت تعتبره العضو المستعمل للتبول ، كان هذا العضو غريبا بالنسبة اليها ولكنه خفي غير مرئي بالنسبة للآخرين • وانها لتود لو اختفت من بين الناس كي لا يلحظوا تطورها وحالتها الجديدة ، فان الخوف ليتملكها من ان تصبح جسما ينبض بالعاطفة الجنسية وان تبرز محاسنها• ينعكس هذا الخوف والاشمئزاز لدى عدد كبير من الفتيات فيعملن على ان تصبح اجسامهن نحيلة ، ويمتنعن عن الاكل خشية السمنة وتصبح الاخريات خجولات بشكل مرضي فالدخول الى الردهة وحتى الخروج الى الشارع هو عذاب بالنسبة اليهن الى غير ذلك من المضاعفات التي

تتولد لدى الفتاة في فترة البلوغ • اما الاهل فيساهمون في تثبيت الخجل والخوف من مظهرها الجسماني الجديد وهذا ما يحمل الفتاة على ان تتصرف بخشونة ، وتحمر وجنتاها في كل مناسبة وقد روى (ستيكل) ان احدى الفتيات كانت تحمر خجلا بصورة مرضية وعنيفة لدرجة انها خلال عام كانت تحمل ضمادات حول وجهها مدعية انها مصابة بوجع الاسنان • وتهمل الام في اغلب الاحيان لفت نظر ابنتها الى احتمال مجيء الطمث لديها ، الامر الذي يزيد في ارتباكها وتعاستها وغالبا ما تكشف الام لفتاتها عن اسرار الحمل والولادة وحتى العلاقات الجنسية لكنها لا تنبئها بأية معلومات عن الدورة الشهرية وهذا يعود الى ان الام نفسها تشعر بالاشمئزاز من هذه العبودية النسوية • كما ان الفتيات يحسبن انهن مصابات بمغص في البطن او نزيف مميت او مرض مخجل حين يجدن في ثيابهن بقعا تثير الشك وقد بينت نتائج التحقيقات التي اجراها سنة ١٨٩٦ هافلوك اليس انه من بين (١٢٥) تلميذة امركية (٣٦) لا يعرفن شيئا عن الدورة الشهرية و (٣٩) اخذن عن الموضوع مباديء اولية بسيطة اي ان اكثر من النصف كن في حالة الجهل التام وتقول هيلين دوتش ان الامور لم تتبدل عما كانت عليه سابقا في عام ١٩٤٦ فيضرب لنا هافلوك مثلا حالة الطفلة التي رمت بنفسها في السين لانها كانت تعتقد انها مصابة بمرض مجهول ، كما يروي لنا ستيكل في كتابه (رسائل الى ام) قصة طفلة حاولت الانتحار حين داهمتها الدورة الشهرية ورأت الدماء تسيل على ساقيها لانها اعتقدت بأن هذه الظاهرة ليست سوى عقاب لها عن الذنوب التي تدنس روحها ، ومن الطبيعي ان الخوف اصاب الفتاة فخيل اليها انها تفقد حياتها • ويقول كلاين وغيره من رواد المدرسة

البيسكانالوزية الانكليزية ان الدم يمثل في عيني الفتاة الجروح التي اصابت الاعضاء الداخلية .

تجري الامور بشكل مماثل بالنسبة لجميع الفتيات الصغيرات وينتاب اغلبهن الهلع والخوف لانه يتحتم عليهن افشاء سرهن الى الآخرين وقد قصت علي صديقة لي انها كانت تعيش بدون ام بين ايديها احدى المعلمات فأمضت ثلاثة شهور بين الخوف والخجل تخفي سرها وشوائبها الى ان فضح امرها . حتى الفلاحات اللواتي ينتظر منهن ان يكن على جانب من الخبرة بسبب حياتهن الخشنة قرب عدد من اصناف الحيوانات الاخرى فان وقع الدورة الشهرية عليهن يماثل ما يحصل لفتيات المدن من خوف وارتباك ، وقد تعرفت الى مزارعة شابة ظلت خلال فصل الشتاء الطويل تغسل ثيابها خفية في الساقية المتجمدة مرتدية قميصها المبتل بالماء ، كي تخفي سرها الذي تخاف البوح بـه واني لاستطيع ان اضرب امثلة كثيرة مماثلة على هذه الحالات النفسية المعقدة .

غير ان الاقرار والاعتراف بهذا السر امام الآخرين لا يعني خلاص الفتاة ولا شك ان الام التي صفعت بحدة ابنتها التي سألتها بعض الامور قائلة : (انتها الغبية انك لا زلت صغيرة السن) ، هو أمر استثنائي في حد ذاته لكن اغلبية الامهات لا تعطي الفتاة الايضاحات الكافية فتبقى مغمورة بالارتباك امام هذه الوضعية الجديدة التي خلقتها الدورة الشهرية الاولى : فهي تتساءل فيما اذا كان المستقبل يخبئ لها مفاجآت مؤلمة اخرى او تتخيل بأنها منذ الآن تستطيع ان تصبح حاملة بمجرد الاحتكاك بأي رجل ، الامر الذي يجعلها تشعر نحو الذكور بهلع وذعر شديدين . وحتى اذا اردنا ان نجنبها هذه المتاعب والاضطرابات وذلك

بتزويدها بالشروح الكافية فاننا لن نعيد السلام الى قلبها بهذه السهولة قبل البلوغ وكان بوسع الفتاة ان تتخيل قبل البلوغ مع بعض سوء النية انها مجردة عن الشعور الجنسي بل يمكنها الا تفكر على الاطلاق ، وقد يحدث لها ان تحلم بانها ستفتح عينيها في صبيحة احد الايام لتجد نفسها قد تحولت الى رجل ، اما الآن فان الامهات والعمات يتهامسن وعلائم الفخر بادية على وجوههن : (انها لفتاة كبيرة الآن) • نعم لقد ربحت جماعة الامهات المعركة ، : انها تنتمي اليهن الآن • وها هي تنضم الى صفوف الآلاف من النساء ، كما يحدث احيانا ان تشعر الفتاة بالفخر نتيجة لبلوغها فهي تفكر بأنها اصبحت شخصا كبيرا وان حياتها ستتعرض الى انقلاب كبير •

الفصل الثاني

الفتاة المراهقة

•

تعرضت الفتاة خلال طفولتها الى مختلف انواع الضغط والحرمان ، ولكنها مع ذلك كانت تتحسس في قرارة نفسها وجود شخصية مستقلة لها . ففي علاقاتها مع اهلها واصدقائها ، في دراستها وفي العابها في كل ذلك كانت تكتشف في نفسها تجاوزا : فلم تكن تفعل سوى الحلم بسلبيتها المستقبلة . غير انها اكتشفت حين ادركها البلوغ ان المستقبل لا يقترب منها فحسب وانما يستقر في جسمها ويصبح واقعا ملموسا . منعتقة من ماضيها الطفولي يتراءى لها الحاضر الآن كمرحلة انتقالية لانها لا تلمح فيه اي هدف يمكن ان يستثير شعورها ومخيلتها . وبشكل عام تمضي الفتاة شبابها في الانتظار والترقب . انها تنتظر الرجل . لقد اكتفت الفتاة طوال حياتها بتفوق الرجل عليها وهذه السمة التي يتحلى بها الذكور ليست سرابا صبيانيا في خيالها بل تستند على اسس اقتصادية واجتماعية . ذلك الرجال هم اسياد العالم في جميع الاحوال ، وكل شيء يوجه المراهقة نحو هذا الاعتقاد ويقنعها بأن مصلحتها تقضي عليها بان تكون تابعة للرجل ، فالاب فخور بنجاح ابنته لدى الرجال والام ترى في ذلك املا في تأمين مستقبل مزدهر لابنتها والرفيقات يعجبن برفيقتهن

التي تحظى باكبر قسط من اعجاب الذكور • ففي المعاهد الاميركية تقاس منزلة الطالبة بعدد المواعيد التي تحصل عليها من الرجال • ان الزواج لا يشكل فقط مهنة مشرفة اقل تبعا من غيرها وانما يسمح للفتاة بان تتمتع بكامل منزلتها الاجتماعية وان تحقق امالها الجنسية في ان تكون عشيقة واما في آن واحد • ومن المتفق عليه اجماعا ان الحصول على زوج هو اكبر مشروع بالنسبة للفتاة • ولا شك ان الزواج يحرر الفتاة من منزل اهلها ومن سيطرة امها ويفتح امامها المستقبل بواسطة استلامها السلبي الراضي بين ذراعي السيد الجديد • فهناك من يدعي ان الفتاة حين تستسلم بهذه الطريقة وتتخلى عن شخصيتها فان ذلك يعود الى كونها اقل منزلة جسمانيا ومعنويا من الفتيان الذين لا تستطيع منافستهم • ولا شك ان البلوغ يطور جسم المراهقة فيصبح اكثر ضعفا من قبل ، اما الاعضاء الانثوية فهي اكثر دقة ونعومة كما يشكل الثديان بالنسبة للفتاة حملا ثقيلا لانهما يذكرانها في كل حركة عنيفة تقوم بها ، وكثيرا ما يسببان لها الآلام • ويخلق عدم توازن افراز الهرمونات لديها قلقا عصبيا مستمرا ، كما تسبب لها ازمة الدورة الشهرية الما لا يحتمل : اوجاع في الرأس اوجاع في العضلات آلام في البطن كل ذلك يجعل من العسير على الفتاة ان تقوم باعباء اعمالها العادية ، وبالاضافة الى هذه الآلام الجسمانية تحس الفتاة في اغلب الاحيان باضطرابات نفسية فتصبح عصبية المزاج سريعة التأثر، وتفقد السيطرة على جهازها العصبي وجهازها السمباتي وتحدث لديها اضطرابات في دورة الدم وبعض التسممات الذاتية بشكل يضع بين الفتاة والعالم غشاوة من الضباب المحرق يجثم عليها فيخنقها ويفصلها عما حولها • ومن خلال هذا الجسد التاعب

السلبي ترى الفتاة العالم المحيط بها وكأنه حمل ثقيل يكاد يخنق انفاسها، انها مضطهدة ومضغوطة بالآلام غريبة عن نفسها بسبب شعورها بانفصالها عن العالم الذي تعيش فيه .

ان الذكر يلجأ الى المشاجرة وتبادل اللكمات حين يتعرض للاساءة او الى اية محاولة لاذلاله واخضاعه فهو لا يسمح بالتجاوز عليه من قبل الآخرين ، والعنف هو الدليل الحي الذي يبرز فيه شخصيته وارادته . ولا شك ان رفض العنف بشكل جذري يعني رفض كل حقيقة موضوعية والانحباس في الشخصية الخيالية ، وان الغضب والثورة اللذين لا يتجسدان في العضلات يظلان ضربا من ضروب الخيال . انه لحرمان مخيف ان لا يستطيع الانسان تسجيل خفقات وضربات قلبه على سطح الارض . ففي جنوبي الولايات المتحدة لا يمكن للزنجي باي شكل من الاشكال ان يستعمل العنف تجاه البيض وهذا هو مفتاح (الروح السوداء) القاتمة الغريبة ، وهذه الحقيقة تفسر تصرفات وسلوك الزنجي السلبية في المجتمع الذي حكم عليه ان يعيش فيه مقيدا سجينا . وهكذا تتخذ العالم بالنسبة للمراهق وجها يختلف عن العالم الذي تعيش فيه المراهقة حيث تحرم عواطفها من كل فعالية آنية . ويولد هذا الضعف الجسماني لدى الفتاة شعورا بالنقص يجعلها بصورة عامة خجولة منكمشة على نفسها ، فهي لا تؤمن بقوة جسمها التي لم يتسن لها ممارستها ولا تجرأ على القيام بأي عمل من اعمال المبادرة فلا تثور ولا تبتكر بل تترك نفسها في عالم يسوده الاستسلام والخضوع . انها تقبل نظام الحياة المفروض عليها كما هو دون اي تغيير او تبديل . ولقد اتيحت لي فرصة التعرف الى فتاة شابة تلقت تربية الرجال وكانت تتمتع

بقوة جسمانية استثنائية وكانت تعتقد انها تماثل الرجال قوة واقتدارا وعلى الرغم من انها كانت جميلة وان العادة الشهرية كانت تعرضها شهريا لشتى الآلام العنيفة ، فانها لم تكن تعي او تسلم بانوثتها فكانت تتصرف بنفس العنف والاندفاع وتقوم بنفس الاعمال التي يقوم بها الشباب ولم تكن تتردد في الدخول في مشاجرات على طريقة الصبيان . لكن تجربتين مؤلمتين تعرضت لهما في تلك الفترة كانتا بالنسبة اليها دافعا لكي تسلم وتؤمن بان القوة هي بجانب الذكور فانهارت ثقتها بنفسها حين اضطرت الى الاعتراف بقوة الذكور ، وكان هذا بداية عهد جديد تطورت خلاله نحو حالة الانوثة والسلبية وقبول صلة التبعية .

وهكذا نرى بان الحالة البيولوجية للمرأة تشكل بالنسبة اليها حاجزا يحول دون شعورها بشخصيتها المستقلة . ان الضعف العضلي وعدم التوازن الدموي لا يحول بينها وبين ممارسة اية مهنة . فبين الذكور انفسهم يوجد عدد مختلف من الطبائع والامكانيات، والاضطراب الذي يصيب الفتاة خلال يومين من كل شهر حتى ولو كان مؤلما لا يمكن ان يعد عائقا لها ، والواقع هو ان عددا كبيرا من النساء توقفن بين حالتهن كنساء وبين عملهن في الحياة . فنرى المرأة تمارس مختلف المهن الصعبة وتسافر وترهق نفسها كالرجال ، ومع ذلك فان ضعفها الجسماني لا يسمح لها بمزاولة اصناف العنف، فلو كان بامكانها ان تثبت شخصيتها وتتصرف كما تريد في المجتمع الذي تعيش فيه فتمارس السباحة وتتسلق الجبال وتقود الطائرات وتناضل ضد العناصر الطبيعية وتتعرض للاخطار والمغامرات ، اذا استطاعت ان تفعل ذلك فانها لن تشعر بهذا الخجل او بهذا الضعف الذي تكلمت عنه . ان الحالة الاجتماعية العامة للفتاة

هي التي لا تترك لها اي مجال لابراز شخصيتها واثبات وجودها بل تؤكد على العكس مركب النقص الذي بدأت تشعر به منذ طفولتها .

بل ان هذا المركب يجثم على حياتها من ناحية اخرى فيعيق تطورها الروحي والفكري . وقد لوحظ ان الفتاة تبدأ ، اعتبارا من بلوغها ، في التأخر عن الرجال في الميادين الفكرية والفنية . هنالك عدة اسباب لذلك واهمها ان المراهقة لا تصادف من حولها التشجيع الذي يحظى به اخوتها بل على العكس من ذلك يشجعها الاهل والاصدقاء على ان تظهر بمظهر (المرأة) ، ويتحتم عليها نتيجة لذلك ان تقوم بالاضافة لعملها المهني بالواجبات التي تفرضها عليها انوثتها فتؤدي الاعمال المنزلية والواجبات الاجتماعية التي لا تتردد الام في فرضها على الطالبة والعاملة ، الامر الذي يؤدي الى اجهادها جسمانيا ومعنويا . اننا نطلب من الفتاة ان تبقى في البيت وان تتصرف بشكل لائق فلا نشجعها على ان تختار بنفسها طرق لهوها ولعبها ، ومن النادر ان نرى نساء ينظمن لوحدهن نزهة طويلة او سفرة على الاقدام او على الدراجة او يمارسن لعبة بريئة كالبليارد او الكرة الخ... واذا سارت المرأة في الطريق فالجميع ينظرون اليها ويراقبونها واذا ما خطر للطالبات التنزه مجتمعات في الشوارع كما يفعل الطلاب فان هذا يثير دهشة المارة اذا رأوا هذه الجماعات تتبختر في الطريق وتضحك او تأكل تفاحة او تتكلم بصوت عال ، كل هذا يعد اثارة . وقد يتعرضن للسباب او الى شتى انواع الاهانات البذيئة اذا ما سولت لهن انفسهن الاستمرار في هذا اللهو البريء . ويروى ان بعض الفتيات اللواتي لم تكن اعمارهن تتجاوز الرابعة عشر كن يؤكدن ان الصبيان اسعد حظا منهن ، وهذا الاعتقاد يشجع على الكسل والخمول.

ولقد روي ان فتاة اعتادت ان تحمل على احد الرجال بسبب جبنه وحين لفت نظرها الى انها جبانة اجابت : «اوه ان المرأة شيء آخر» •

ان السبب العميق لهذا الشعور بالانهزامية يكمن في ان المراهقة لا تعتقد انها مسؤولة عن مستقبلها ، فلا تحمل نفسها اكثر من طاقتها ما دام مصيرها معلقا بمصير شخص آخر ، انها لا تربط مصيرها بمصير الرجل لانها تشعر بضعف تجاهه ، بل تقبل على العكس بفكرة ضعفها تجاهه لان مصيرها مرتبط بمصيره •

يختلف رد فعل الفتاة المراهقة على وضعها الجديد ، من فتاة لاخرى، (فالمرأة الصغيرة) التي تعد نفسها لكي تكون اما ، تستسلم بسهولة تامة الى نتائج التحول الفجائي الذي طرأ عليها ومع ذلك فقد تكتسب هذه ، من ظروف حياتها ، ميلا الى السلطة يدفعها الى الثورة ضد سيطرة الذكور فتراها مستعدة لتأسيس اسرة تخضع للسيطرة الامومية لا لكي تصبح وسيلة للمتعة الجسدية ، والقيام باعباء المنزل • وهذه الحالة تصادفها لدى الفتيات البكر اللواتي تحملن اعباء ومسؤوليات هامة وهن صغيرات وحين تكتشف (الصبي الفاشل) في نفسها شخصية المرأة ، تحس في بعض الحالات بخيبة امل شديدة يمكن ان تقودها مباشرة الى مزاولة التساحق •

مقابل هذا الشعور بالنقص تكتشف المراهقة مدى سلطان وضعها السلبي الذي تعيش فيه ، فتمتزج بالخجل الذي يوحيه اليها جسدها ، عاطفة الزهو والاعجاب بنفسها • هذه اليد التي اثارت انفعالها ، وهذه النظرات التي اضطربت لها نفسها انما هي نداء ورجاء ، فيتراءى لها

جسدها وكأنه يتمتع بفضائل سحرية ، انه كنز ، انه سلاح ، وهي فخورة به • واذا بها تبدأ بالتبرج والتزين فتصفف شعرها ، وتدرس ابتساماتها من خلال المرآة ، ثم تولع بجسمها وكأنه جسم انسان آخر فتداعبه وتقبل اجزاءه وتمعن النظر في صدرها وساقيها ، ونحن نراها تنشد العزلة كي تنعم في التلذذ بمفاتن جسمها ، وتعبر عن ولعها بنفسها • وهي تحاول بواسطة بعض الحركات المعقدة تمجيد جسمها من خلال الاطناب والمديح اللذين تلقاهما من الذكور ، ولقد اصبح من نافلة القول الاشارة الى ان الفتاة تريد ان تكون جميلة كي تحظى باعجاب الرجال وانها تحاول ان تحظى بالاعجاب لتتأكد من جمالها • وفي عزلة غرفتها او في المنتديات حيث تسعى للفت الانظار اليها لا تفصل الفتاة رغبتها في الرجل عن حبها لذاتها • ولقد روي ان فتاة كانت مولعة بنفسها منذ الخامسة من عمرها ، فكانت تعجب بيديها ووجهها ورشاقتها ، وكانت تقول : «انني بطلة نفسي ٠٠٠» وكانت تطمح في ان تصبح مغنية لكي ينظر اليها الجمهور باعجاب • وقد وقعت في الحب منذ الثانية عشرة من عمرها فحلمت مثلا بأن الدوق (هـ) الذي تحبه ، دون ان يكون قد تكلم معها مرة واحدة ، يركع تحت قدميها : «سيبهرك جمالي وستحبني ٠٠٠ ولا تليق الا بالمرأة التي آمل ان اكونها» •

ولا يتجسد تقديس الذات بعبادة الفتاة لجسمها ، وانما تتمنى ان تمتلك وتشعر بنفسها من كافة الوجوه • وهذا هو هدف اليوميات الخاصة التي تفرغ فيها احاسيس روحها العميقة السرية • وتتكلم الفتاة مع دفتر مذكراتها كما كانت تتكلم في الماضي مع دميتها ، فهو الصديق وكاتم السر ، تخاطبه كما لو كانت توجه الكلام الى شخص حقيقي •

واننا لنلمح من بين السطور بعض الحقائق الخفية المجهولة عن حياة الفتاة الخاصة ، وكثيرا ما تكتب الفتاة على غلاف دفتر يومياتها العبارات التالية : «يقرأ بعد موتي» او «يحرق بعد موتي» • ويبدأ ميل الفتاة الى اخفاء وكتمان امور حياتها الخاصة منذ السنوات القليلة التي تسبق سن البلوغ ويتعاظم هذا الميل شيئا فشيئا حتى تصل الفتاة الى درجة الانعزال التام عن كل ما حولها • فترفض ان تبوح لاحد باسرارها ، وتعتزل العالم لتتخيل نفسها راقصة شهيرة مثل (ناتاشا) بطلة تولستوي او قديسة مثل (ماري لينيرو) او تكتفي باعتبار نفسها روعة من روائع الدهر • وهنالك على الدوام اختلاف كبير بين هذه البطلة والصورة الحقيقية التي يعرفها بها اهلها واصدقاؤها وهذا ما يدفعها الى الاعتقاد بانها غير مفهومة فتزيد من عزلتها ، وتتخيل نفسها مختلفة عن الآخرين ، واعلى منزلة منهم وان المستقبل كفيل بان يعوضها عن ضعفها الوقتي •

الا ان هذه العبادة الانعزالية التي تكنها الفتاة لنفسها ، لا تفي بحاجاتها • ولا بد لها كي تشبع رغباتها من ان تعيش في نفس انسان آخر ، فتنشد العون لدى رفيقات صباها ، لان صديقة القلب تساعدها على الهروب من جو الامومة التي تعيش فيه لتكتشف العالم الخارجي ، وخاصة عالم الجنس • وتتعرى الفتيات امام بعضهن البعض كما ولدتهن امهاتهن ويقارن بين محاسنهن وخاصة صدورهن ولعلنا لا نزال نذكر مشهد قصة (فتيات بالبزة السكرية) الذي يكشف لنا عن العاب الفتيات الغريبة حيث تتبادلن المداعبات الجنسية ، وكما اوضحت كوليت في كتابها (كلودين في المدرسة) ••• فان هنالك ميولا سحاقية لدى غالبية الفتيات ، وهذه الاتجاهات لا تتميز الا بعض الشيء من مظاهر حب

النفس النرسيسية فهي تجد لدى الطرف الآخر نعومة جسمها نفسها ، وتقاطيع جسمها التي يرغب فيها الرجال • وبالمقابل تعبر الفتاة بواسطة عبادتها لنفسها عن عبادة وتقديس الانوثة بصورة عامة • ولا شك ان هذا هو السبب في ازدهار عادة (الصداقات الخاصة) بين الفتيات في المعاهد والمدارس والمعامل وتتصف بعض هذه الصداقات بالروحية الخالصة بينما يكون البعض الآخر منها جسديا بحتا • ويقتصر الامر في الحالة الاولى على تبادل الاسرار بين الصديقتين وتطلع الفتاة صديقتها على دفتر مذكراتها كدليل على منزلتها لديها • وكثيرا ما تلجأ الفتاة الى تقديم دليل حسي عن حبها لصديقتها ، فنحن نرى مثلا في قصة تولستوي ان ناتاشا تحرق ذراعها بواسطة مسطرة محمرة كالجمر لتثبت حبها لصونيا • وتطلق الفتاة بصورة خاصة على صديقتها شتى النعوت والصفات الرقيقة المثيرة كما تتبادل معها رسائل تطفح بالعواطف الفياضة. وقد اورد (مندهوس) في كتابه (روح المراهقة) عددا من هذه الرسائل : «عزيزتي سوزان : كم انت جميلة يا صديقتي ، كم انتْ جميلة ! وقد كنت كالخطية الالهية السحرية تشبهين ازهار الوديان • ان منزلتك عندي تفوق منزلة الفتاة العادية ، لانك كنت رمزا لعدد من الاشياء الجميلة الرفيعة ••• وهذا هو السبب يا سوزان البيضاء في اني احبك حبا صافيا مجردا يتضمن نوعا من العاطفة الدينية •»

وتعترف فتاة اخرى في يومياتها فتحدثنا عن شعورها بانفعالات اقل رقة وتجردا : «كنت هنالك تلتف حول خصري هذه اليد البيضاء الصغيرة بينما كانت يدي مسترخية على كتفها المدور وذراعي فوق ذراعها العاري الدافىء ••• ملتصقة بنعومة ثديها وامامي فمها المتفتح

عن اسنانها الجميلة ... كنت ارتعش واحس بأن وجهي يلتهب ..»

وقد تبحث الفتاة عن مصدر آخر من مصادر اشباع عواطفها في طور المراهقة ، فيقع اختيارها في كثير من الاحيان على احدى معلماتها التي تكبرها سنا ، والتي لها قسط من التجربة في الحياة ، وتصلح لكي تعوضها عن الرجل الذي تعجب به ولكنها تخافه وتخشاه . وتفضل الفتاة ان تكون صديقتها الكبيرة عزباء ، لا علاقة لها بالرجال ، لانها تحرص الا يكون موضوع حبها وتقديسها خاضعا لزوج او عشيق . وتدور غالبا حوادث هذا الحب الغريب في الخفاء ، او على الاقل بشكل عذري ، لكن الانتقال الى ممارسة العلاقات الجنسية العملية ، هو اسهل في هذه الحالة مما لو كانت العلاقة بين فتاة ورجل . ذلك ان جسم المرأة لا يبعث الوجل في قلب الفتاة الصغيرة لانها قد اعتادت عليه منذ صغرها بواسطة احتكاكها مع امها واخواتها ، كما ان الاضطراب الجنسي الذي تثيره المرأة لدى الفتاة الصغيرة لا يتميز بصورة عامة بالعنف ولا تشترط المداعبات التساحقية عمليتي ازالة (البكارة) والاختراق كما هي الحالة في علاقات الرجل بالمرأة وهكذا فان الفتاة الصغيرة تشبع عطشها للجنس دون ان تصاب بأية تحولات جديدة مزعجة او تشعر بأي تنازل من طرفها، وهذا ما تعبر عنه هذه الابيات الشعرية (لرونيه فيفيان) حيث تصف فيها علاقات (النساء اللواتي حلت عليهن اللعنة) مع عشيقاتهن :

اجسامنا هي لاجسامكن مرآة اخوية

قبلاتنا الهلالية تتصف بالنعومة الشاحبة

اصابعنا لا تؤذي مطلقا زغب الوجنتين

وفي وسعنا حين يحل الزنار

ان نكون في نفس الوقت عشيقات واخوات

والواقع هو ان الفتاة المراهقة ، توجه اول حب لها نحو المرأة ، لانها تخشى العنف والاغتصاب ولا بد بالطبع ان تسفر كل علاقة بشرية عن وقوع الخلافات وكل حب عن حدوث بعض مظاهر العنف . وقد تتطور العلاقة بين الفتاة والمرأة فتصبح حبا ملتهبا ولكن الفتاة بصورة عامة لا تنظر الى علاقتها هذه كمرحلة انتقالية تتلقى خلالها مبادىء الحب الجنسي وتلعب فيها ادوار الغيرة والغضب ، والكبرياء والفرح ، وكأنها تقلد بذلك ما تحلم بحدوثه في المستقبل خلال علاقتها مع الرجل الذي لم تسنح لها الفرصة في مخالطته ، والتي لم تزل تنتظر مجيئه .

يسبب الرجل لب الفتاة اعجابا ، لكنه في الوقت ذاته يبعث فيها شعور الخوف والتوجس . ولكي تستطيع ان توفق بين هذه العواطف المتنافرة ، تلجأ الى التفريق بين شخصية الذكر الذي يخيفها وبين الصورة الوهمية المشعة التي تقدسها بورع وخشوع . ولذلك فان الفتاة تتصرف في هذه المرحلة من حياتها بكل خشونة وفظاظة مع رفاقها الذكور ، وتعبد من بعيد عددا من الرجال الذين لا يمكن ان تقوم بينها وبينهم علاقة جنسية عملية . كممثل السينما ، او بطل ميت او حي وفي بعض الاحيان يقع اختيارها على رجل يتمتع بمنزلة فكرية او اجتماعية دون ان يوحي مظهر جسمه في نفسها اي ميل جنسي ، كاستاذ مسن مضحك ، او رجل دميم الخلقة ، متواضع المركز الاجتماعي الخ ... فتحبه بشكل تشبع فيه غرائزها النرجسية دون ان تضطر الى انشاء

علاقات جنسية معه • وقد اورد (هـ دوتش) قصة فتاة جميلة مثيرة لاعجاب الفتيان ، يمكنها بكل سهولة ان تقيم علاقات عاطفية مع الشبان المحيطين بها ، لكنها مع ذلك فضلت منذ الثالثة عشرة من عمرها ان تحب فتى عاديا عمره /١٧/ عاما لم يوجه اليها بحياته اية كلمة • فحملت الفتاة على صورته وسجلت عليها بنفسها الاهداء ، وظلت خلال ثلاث سنوات تقص في مذكراتها تجاربها الخيالية معه : كانا يتبادلان القبل ، وكثيرا ما تحدث بينهما خلافات خيالية ، فتنهمر بنتيجتها الدموع من عيني الفتاة الى درجة الاحمرار ثم يتصالحان ، ويهديان الزهور لبعضهما الخ••• وحين يغير حبيبها عنوانه تكتب اليه رسائل تحتفظ في غرفتها ثم تجيب عليها بنفسها •• ولا شك ان هذه القصة تعبر بوضوح عن رغبة الفتاة في تحاشي التجارب الجنسية الحقيقية الواقعية التي كانت تخيفها وترهبها •

تعتز الفتاة بلفت اهتمام الذكور واثارة اعجابهم وقد تثور ثائرتها اذا انجذبت نحوهم واعجبت بهم • لقد تعلمت الحياء والخجل في سن البلوغ وسيظل الحياء خلال حياتها ممزوجا بحب اثارة الاعجاب والزهو بنفسها ، فنظرات الشباب تشبع رغبتها وتجرح شعورها بنفس الوقت • ولا تود ان تقع العين على جسمها الا بالقدر الذي تود اظهاره ، ومن هنا تنشأ هذه التناقضات في تصرفات الفتاة التي تحب الرجال ، فهي تبالغ في فتحة ثوبها العليا وتتعمد ابراز ساقيها لكنها لا تلبث ان تحمر خجلا وتثور غضبا حين تقع عليها عيون الرجال • وانها لتلهو وتتفنن في اثارة رغبة الرجل لكنها لا تلبث ان تتراجع باشمئزاز حين تشعر بذلك ، ان رغبة الذكر تجاهها هي اهانة واطناب لها في نفس الوقت ، وهذا هو

معنى الحياء الاصلي الذي يتداخل بشكل محير مع مختلف وسائل التبرج وشتى وسائط التفنن في اثارة الاعجاب .

تستطيع الفتاة ان تقوم بحركات وتصرفات مثيرة مدهشة حين لا تشعر بأن مبادراتها تكشف عن سلبيتها وضعفها ولكن حين تشعر بذلك تراها تخاف وتنكمش على نفسها . انها تبدأ في التخلي عن ارادتها لكنها لا تلبث ان تتصلب وتقتل الرغبات وقد تشعر احيانا بالنشوة الجنسية من خلال جسمها الذي لم يبلغ بعد مرحلة التوازن وكأنها لذة رقيقة مسرة ، واحيانا اخرى كأنها شيء مزعج مكرب . وقد تثير القبلة انفعالها في البدء ثم لا تلبث ان تفضحكها فجأة ، وانها لترضى منح الرجل قبلة لكنها لا تتردد في ان تمسح فمها باشمئزاز بعد ذلك . وكثيرا ما تبدو مبتسمة رقيقة عذبة ثم تتحول فجأة فتصبح متهكمة عدائية وهي تبذل في كل مناسبة الوعود بدون حساب ثم تنسى الوفاء بها بكل بساطة . لم تعد الفتاة تقبل في هذا الطور من حياتها ان تكون طفلة ، لكنها ترفض بنفس الوقت ان تصبح راشدة ناضجة فهي تنقم تارة على تصرفاتها الصبيانية وتثور تارة اخرى لاستسلامها كامرأة : انها في وضع يضطرها الى اتخاذ موقف الرفض المستمر .

هذه هي الميزة الرئيسية للفتاة في هذه المرحلة من حياتها . وهي تعطينا تفسيرا كاملا لتصرفاتها وسلوكها في المجتمع . انها لا تقبل المصير الذي يعده لها المجتمع والطبيعة ، ولكنها لا ترفضه مع ذلك بصورة ايجابية لانها مزعزعة الثقة في قرارة نفسها بشكل لا تجرأ على الدخول في صراع مع العالم الخارجي فتكتفي بالهروب من الواقع او الاحتجاج عليه ومعارضته بصورة رمزية . ان كل رغبة تحس بها ، تزدوج بشعور

طافح بالقلق والتردد • فهي تتلهف على الاندفاع في حياتها الجديدة لكنها تخشى في المقابل ان تقطع صلاتها مع ماضيها ، وهي تتمنى ان تحصل على فارس احلامها لكنها تخاف ان تصبح فريسته • ووراء كل شعور بالخوف تكمن الرغبة في التهالك عليه ، فالاغتصاب يثير هلعها الشديد لكنها تحن الى الاستسلام •

وتشكل الرغبة في الهزء والسخرية مظهرا من مظاهر معارضة الفتاة المراهقة لحالتها وكثيرا ما نرى فتيات المدارس ينفجرن مقهقهات ضاحكات حين يسمعن القصص العاطفية او حين يتحدثن عن مغازلات الرجال لهن ، او حين يلمحن عاشقين في حالة العناق • ولقد اتيحت لي الفرصة في التعرف الى بعض التلميذات اللواتي يقصدن عن عمد حديقة اللوكسمبورغ ويتجولن في ممر العشاق للضحك لا اقل ولا اكثر ، كما ان البعض الآخر يذهبن الى الحمامات التركية لتتاح لهن فرصة الضحك والتهكم على السيدات ذوات البطون الضخمة الثقيلة • ولا شك ان هذا الميل الى التشهير باجسام النساء والتهكم على الرجال والضحك والهزء من الحب ، ما هي الا وسيلة من وسائل انكار الحياة الجنسية والطعن بها كما تهدف من وراء هذا الضحك والمرح الى التغلب على ضيق المرأة واندفاع عواطفها ، فهي تلعب بالصورة وبالكلمات لتبدد عن ذهنها الاغواء وسحره الخطير •

ويلاحظ غالبا لدى الفتاة في هذا الطور من حياتها بعض الاهواء الغذائية الغريبة : فهي تأكل رصاص الاقلام ورؤوس القطع الخشبية وبعض الحيوانات البحرية الحية وتبتلع عشرات حبات الاسبرين وقد تبتلع الذباب والعنكبوت • ولقد تعرفت الى احدى الفتيات التي كانت

منهمكة في تحضير مزيج كريه من القهوة والنيد الابيض ثم تقسر نفسها على ابتلاعه وفي احيان اخرى كانت تلجأ الى تناول قطع السكر بعد غطسها في الخل ... وتلجأ الفتاة في بعض الحالات الى اصابة فخذها بجروح بواسطة موسى الحلاقة والى حرق جسمها بواسطة لفافة تبغ مشتعلة الخ...

تعد هذه الحالات السادية استباقا للتجربة الجنسية وتمردا عليها فهي تفكر بأن تحمل هذا العذاب يضاعف مقاومة الجسم ضد كل طاريء في المستقبل بما في ذلك ما يحدث في ليلة الزواج ، انها تعلم بانها معدة لتكون فريسة مسلوبة الارادة ولذلك فهي تطالب بالحرية حتى في حقها في تحمل الالم والشعور بالاشمئزاز . وهي حين تفرض على نفسها آلام الرضوض والحروق والجروح ، تحتج بذلك ضد عملية الاحتراق التي ستزيل بكارتها . وقد تبلغ ثورة الفتاة ضد وضعها السلبي حدا يدفعها الى ارتكاب اعمال خطيرة جدا . فعدد كبير من الفتيات العذارى مصابات بمرض السرقة ، ويمثل هذا المرض ميل الفتاة المراهقة الى مخالفة القوانين والاعتداء على كل ما يقدسه الناس . انها حين تأخذ اشياء لا حق لها بها تؤكد بكل وقاحة استقلالها وتفرض شخصيتها تجاه الاشياء المسروقة والمجتمع الذي يحرم السرقة كما انها ترفض بعملها هذا الخضوع للنظام السائد .

يحدث كذلك كثيرا ان تهرب الفتاة بعيدا عن منزل ابويها فتغيب ثلاثة ايام او اكثر ثم تعود من تلقاء نفسها وهذا العمل لا يعبر عن رغبتها في قطع العلاقات نهائيا مع اهلها وانما هو تمثيلية يحلو لها ان تمثلها لتثبت شخصيتها المستقلة تجاه ذويها . وقد يصاحب هذا الهروب

مضاعفات خطيرة فتتخيل الفتاة نفسها غانية وتلعب هذا الدور فتتبرج وتتزين بشكل يلفت النظر وتطل من النافذة موجهة نظرات الاغراء الى المارة ، كما تترك في بعض الحالات البيت وتقوم بتمثيل الدور عمليا . ان هذا السلوك يعبر في الغالب عن اشمئزاز الفتاة من الاحساس الجنسي وشعورها بالاثم بسبب ما تحس به فتقول لنفسها : ما دمت افكر بهذه الامور واحس بهذه الرغبات فان الغانية لا تقل منزلة عني لاني مثلها غانية .

وفي بعض الاحيان تشعر برغبة شديدة في الانعتاق من هذه الوضعية التي تعيش فيها ، فتسعى الى التحرر قائلة لنفسها : لننته من هذه الامور، ولنذهب الى اقصى حد ممكن ، انها تريد ان تثبت لنفسها ان الحياة الجنسية ليس لها اية اهمية لديها ، فتعرض نفسها لاول رجل تصادفه في طريقها .

الا ان الفتاة لا تقتصر على المعارضة السلبية لحالتها المفروضة عليها فرضا بل تسعى في نفس الوقت الى تعويض ما ينقصها في الحياة ، وسد الفراغ الحاصل في حياتها الجديدة ، فتلجأ الى التمثيل والخداع والتلاعب ، ولعل هذا هو السبب في اتهامها بالمراءاة والكذب واختلاق الحكايات والقصص . والواقع ان المجتمع هو الذي يفرض عليها التكتم والتمثيل والكذب .

حين تبلغ المرأة السادسة عشرة من عمرها تكون قد اجتازت وعانت محنا عديدة مؤلمة : البلوغ ــ الدورة الشهرية ــ تنبه الحس الجنسي . اولى الاضطرابات الجنسية ــ الحمى الاولى ــ المخاوف ــ الاشمئزاز ــ

التجارب البشعة وكل ذلك اضطرت الى كتمانه في قلبها فتعلمت ان تحتفظ باسرارها لنفسها بكل عناية • ولا شك ان مجرد اضطرارها الى اخفاء مناديلها الصحية والتكتم حول مواعيد دورتها الشهرية يدفعها الى الكذب والتبذل • يقص علينا (بورتر) ان فتيات امريكا اللواتي كن يمشين حوالي عام ١٩٠٠ كن يتصنعن المرض فيبتلعن مزيجا من الملح والليمون لايقاف دورتهن الشهرية رغبة منهن في الذهاب الى الحفلات الراقصة • لان الفتاة تخاف من ان يشعر الشبان بحالتها من خلال الهالة الزرقاء المحيطة بعينيها التعبتين ومن الرائحة التي قد تنتشر في بعض الاحيان • انه لمن الصعب في الواقع ان تلعب الفتاة دور المعبودة والجنية والاميرة الحالمة حين تحس بوجود قطعة من القماش الدامية ما بين فخذيها • ان التبرج والتزين وتجاعيد الشعر المزيفة وحوامل التديين المنفوخة بشكل مبالغ فيه هي عبارة عن اكاذيب ، حتى ان الوجه نفسه يظهر وكأنه قناع ، فترى تعابير الفتاة تتغير من موقف الى آخر بشكل يدعو حقا الى الاعجاب فتتحول نظراتها فجأة من التحديق والتركيز الى الاسترخاء والظهور بمظهر الفتاة المنتظرة لتلقي احلامها المستسلمة لمصيرها المحتوم وابتسامة عذبة تدور على شفتيها : انها تنتظر وجميع حركاتها وسكناتها وابتساماتها تعبر عن الدعوة والنداء ، انها لم تعد سوى زهرة معروضة او ثمرة حان قطافها •

والرجل لا ينفك يشجعها على ضروب الاغواء والاغراء لانه يحب ان يكون فريسة لها ولو ابدى بعد ذلك استياءه واتهم المرأة باصطناع وتمثيل هذه الطرق الملتوية • ان المرأة حين ترى بأن جميع الطرق مسدودة في وجهها وانها لا تستطيع ان تفعل وانما يجب عليها ان تكون ،

تشعر وكأن لعنة تجثم على صدرها . انها تعلم بعدم وجود اية مسؤولية على عاتقها وان لا اهمية لها في عالم الرجال الذي تعيش فيه : وما دامت لا تستطيع ان تقوم باي عمل جدي فانها تضطر الى حبك القصص والاقاويل فتنهك نفسها كالطفل الصغير بمشاهد الغضب والثورة والدموع وتتصنع المرض ، وتظهر الاضطرابات الهسترية لتلفت الانظار اليها وتثبت انها شخص له قيمته في الحياة . ثم هي تتدخل في مصير الآخرين لان كل سلاح جيد بالنسبة اليها ، فتفشي الاسرار وتخترع الاقاصيص وتخون وتغتاب ، انها بحاجة لخلق جو المأساة فيما حولها لتشعر بانها تعيش ما دامت لا تستطيع ان تستمد العون من حياتها الداخلية . وقد تتطرف فتتمسك بكل شيء بعناد واصرار دون اية مهادنة او مساومة ، فتولع بما هو نهائي ومطلق لانها ما دامت لا تستطيع ان تتصرف في مستقبلها فهي تنشد التوصل الى ما هو مطلق وخالد . «لن اتنازل مطلقا، واريد ان احصل دائما على كل شيء» هذا ما كتبته (ماري ليفرو) . ان هذه الامبريالية الصبيانية لا يمكن ان تصادف سوى لدى الشخص الذي يحلم بمصيره لان الحلم يبدد الزمن ويحطم العقبات وهو بحاجة الى التضخيم والمبالغة لتعويض واقعيته المنعدمة . ان الفتاة تود لو تحصل على كل شيء بسبب عدم وجود اي شيء يرتبط بها ويتبعها ، ومن هذه الطبيعة تستمد الفتاة تجاه الراشدين والرجال بصورة خاصة صفة (الولد الشيطان) . انها لا تقبل اي تحديد يُفرضه عليها شخص آخر ضد دخولها الى عالم الواقع بل هي تتحداه وتدفعه الى تجاوز تلك الحدود ، وهكذا فان هيلت تنتظر من سولنس ان يعطيها مملكة (من كتاب سولنس البناء لابسن) . ان عزو هذه المملكة لا يقع على عاتقها ولذلك فهي

تريدها مسلكة بدون حدود وتطلب منه بأن يشيد لها اكبر واعلى قلعة في الوجود وان يصعد الى القمة : انه يتردد في التسلق خوفا من الاعياء اما هي التي ستبقى على سطح الارض تنظر اليه وهو يتسلق فانها ترفض هذا الضعف البشري منه ولا تقبل مطلقا ان تصنع الحقيقة حدودا لاحلام العظمة التي تشعر بها •

يتبين لنا مما تقدم ان جميع المساوىء والعيوب التي تلتصق بالمراهقة ليست سوى تعبير صادق عن وضعها الاجتماعي وانه لوضع مؤلم ان تشعر الفتاة بسلبيتها وتبعيتها في سن الامل والطموح ، في السن التي تتفتح خلالها ارادة الحياة لدى الانسان ليبني لنفسه مكانا على سطح الارض • ففي هذه الفترة الحافلة من العمر تتعلم بأن الانتصار محرم عليها وانه يجب عليها ان تتخلى عن شخصيتها المستقلة ، وان مستقبلها يتوقف على ارادة ومشيئة الرجال •

الا انه يحدث في بعض الاحيان ان هذه الفتاة التي تهرب من خلال الطرق الملتوية من واقعها المؤلم ، تنسجم مع واقعها في النهاية وتظهر صفات خاصة تجعلها تبرز الى المجتمع بوجه وشخصية جديدين فحياتها المتكتمة القلقة المليئة بالمتناقضات والتعقيدات تغذي تفكيرها وتوسع وتطور حياتها الداخلية تطورا اكثر عمقا من حياة اخوتها وتصبح اكثر تحسسا لحركات قلبها وتتفهم الامور النفسية اكثر من الذكور المتجهين نحو تحقيق الاهداف الخارجية وقد تستطيع ان تعطي لهذه الثورات التي تصارع بها العالم شكلا عميقا مهينا فهي تتحاشى فخاخ الحب والتقيد بالتقاليد وحين تشعر يوما بعد يوم بغموض شروط حياتها تدفعها شجاعتها الى اعادة النظر في التفاؤل السائد حولها والقيم الجامدة

والاخلاق المليئة بالنفاق والرياء .

تتصرف الفتاة حين لا يقدر لها ان تصادف الحب ، الى التمتع بمظاهر الفن والشعر وبسبب كونها متأثرة لا مؤثرة تقضي الفتاة اوقاتها في التأمل والتحسس والتسجيل ، وتجد الالوان والابتسامات لديها اصداء عميقة ، ذلك ان مستقبلها ومصيرها منقوشان خارج حياتها الداخلية ، في المدن المشادة وعلى وجوه الرجال المختلفين . انها تتذوق بشكل اشد عمقا وعاطفية من الرجل لانها تقف موقف المتفرج من العالم المحيط بها ، فعوضا عن ان تهتم بتأثيرها على الاشياء تنصرف الى سبر غورها واكتشاف معانيها ، ومن النادر ان تشعر في قرارة نفسها بنفحة خلاقة اذ تنقصها غالبا الوسائل التي تسمح لها بالتعبير عن نفسها لكنها تظهر في محادثاتها ورسائلها ومحاولاتها الادبية ، حساسية نادرة لا مثيل لها . تتهافت الفتاة الشابة بحماس نحو الاشياء لانها لم تحرم بعد من جميع عناصر تفوقها ، ومما يزيد في اندفاعها ان القيود الاجتماعية لا تسمح لها في ان تنجز او تبتكر شيئا دائما يشهد بقوة ابداعها وهذا ما يدفعها الى الشعور بحب غريب تجاه الطبيعة فتقدسها اكثر من الفتى المراهق .

ان الطبيعة المتمردة المجردة عن الانسانية تلخص بكل وضوح كل ما هو كائن ، والمراهقة التي لم تقتطع بعد اي جزء من العالم المحيط بها ، تشعر بفضل هذا الفراغ في حياتها بأن العالم كله هو مملكتها ، وهي حين تمتلكه تشعر بالكبرياء وكأنها تمتلك نفسها . وقد وصفت لنا كوليت في عدد من كتبها هذه الاتجاهات لدى الفتاة المراهقة :

«كنت منذ ذلك الوقت احب الفجر الذي منحتني امي اياه ، حبا

جنونيا فقد استطعت ان احصل منها على موافقتها في ان استيقظ في الساعة الثالثة والنصف من كل صباح فاذهب وبيدي سلة خالية نحو الاراضي المزروعة القريبة من النهر ، نحو اشجار الفاكهة المتنوعة •

«في الساعة الثالثة والنصف والكون نائم تحت زرقة السماء الصافية ووسط الجو الرطب البارد ، كنت انحدر في الطريق الرملية وطبقات الضباب تغمر ساقي ثم لا تلبث ان تصعد شيئا فشيئا نحو صدري الممتلىء لكي تبلغ بعد ذلك شفتي واذني ثم تلمس انفي وتغمر جميع اجزاء جسمي •••

على هذه الطريق وفي هذه الساعة كنت اشعر واقدر قيمتي وثمني كانسان بشري وكنت اعيش لحظة من لحظات عمري السعيدة فاشعر بالفرح يغمرني من كل جانب لاني كنت حرة طليقة كالطبيعة نفسها» •

تطفح مختلف النصوص الادبية بوصف وتحليل شعور الفتاة المراهقة تجاه الحقول والغابات والواقع هو ان ارادة الام والقوانين والعادات والتقاليد تسود في المنزل الابوي والفتاة لا تنشد سوى التخلص من هذا الجو الذي تشعر وكأنه يضغط على انفاسها ويحرمها من حريتها فهي تريد ان تصبح شخصا يتمتع بالسعادة ، لكن قيود المجتمع لا تبيح لها ان تدخل عالم الراشدين الا بتحولها الى امرأة تابعة لغيرها • ولذلك فهي تدفع بتنازلها ثمن حريتها • لكنها تشعر في عالم النباتات والحيوانات بأنها انسان بشري كامل متحرر من قيود الاسرة ومن روابط التبعية نحو الذكور ، يتمتع بالسيادة والحرية • انها لتجد في مجاهل الغابات صورة حية لعزلة نفسها وفي الافق الواسع الممتد حول السهول شكلا محسوسا لسموها وتفوقها ، انها هي هي نفسها في هذه

الارض اللامتناهية هذه القمم المنتصبة نحو السماء وهذه الطرق الذاهبة الى المستقبل المجهول • ومن قمة الهضبة تستطيع الفتاة ان تشرف على ثروات الارض المتناثرة تحت قدميها المعروضة لها من خلال نبض الحياة المنبعث عن المياه الجارية ومن خلال تموج الانوار المرتعشة ... انها لتشعر بالسعادة تغمرها والدموع تسيل من مآقيها وبلذة كانت لا تزال تجهلها حتى الآن • فالروائح والالوان تتكلم لغة غامضة تتبين الفتاة مع ذلك منها كلمة واضحة وضوح الشمس : «الحياة» •

لم يعد الجسم في قلب هذه الطبيعة الرائعة عيبا مخجلا ، بل انها لتتبين في هذه الرغبات الجامحة التي كانت تكبتها تحت انظار امها ، النسغ الذي يصعد في جذوع الاشجار ، كلا انها لم تعد ملعونة لانها تشعر بقرابتها لاوراق الاشجار وازهارها انها بنفس الوقت الروعة والجمال ، والروح والحياة ، وجودها حتمي منتصر ، كحتمية وجود الارض نفسها • ومن خلال حالة العبودية التي تعيش فيها ، من اعماق عزلتها المريعة تستطيع الفتاة ان تلعب دورا هاما في الحياة يفوق بكثير الدور الذي تلعبه اغلبية الذكور • فنراها توحي الشعراء وتصنع البطولات ذلك ان احدى الوسائل التي تنتهجها الفتاة لتعويض منزلتها الضئيلة في المجتمع هي تجاوز آفاقه المحدودة •

يتضح لنا من هذه اللمحة التي اتينا على ذكرها حول ازمة الفتاة في سن البلوغ انها تمر في مراحل عصيبة من حياتها • لكن هذه الحالات العصبية المختلفة وردود الفعل الغربية لا تنطبق على جميع الفتيات بوجه عام فهنالك نساء يبقين اطفالا طيلة حياتهن ، كما قد يستغرق السلوك الذي شرحناه مدة طويلة يصاحب الفتاة مع تقدمها في العمر • ومع ذلك

فهنالك فرق كبير بين الفتاة المراهقة العاطفية التي يبلغ عمرها ١٥ سنة وبين «الفتاة الشابة الكبيرة» فهذه الاخيرة تسجم اكثر من الاولى مع الواقع ولا تتصرف بشكل خيالي غير واقعي ولا تشعر بالانقسام في داخل نفسها • وقد كتبت «ماري باشكرتسيف» حين بلغت ١٨ سنة من عمرها تقول : «كلما تقدمت نحو شيخوخة شبابي زاد عدم اهتمامي وعدم عدم الاكتراث • لم يعد هنالك شيء يخفق له قلبي وقد كان يخفق لكل شيء» •

وكتب (ايرين ريليوت) تقول : «لكي نكون مقبولات من الرجال يجب ان نفكر كما يفكرون والا فان نصيبنا يكون العزلة المؤلمة • واننا الآن بعد ان لاقيت ما لاقيت احب ان اعيش في قلب المجتمع لا على هامشه وان احيا دون ان اضطر الى الانتظار واحلم بالحبيب المنتظر» • وكتبت كذلك فيما بعد : «من كثرة ما لاقيت من آيات الغزل والاعجاب والاطراء الخ••• اصبحت طموحة بشكل مخيف ولم اعد اشعر بالسعادة الرائعة المذهلة التي كنت احس بها في الخامسة عشرة من عمري بل انها اصبحت نوعا من الشمالة الباردة الجامدة أثار بواسطتها من الحياة واصعد في معارجها • اني اغازل والعب حتى الحب ، لكني لا اقع فريسته ••• ومع مرور الزمن اكتسبت ذكاء اكثر فاكثر وتحليت ببرودة الاعصاب وهدوء البال • اني اضيع قلبي ، وفي فترة شهرين فقط تركت طفولتي الى غير رجعة» •

لا بد وان تنتهي الفتاة الى قبول انوثتها وفي اكثر الاحيان تشعر بالسعادة لانها تنعم مجانا ودون مقابل باللذائذ والانتصارات في لهوها وغزلها ولعبها قبل ان تستقر نهائيا في ثنايا مصيرها المحتوم وهذا ما تصفه

(ف ــ ولف) عن احساسات فتاة لعوب متبرجة خلال احدى حفلات السهرة .

«كنت اشعر وكأني المع في الظلام ، وساقاي الملساوان يحتكان بعضهما البعض بنعومة بينما كانت احجار عقدي الباردة تداعب عنقي . اني مستعدة ... وشعري يتمتع بالسحر المنشود ، وشفتاي قانيتان كما يجب . اني مستعدة للانضمام الى هذه الجماعات من الرجال والنساء التي تصعد السلم : مررت امامهم معرضة نفسي لانظارهم كما تعرضوا هم انفسهم لانظاري ... وفي هذا الجو المعطر المتلالىء كنت انفتح كما تتفتح الزهرة من خلال اغصان الاشجار ... وكنت اشعر اني املك امكانيات لا حدود لها في نفسي ، فقد كنت اتبدل في كل لحظة من فتاة لعوب الى اخرى ضاحكة ، ومن وضع الاغراء الى وضع المتأمل الحزين ، منتحية نحو اليمين وعيوني تلمع تحت الانوار ... قلت لهذا الفتى الشاب «ادن مني ...» فدنا ، واتجه نحوي . انها من اروع لحظات حياتي واشدها اثارة . كنت ارتعش واتموج . الا تبدوا رائعين ونحن قاعدان سوية تتسامر ؟ انا بثوبي الجميل من الساتان وهو ببذته الرائعة باللونين الاسود والابيض ؟ ان رفيقاتي يستطعن الآن ان يحدقن وينظرن نحوي ، وللرجال كذلك ان يفعلوا .. لاني استطيع ان ارد للجميع نظراتهم فانا منهم وفيهم لاني دخلت عالمي العجيب من بابه المفتوح الذي لا يزال ينفتح بدون توقف . ولربما تبدلت حياتي تبدلا جذريا في المرة القادمة التي سينفتح فيها ... نعم ان الباب ينفتح على مصراعيه . «اوه .. ادن مني» قلت لهذا الفتى الشاب وانا انحني نحوه كزهرة مذهبة كبيرة . «ادن !» قلت له ، واذا به يتجه نحوي ...»

كلما تقدمت الفتاة في العمر ، زادت وطأة سلطة الام عليها • فاذا كانت تقوم في البيت بالاعباء المنزلية ، فانها تتضايق بسبب قيامها بدور المعاونة لامها وتود لو كان لها بيت خاص واولاد تشرف على تربيتهم • اما اذا كانت تعمل خارج البيت فانها تستاء من معاملة اهلها لها كعضو من اعضاء العائلة العاديين وتود لو عوملت كفرد له شخصيته المستقلة •

وتتطور الفتاة مع مرور الزمن فتصبح اقل رومانتيكية من قبل ، وتنصرف الى التفكير بالزوج اكثر من التفكير بالحب ، ويصبح اقصى ما تتمناه ان تحصل في هذا العالم على وضعية ثابتة فتتزوج وتعيش حياة النساء •

وهذا ما كان يخالج ذهن (بروسارن) في كتاب (سارن) لماري ويب :

«كنت افكر بأني اذا لم اتزوج ، فان مصيري مؤلم بدون اي شك ، فجميع الفتيات يتزوجن • ان الفتاة تمتلك بيتا خاصا لها حين تتزوج ، وقد تحصل على مصباح تنيره في المساء ساعة عودة رجلها من عمله ، اما اذا لم يكن لديها سوى الشمعات ، فهذا سيان ، لانها تستطيع وضعها بقرب النافذة ، وحينئذ يقول الرجل : «ان امرأتي في البيت لان الشمعات مضاءة •» ثم يأتي يوم تلد فيه الزوجة طفلا جميلا ، فترسل الدعوات لحضور حفلة التعميد ، ويهرع الجيران اليها ملتفين حولها كما يلتف النحل حول ملكتهم • كنت اقول لنفسي حين تسوء الامور بالنسبة لي : «لا بأس يا (بروسارن) ! سيأتي يوم تصبحين فيه ملكة ضمن خليتك الخاصة» •

ان الحصول على زوج يصبح بالنسبة لجميع الفتيات من مختلف

النزعات امرا حيويا هاما . وتتحول هذه القضية الى مشروع مستعجل خطير ، وتفقد (صديقة القلب) مكانتها الممتازة ، لان الفتاة ترى في رفيقاتها منافسات لها في نضالها للحصول على الزوج ، الامر الذي يجعلها ضيقة الافق ، تلجأ الى المناورات وتظهر بمظهر الخشونة والانانية . واذا ما تأخر امير احلامها عن الظهور ، تصبح الفتاة غريبة الطباع ، منعزلة عن العالم متعجرفة مليئة بالحسد لقريناتها .

لا شك ان طباع وسلوك الفتاة الشابة تعبر عن وضعيتها الاجتماعية : فاذا تغير هذا الوضع يتغير وجه الفتاة المراهقة واصبح يبدو لنا مختلفا تمام الاختلاف . وقد اصبح في وسع الفتاة في يومنا هذا ان تمسك مستقبلها بين يديها ، عوضا عن تركه للرجل يتصرف به كما يشاء . فاذا اتيح لها ممارسة الرياضة ، او الانصراف الى الدراسة ، او التدرب على مهنة من المهن ، او مزاولة بعض النشاط السياسي والاجتماعي ، فانها تتحرر من التفكير في الرجل ولا تشغل نفسها الا قليلا جدا بالمشاكل العاطفية والجنسية . ومع ذلك فانها تصادف صعوبات تفوق ما يلاقيه الرجل الشاب ، وذلك في محاولتها التي تقوم بها لفرض نفسها وارادتها على المجتمع كفرد مستقل . لقد قلت بان الاسرة والعادات الاجتماعية لا تشجع الفتاة على بذل جهودها في سبيل الوصول الى حريتها ، واضيف الى ذلك بأنه حتى ولو اختارت الاستقلال في حياتها فلا بد ان تترك فيها مكانا للرجل وللحب ، وسينتابها الخوف في الغالب اذا كرست نفسها لعمل من الاعمال ، من ان تفشل في حياتها كامرأة ، وهذا الشعور موجود في قرارة نفسها على الدوام ، يضع الحدود امام تماديها في الحصول على الاستقلال . ان المرأة العاملة تحرص على التوفيق بين عملها وبين حياتها

كامرأة ، وهذا لا يتطلب منها ان تكرس وقتا كبيرا لزينتها وتبرجها وانما يؤدي الى تجزئة مصالحها الحيوية الى شطرين • فالطالب يشغل وقته على هامش برامجه الدراسية بشتى التسليات الفكرية التي يمكن ان تؤدي الى نتائج مدهشة ، لكن احلام الفتاة تتجه اتجاها آخرا فتفكر بزينتها وجمالها وبالرجل وبالحب ولا تكرس سوى الحد الادنى من وقتها لدراستها ومستقبلها • وان السبب في ذلك لا يعود الى ضعف في تكوينها العقلي او الى عدم امكانياتها في تركيز ذهنها ، لكنه ينحصر فقط في كونها مضطرة على الدوام الى تجزئة مصالحها واهدافها ، التي تتوافق بصعوبة بالغة فيما بينها •

كثيرا ما تعتري الناس الدهشة امام السهولة التي تتخلى فيها الفتاة عن الموسيقى والدراسة والمهنة ، اذا وجدت زوجا مناسبا لها : الامر الذي يدل على انها لا تعلق اية اهمية على هذه المجالات الفكرية فلا تشعر بأية خسارة في حالة تخليها عنها •

والى ان تتحقق المساواة الاقتصادية التامة بين الرجل والمرأة ، والى ان يكف المجتمع عن النظر اليها كمتعة او غرض في خدمة الرجال اسياد المجتمع ، الى ان تتحقق هذه الامور فان حلم النجاح السلبي في كنف الرجل سيظل هدفها الاول في الحياة ، وسيحد على الدوام من نجاحها الشخصي في الحياة العملية •

حين تبدأ الفتاة حياتها كراشدة لا تكون قد تعلمت كل ما يجب ان تتعلمه في الحياة ، وانما يلزمها ان تتلقى بشكل تدريجي او فجائي تدريبا على الحياة الجنسية •• هنالك فتيات يرفضن بشدة التدرب على الحياة

الجنسية اذا وقعت لهن حوادث مؤلمة في طفولاتهن او كانت تربيتهن السيئة تهدف الى بث الكراهية في نفوسهن نحو عالم الجنس ، كما يحدث كذلك ان تضطر بعض الفتيات بسبب ظروفهن الاجتماعية الخاصة الى البقاء عذارى طيلة حياتهن .

لكن الفتاة تصادف على الغالب في مرحلة من مراحل عمرها التجربة الجنسية ومع ان الطريقة التي تواجهها بها ترتبط ارتباطا وثيقا بماضيها ، فانها تجد فيها تجربة من نوع جديد ، تعرض لها في ظروف غير متوقعة وتتأثر بها تأثيرا شديدا .

هذه هي المرحلة التي يجب علينا الآن معالجتها .

الفصل الثالث

التدرب الجنسي

•

يبدأ التدرب الجنسي لدى المرأة ، كما هي الحال لدى الرجل ، منذ ايام الطفولة الاولى • لكن التجارب الجنسية للفتاة الشابة ليست امتدادا لنشاطها الجنسي السابق ، وانما تكون في اغلب الاحيان عنيفة وغير متوقعة وتشكل بالنسبة لها حادثة جديدة لا تمت باية صلة للماضي • ومن المعروف ان المشاكل الجنسية تعرض لها جميعها دفعة واحدة خلال فترة التدرب وتتخذ شكلا حادا ومستجلا • فاما ان تنتهي الازمة بسلام فلا تترك اي اثر في حياة المرأة ، او ان تتطور تطورا خطيرا في بعض الحالات فتؤدي بالفتاة الى الانتحار والجنون • ومهما يكن الامر فان مستقبل ومصير الفتاة معلق على الطريقة التي تستقبل بها الحياة الجنسية ، وقد اجمع علماء النفس على الاهمية الكبرى لفترة التدرب الجنسي في حياة المرأة، هذه الفترة التي تترك جذورا عميقة في جميع مراحل حياتها المقبلة.

هنالك اختلاف كبير بين الرجل والمرأة تجاه الحياة والعمل الجنسيين • فالرجل يجد في العملية الجنسية تأكيدا لشخصيته وامتدادا لتفوقه ، لانه يلعب الدور الرئيسي بينما تكتفي المرأة بالقيام بدور الفريسة التي تتلقى المبادرات الجنسية للرجل بكل استسلام وخضوع •

والواقع ان الحياة الجنسية للمرأة هي اكثر تقيدا لانها تعكس وضعيتها الاجتماعية ، وهي تتميز بتعارض عضوين من اعضائها التناسلية : البظر والمهبل • ففي مرحلة الطفولة يكون الاول مركز الاحساس الجنسي النسوي بينما يستمر النظام البظري على حاله بعد فترة البلوغ ، دون ان يلعب اي دور في عملية الجماع الطبيعية او في نظام التوالد ، ويكتسب المهبل الاهمية الاولى بعد سن البلوغ لانه واسطة اختراق جسمها من قبل عضو الرجل ، ولانه وسيلة الخصاب والتوالد ، لكنه لا يتحول الى مركز جنسي حساس الا بتدخل الذكر •

جرت العادة على انه يحق للرجل ان (يأخذ) المرأة في اي وقت شاء ، لكنها لا تستطيع ان تفعل مثله الا اذا كان عضوه في حالة الانتصاب • وما دامت المرأة متعة وغرضا للرجل فان عطالتها لا تغير شيئا مذكورا من دورها الطبيعي وهو السلبية ، لدرجة ان عددا من الرجال لا يأبهون فيما اذا كانت المرأة التي تشاركهم سريرهم ترغب في الجماع او انها تستسلم اليه تلبية لرغبتهم • كما يمكن للمرأة ان تخصب وتنجب الاولاد ولو انها لم تشعر باية لذة • ولا يشكل الحمل بالنسبة لها نهاية الدورة الجنسية ، وانما بدايتها ، وهي تتحقق بتمامها بكل بطء والم في الولادة والرضاع •

وهكذا فان الجو الذي تستيقظ فيه انفعالات المرأة الجنسية يختلف تمام الاختلاف عن الجو الذي يصادف الفتى • وردود فعل المرأة الجنسية شديدة التقيد حين تواجه الرجل لاول مرة • وليس بصحيح ما يقال من ان العذراء لا تعرف الشهوة الجنسية وان الرجل هو الذي يوقظ حساسيتها ، فاغلبية الفتيات يطلبن بحرارة المداعبات قبل ان

تسمهن يداي الرجل ، لكن الامور تبدو كذلك لان انفعال العذراء لا يستجيب لرغبة معينة ، لانها لا تعرف تماما ماذا تريد ، وانها لتشعر حين تواجه الذكر بالرغبة في المداعبة لكنه لا يبدو لها مرغوبا بعضلاته القوية وجلده الخشن ، بل يثير في نفسها الاشمئزاز ، وكثيرا ما يكون رد الفعل قويا ، فتتجه الفتاة نحو المساحقة او تتعلق برجل مخنث تستطيع معاملته معاملة المرأة .

نفهم جيدا من هذه الشروط التي اتينا على ذكرها ، ان اول احتكاك عملي للمرأة مع الحياة الجنسية ليس بالامر السهل ، وقد رأينا انه قد تحدث في كثير من الاحيان خلال ايام الطفولة والصبا ، بعض الحوادث التي تترك في نفس المرأة ميلا شديدا لمقاومة كل ما هو جنسي ، كما تخلق التربية المحافظة والخوف من ارتكاب الذنوب والشعور بالاثم نحو الام، حواجز معينة لا سبيل الى تخطيها . اما العادات فهي تضع البكارة في مستوى عال لدى بعض الاوساط لدرجة تشعر فيها الفتاة بان فقدان بكارتها بدون زواج يعتبر خطيئة كبيرة ومصيبة لا تعادلها مصيبة ، ولا يمكن الليلة الزواج الذي تستسلم خلالها الفتاة الى رجل لا تعرفه في اغلب الاحيان ، ان تعد بحد ذاتها تجربة سهلة . ان التحول الى امرأة يعني قطع الصلات مع الماضي دون اي امل في العودة اليه ، وهو لا يكتفي بوضع الحواجز بين الامس والغد وانما ينتزع الفتاة من عالم الخيال الذي كانت تعيش فيه ، ويلقي بها فجأة وسط العالم الحقيقي . لقد داومت الفتاة خلال فترة الخطوبة على العيش في عالم الاحلام ولو تخللها بعض اللهو والمغازلات البدائية ، وكان خطيبها يتكلم معها بلهجة رومانتيكية .. وها هي فجأة تحت انظار عيون حقيقية ، وفي قبضة يدين حقيقيتين وان

ما يرعبها ويبعث الذعر في نفسها هي واقعية تلك النظرات وتلك القبضات.

ومما يزيد في تبعية المرأة للرجل ، انها لا تستطيع الاستغناء عنه اذا ارادت اكتشاف اسرار جسمها ، فهو الذي يمسك زمام المبادرة في اغلب الاحيان ، فيغازلها ويداعبها بينما تتلقى غزله وعروضه بكل استسلام وسلبية، وسواء كان زوجها او عشيقها فانه هو الذي يقودها نحو المخدع حيث لا يوجد امامها مفر من الاستسلام والخضوع . ولو فرضنا جدلا ان المرأة اقرت ورضخت لسلطة الرجل في تمكينها فلا بد من ان ينتابها الهلع في اللحظة الحاسمة التي يجب عليها ان تتلقى تلك السلطة عمليا وتتحملها ، انها لتخاف في اول الامر من هذه النظرة التي تكاد تبتلعها واذا كان الحياء مكتسبا في اغلب الاحيان فان جذوره مع ذلك عميقة لدى المرأة ، وحين تخجل من عرض جسدها وينتابها الشك في جمالها ولو كانت من ربات الجمال ، الى ان تعرف رأي الرجل الذي يقوم بدور الحكم في هذا الموضوع . ولذلك فان وضعية الذكر تكتسب اهمية بالغة وتنتج عنها تأثيرات عميقة في حياة المرأة ، فاذا ما ابدى الرجل حماسه ورقته تجاهها ، فانه يبعث في قلب المرأة ثقة تامة لا تنساها ولو بلغت الثمانين من العمر ، وعلى العكس من ذلك اذا اساء العشيق او الزوج التصرف فقد يؤدي ذلك الى تولد شعور بالنقص لديها ، وقد ينتهي بها الامر الى الوقوع في براثن امراض عصبية لا حصر لها .

واذا كانت النظرة خطرة فان الايدي تشكل تهديدا اشد خطورة ، لان المرأة لم تكن قبل زواجها بصورة عامة قد تعرفت الى عالم العنف ، ولم تتعود على حوادث المشاجرات التي تحفل بها حياة الرجل في صباه ، انها لم تتعود على كل ذلك فجأة تشعر بنفسها ملقاة في قبضة الرجل ،

وجسده فوق جسدها في وضع يمثل تفوقه وامتيازه عليها . لم يعد امامها من مجال للحلم والتراجع والمناورة ... لقد استسلمت له ، وسيتحكم بها وفق مشيئته ، ويحدث كثيرا ان تعتبر الفتاة اول تجربة جنسية عملية تتعرض لها كالاغتصاب القسري ، اذا اظهر الرجل عنفا يقرب من حدود الوحشية . ففي بلاد الريف حيث تكون الطباع خشنة جافة ، كثيرا ما تفقد الفتاة بكارتها نصف راضية ونصف غاضبة ، في غمر احدى الخفرات بين عواطف الخوف والحياء . وكثيرا ما تصاب الفتاة بخيبة امل شديدة بعد ليلة الزواج الاولى ، ولو كان زوجها لطيفا رقيقا معها ، لانها كانت تتمنى التمتع بالنشوة في شفتيها وصدرها وتود لو تشعر بلذة وسرور من نوع جديد بين ساقيها ، واذا بعضو الذكر يخترق جسمها في مناطق لم يكن مدعوا اليها ، وقد وصف العلماء دهشة الفتاة العذراء التي كانت تحلم في ان تجد تحقيقا لرغباتها الجنسية بين ذراعي الزوج او العشيق ، فاذا بها تشعر بالم شديد مفاجيء غير متوقع في عضوها التناسلي ، وحينئذ تتلاشى الاحلام وتتبدد الانفعالات وتأخذ إلحب شكل العملية الجراحية !

غير ان الالم لا يلعب الدور الرئيسي في التجربة الجنسية الاولى ، وانما يشكل الاختراق بحد ذاته عاملا هاما في نفس المرأة ، ويمتد تأثيره بعيدا ، فالرجل لا يستعمل في عملية الجماع سوى عضو من اعضائه الخارجية ، اما المرأة فانها تصاب في اعماق احشائها الداخلية . ان الفتاة لا تمتلك في اغلب الاحيان سوى جسمها ، وهو اغلى كنز لديها ، ولذلك فان الرجل حين يدخل فيها (يأخذ) منها وانها لتشعر من جراء ذلك بالاهانة والانحلال والانهزام ، فالمرأة تكون اثناء الجماع (تحت) الرجل .

ان جسمها يذاب ويخترق ويتحمل الجماع بينما يقوم الرجل بالدور الايجابي • ولا شك ان عضو الرجل ليس عضلة تخضع للارادة ، لكنه مع ذلك يتبع توجيهات الرجل ، فيتوقف ويذهب ويعود ، ثم يعاود الكرة وخلال ذلك ، يتمتع الرجل بصلاحية تحديد نوعية الجماع ومدته وتكراره • انها لتشعر بكونها آلة ، اما الحرية فهي متروكة بأجمعها لدى الجانب الآخر ، وهذا ما يعبر عنه شعريا بان المرأة تشبه الكمان والرجل بمثابة القوس الذي تهتز عليه اوتارها • وقال بلزاك : «تشبه المرأة في مجال الحب القيثارة ، التي تفشي سرها الى الشخص الذي يعرف كيف يعزف عليها» • ان الرجل كما تقول الامثال الدارجة يتلذذ مع المرأة (ويمنحها اللذة) وهذه الكلمات تبين انعدام دور المرأة في الجماع •

يجدر بنا اخيرا ان نشير الى احد العوامل التي تعطي الرجل وجها عدائيا وتحول العملية الجنسية الى عمل خطير ، انه خطر الحمل وانجاب الاولاد • والواقع هو ان الطفل غير الشرعي يعتبر في اغلب المجتمعات الحالية عائقا اجتماعيا واقتصاديا للمرأة غير المتزوجة ، وقد حدث ان بعض الفتيات اقدمن على الانتحار حين علمن بأنهن حاملات ، كما لجأ بعضهن الى قتل اطفالهن ، ولا شك ان خطر الحمل يكبح بشدة العواطف الجنسية ويدفع عددا كبيرا من الفتيات الى المحافظة على بكارتهن حتى الزواج • اما اذا تجرأت المرأة على تخطي هذه الحدود فانها تبقى دائما قلقة مترددة وتلجأ الى اتخاذ الاحتياطات لمنع الحمل ، الامر الذي يجعل العملية الجنسية اصطناعية والاحساس باللذة ضعيفا •

وقد تؤدي هذه المشاكل والمصاعب بالمرأة الى الجنون والامراض ، وفيما يلي قصة وردت على لسان فتاة من مدينة فينا تشرح فيها بصراحة

المشاكل التي صادفتها في مستهل حياتها الجنسية :

«في السادسة عشرة والنصف من عمري عملت في احد المكاتب ، وبعد عام حصلت على اول اجازة • كانت فترة سعيدة من حياتي لان الجميع كانوا يغازلونني • وكنت اميل الى احد زملائي في المكتب وقد ذهبنا معا الى الحديقة العامة حيث اجلسني قربه واخذ يقبلني قائلا بابتهال :

ــ افتحي شفتيك •

ولكنني كنت اغلقهما بتشنج ، وفي هذه الاثناء اخذ يفك ازرار سترتي فوددت لو تركته يفعل لولا انني تذكرت بان ثديي لم يتكورا بعده •

وذات يوم من نيسان ــ ابريل ــ دعاني صديق متزوج الى مصاحبته للمعرض وبعد ان تناولنا الخمرة على مائدة العشاء فقدت تحفظي فاستأجر عربة رغم احتجاجي ودفعني اليها ، وما كادت الخيل تتحرك حتى اخذ يقترب مني شيئا فشيئا ويداعبني بيده فاخذت ادافع عن نفسي بكل قواي ولم ادر اذا كان قد توصل الى تحقيق غرضه • وفي اليوم التالي طلب مني ان اراه كثيرا فقبلت بفضول شديد • وكان يداعبني مداعبات جريئة باصبعه في موطن عفتي ولقد اولج ذات يوم اصبعه فصرخت من الالم •

وذهبت بعد ذلك في اجازة مع صديقة لي فدعانا سائحان الى نزهة مهما واثناء النزهة حاول احدهما ان يقبل صديقتي ولكنها دفعته بيدها فالتفت نحوي وقبلني ونحن جالسان ثم اخذ يغمز موطن عفتي بالقبلات وقد استنكرت فعلته واقدامه على قذارة كهذه •

وبعد يومين ذهبت معه الى لابيزيغ ، وفي احدى الغابات المنعزلة

خلع معطفه وطرحني ارضا وسد فمي بمنديله واخذ يقضي وطره فحسبت ان ساعتي قد دنت وشعرت بالغثيان في معدتي .

وحين انتهى من العملية ، اخذ يغمر وجهي بالقبلات لكني كنت لا ارى او اسمع شيئاً ، وحين حاول اعادة الكرة ونحن وحدنا في مقصورة القطار فتحت الباب واخذت اجري واصيح هلعا وخوفا منه ، فما كان منه الا ان ضحك مني وتركني لشأني وهو يصفني بالغبية التي لا تعرف كيف تستفيد من الاشياء الطيبة . حين وصلت الى فينا ذهبت الى مغسلة لانني شعرت بان شيئا حارا يجري بين ساقي ، فاكتشفت وانا ارتعد فرقا آثار الدم . كيف استطيع ان اخفي ذلك عن اهلي ؟ لكن حالتي النفسية دلت علي واضطررت الى ان اقص الحادثة على امي التي لم تجد فيها شيئا رهيبا مزعجا» .

وقد ترددت في النهاية علاقاتها مع الرجال لكنها اصبحت باردة ولم تعد تشعر شيئاً ، الى ان احبت رجلا تزوجها وزالت برودتها .

هنالك امثلة كثيرة تكشف عن النتائج الخطيرة التي تنجم عن عنف ووحشية الرجل حين يضاجع المرأة لاول مرة في حياتها، والطريقة الوحيدة لتفادي هذه الحالات هي تدريب الفتاة بدون اي عنف او مفاجأة او بدون تحديد موعد معين لمباشرة العملية الجنسية . وفي هذا المعنى لا يمكن الا ان نوافق على حرية التصرف الممنوحة للفتيات الامريكيات .

لا تحصل المرأة في بداية حياتها الجنسية ، مقابل تنازلها واستسلامها، على لذة عنيفة واكيدة . ولا شك انها تضحي بسهولة بحيائها وكبريائها اذا انفتحت امامها ابواب الجنان . ولكننا رأينا ان ازالة البكارة ليست

امتدادا للعاطفة الجنسية في فترة الحداثة وانما هي حادثة منفردة ، وان اللذة المهبلية لا تحصل بعد ازالة البكارة بشكل آلي فقدذلت الاحصاءات التي قام بها عدد من العلماء ان ٤٠٪ على الاكثر من النساء يستعرن باللذة المهبلية منذ الجماع الاول و ٥٠٪ لا يشعرن بها الا بعد عدة اسابيع او اشهر او بعد عدة سنين • وتلعب العوامل النفسية في هذا المجال دورا رئيسيا فتمنع مقاومة المرأة اللاشعورية ظهور اللذة ثم تتفاقم هذه الحالة بسبب عدم حصولها على تعويض مقابل تنازلها واستسلامها فيدخل الزوجان في حلقة مفرغة قد تؤدي بالمرأة الى البرود الجنسي • غير ان الرجل يستطيع منحها ترضية باثارة اللذة البظرية التي تؤدي على الرغم من التأكيدات المعاكسة الى تهدئة اعصابها واشباع لذتها • لكن عددا كبيرا من النساء يرفضن ذلك لانه اذا كانت المرأة تتعذب من انانية الرجال الذين لا يفكرون الا في اشباع شهواتهم فان رغبة الرجل الصريحة في منحها اللذة تصدم شعورها • يقول ستيكل : وان اثارة اللذة لدى الآخر تعني السيطرة عليه ، وان الاستسلام الى شخص ما يعني التنازل عن الارادة ، والمرأة تقبل اللذة بسهولة اذا كان مصدرها طبيعيا كما هي الحالة في الجماع العادي الناجح ••••»

يكتسب موقف الرجل والحالة هذه اهمية بالغة • فاذا كانت عواطفه عنيفة قاسية ، فان المرأة تشعر وكأنها تتحول بين ذراعيه الى شيء او غرض ، غير انه اذا بالغ في التحكم بعواطفه فانه يحدث مفعولا معاكسا لديها • وفي كلتا الحالتين يثور كبرياء المرأة وتحاول لكي توفق بين استسلامها القسري ورغبتها في الشعور بكيانها ، ان تجعل من الرجل فريسة لها وقد تقع في براثن البرودة الجنسية من فرط اصرارها على

القيام بدورها في الجماع • ويعود الامر في معالجة هذه الوضعية الى حذاقة الرجل الذي يستطيع ان يوحي للمرأة بان العملية الجنسية هي مشاركة بينه وبينها ولا يهدف منها الى السيطرة عليها •

وحتى لو توصلت المرأة الى تخطي هذه الصعوبات وعرفت خلال مدة من الزمن اللذة المهبلية فانها لا تكون قد وصلت الى نهاية متاعبها لان التوقيت الجنسي بينها وبين الرجل غير منسجم ، فهي اكثر بطئاً منه في الشعور باللذة •

يقول تقرير (كينسي) ان ثلاثة ارباع الذكور يبلغون ذروة اللذة ، خلال دقيقتين من بدء العلاقة الجنسية واذا اخذنا بعين الاعتبار ان النساء ذوات المستوى العالي يلزمهن ١٠ — ١٥ دقيقة من التحريض النشيط كي يبلغن الذروة ، واذا اعتبرنا كذلك ان عدداً كبيراً من النساء لا يبلغن طوال حياتهن ذروة الشعور باللذة الجنسية ، ادركنا بانه يجب ان يكون الرجل ذا كفاءة استثنائية ، لاطالة النشاط الجنسي وتأخير مرحلة التفريغ، فيتمكن حينئذ من خلق الانسجام مع زميلته •

يظهر ان الزوج في الهند يدخن الغليون خلال الجماع ليسلي نفسه عن الشعور باللذة ويطيل امد لذة زوجته ، اما في الغرب فانه يفتخر بعدد (المرات) على غرار كازانوفا ، ويبلغ ذروة فخره واعتزازه بنفسه حين يحصل من زميلته على كلمة (شكرا) !• ويشتكي الرجال في بعض الحالات من كثرة طلبات ورغبات النساء العنيفة فيقولون عن زوجاتهم او خليلاتهم انهن دائمات الجوع متكاليات لا سبيل الى سد حاجتهن •

والواقع هو ان اللذة لدى المرأة تختلف تمام الاختلاف عنها لدى

الرجل وقد قلت سابقا ان العلم لم يتوصل لمعرفة ما اذا كانت اللذة المهلية تنتهي الى الارتخاء التام كما هي الحال لدى الرجل ، فمما لا شك فيه ان الجماع بالنسبة للرجل له نهاية بيولوجية معينة : التفريغ والقذف ، اما في حالة المرأة فالامر على العكس ، اذ يكون الهدف في البدء غير معين ومن طبيعة نفسية لا فيزيولوجية ، انها تريد الحصول على الانفعال واللذة بصورة عامة لكن جسمها لا يعطيها اية نتيجة واضحة للعمل العاطفي ، ولهذا فان لذة الجماع لا تنتهي مطلقا لدى المرأة • ان لذة الذكر تتصاعد كالسهم وحين تصل الى مستوى معين تتحقق وتموت فجأة في الذروة ، اما اللذة الانثوية فانها تنتشر في جميع انحاء الجسم ولا تتركز في الاعضاء التناسلية ، ولا تشكل التقلصات المهلية لديها سوى تموجات تسير على ايقاع معين فتتولد وتنعدم ثم تتشكل وتصل في بعض اللحظات الى الذروة ثم تختلط وتذوب دون ان تصل الى درجة الانعدام التام • ولا يحد من الامكانية الجنسية للمرأة الا التعب العصبي او القلبي او الاشباع النفسي •

يرتكب الرجل خطأ كبيرا حين يحاول ان يفرض على رفيقته طريقته في الجماع ويتهالك على منحها اللذة القصوى • ولا تؤدي هذه الطريقة في اغلب الاحيان الا الى تحطيم شكل اللذة التي تعيشها المرأة على طريقتها ، وقد تشكل بعض الاختلاجات المتمركزة في المهبل او في الجملة التناسلية والصادرة عن الجسم باكمله ، نهاية لدى بعض النساء ، وقد تحصل هذه الاختلاجات بشكل دوري فتشبه اللذة القصوى لدى الرجل ، لكن المرأة العاشقة يمكن ان تجد في ذروة اللذة الجنسية بشكل مستمر دون اي انقطاع وبشكل يرضي المرأة •

ان الظروف التي تجري خلالها الحياة الجنسية للمرأة لا تتوقف على ما يناه اعلاه فحسب وانما على حالتها الاقتصادية والاجتماعية بصورة عامة ، ولا شك انه من السخف دراستها دون اخذ هذه العوامل بعين الاعتبار . لكننا نستخلص من دراستنا بعض النتائج الهامة : ان التجربة الجنسية هي احدى التجارب التي تكشف للانسان بشكل عام ابهام وتعقيد وشروط حياته . كما تكتسب بالنسبة للمرأة طابعا دراماتيكيا ، لانها تكتشف نفسها اولا كغرض ومتعة امام الرجل ، ولانها لا تجد في اللذة استقلالا وتأكيدا لشخصيتها وانما يجب عليها ان تناضل باستمرار للحصول على حريتها كشخص له كيانه في الوقت الذي تقوم به بوظيفتها الجسدية .

وسواء انسجمت في دورها السلبي ام لم تنسجم ، فانها تشعر على الدوام بالحرمان كفرد له فعاليته ، ولعله من عجائب الامور ان الرجل يعيش في عالم مليء بالنعومة والرقة في عالم المرأة بينما تتيه المرأة على غير هدى في عالم الذكور الخشن القاسي، ان يديها لتحن الى ضم الجسد الناعم واللحم الغض وانها لتتمنى في جميع فترات حياتها ان تمتلك كنزا مماثلا للكنز الذي تمنحه للذكر . وهذا يفسر لنا بقاء بعض الميول السحاقية لدى عدد كبير من النساء . ويتأكد هذا الميل لدى بعضهن لاسباب معقدة فنراهن لا يقبلن باعطاء مشاكلهن الجنسية الحل الكلاسيكي المعترف به رسميا لدى المجتمع فيتعرضن الى المساحقة ، ولذلك يجب علينا ان ندرس الآن حالة النساء اللواتي يتبعن الطريق المنبوذة .

الفصل الرابع

المساحقة

•

يتصور الناس خطأ المرأة المساحقة مرتدية على رأسها شالا خشنا والعقدة مربوطة في عنقها • ويعتقدون ان رجولتها ليست سوى عبارة عن شذوذ يعكس عدم التوازن الهورموني لديها • والواقع هو ان عددا كبيرا من السحاقيات يتمتعن بانوثة نادرة، كما ان عددا كبيرا من النساء المسترجلات يرفضن فكرة السحاق • وقد أكد علماء النفس والجنس ما بينته المراقبة العادية، بان الاغلبية العظمى من (السحاقيات) المنبوذات من المجتمع يختلفن مطلقا عن بقية النساء •

يفرق العلماء عادة بين نوعين من المساحقات ويطلقون على النوع الاول (المساحقات الذكور) وهن اللواتي يقلدن الرجل في حياته الجنسية، (والمساحقات الاناث) على النوع الثاني اللواتي يقمن بدور الانثى في عملية السحاق • لكني ارى لاسباب عديدة ان هذا التقسيم اعتباطي ولا ينطبق مع الواقع •

ان تعريف المساحقة «الذكر» برغبتها وارادتها في «تقليد الرجل» يسبغ عليها صورة غير واقعية • وقد بينت قبل كيف يخلق العلماء النفسانيون المتناقضات بتبنيهم الفئات (الذكرية — الانثوية) كما يعرفها

مجتمعنا الحالي• والواقع هو ان الرجل يمثل في يومنا هذا فكرة الايجاب والحياد في نفس الوقت ، اي فكرة الذكر ، والانسان البشري ، بينما تكتفي المرأة بتمثيل الفكرة السلبية اي الانثى • فاذا تصرفت المرأة في الحياة كانسان بشري قالوا انها تقلد الرجل وفسروا نشاطها في ميادين الرياضة والسياسة والثقافة ، ورغبتها في النساء كميول ذكرية كامنة لديها • ان سوء التفاهم الرئيسي الذي يرتكز عليه هذا التفسير هو ان الناس يعتبرونه طبيعيا بالنسبة للانثى ، ان تجعل من نفسها امرأة بكل معنى الكلمة كما يعرفها المجتمع ، فلا يكفيها ان لا تولع سوى بالجنس الآخر او حتى ان تكون اما لكي تحقق صورة المرأة المثالية ، بل ان المرأة الحقيقية ليست في الواقع سوى منتوج اصطناعي ، صنعته الحضارة السائدة • واذا ثارت المرأة على هذه المفاهيم او شعرت بنقصها واختارت ان تكون فردا كاملا ، فانها تعد متحررة عن مجتمعها وجنسها ، واتهمها الناس بالاسترجال ، لان الطبيعة الانثوية في عرف المجتمع تعني النقصان والخضوع •

ان المرأة التي تقتحم ميادين الاعمال بنفسها والتي تطالب بحريتها بشكل عام ،ترفض التنازل عن شخصيتها لحساب انسان آخر ولو كانت جميلة جذابة ، لانها تكون قد اكتشفت كيانها وشخصيتها المستقلة من خلال اعمالها،لا من خلال شعورها بالنقص تجاه الرجال • ولا شك ان رغبة الذكر التي تدني قيمتها الى حدود جسمها ، تصدم عقليتها وتشعر من نفسها بالاشمئزاز الذي يشعر به الرجل الذكر تجاه اللواطي السلبي•
ولكي تنفي عنها مظهر المرأة المستكينة تراها تتخذ اوضاعا رجالية فتتنكر بثيابهم وتحاكيهم في طريقة مشيتهم وكلامهم وتختار صديقة انثى تعيش

معها وتلعب دور الرجل تجاهها • نعم ان هذه التمثيلية حقا تقليد للرجل ، لكنها لا تخرج عن كونها ظاهرة ثانوية ، اما الامر الرئيسي فهو تمرد الفرد المتمتع بالسيادة والمتحكم في مقومات حياته ضد تحوله الى فريسة جسدية • وقد دلت الاحصاءات ان عددا كبيرا من النساء الرياضيات سحاقيات لان قوتهن الجسدية واستقلالهن عن الرجال يؤدي بهن الى رفض الخضوع للرجل • ونحن نجد نفس المقاومة لدى النساء (ذوات الرأس) اللواتي يصبح الاستسلام بالنسبة اليهن امرا مستحيلا ولو كان بشكله الجسدي • ولعله اذا تحققت في مجتمعنا المساواة بين الجنسين لكان من الممكن لهذه العوائق جميعها ان تزول ، لكن الرجل لا يزال مشبعا بمركب التفوق الامر الذي يضايق المرأة اذا لم تكن مؤمنة بضرورة تفوقه عليه •

يجب ان نلاحظ مع ذلك بان المرأة ذات الارادة المحبة للسيطرة لا تتردد الا قليلا في مجابهة الرجل ، فهي لا تريد ان ينتقص من قدرها كامرأة وان كانت تحرص على المحافظة على شخصيتها المستقلة • وهي لا تخاف من اظهار رغبتها الجنسية للرجل بل تجد مقاومة اقل من المقاومة التي تجدها العذراء الخجول قبل بدء العلاقة الجنسية مع الذكر • ان المرأة العادية ذات الميول الحيوانية لا تشعر بالاهانة من جراء الجماع ، على عكس المرأة المثقفة المفكرة التي تحتج عليه لانها واثقة من نفسها وذات طبع نضالي ، ولذلك فهي تندفع في سجال مع الرجل لا تعلم كيف ينتهي • ومن الامثلة التي تضرب عن قوة شخصية المرأة المستقلة ان مدام دوستايل لم تشد سوى في اواخر ايامها عشاقا يتمتعون بالشباب والجمال • لقد كانت تسيطر على جميع الرجال بقوة تفكيرها وتقبل

اعجابهم بها بكبرياء وانفة ولذلك لم تكن تشعر ابدا بشعور الفريسة بين ذراعيهم •

ومن العبث محاولة تقسيم المساحقات الى ذكور واناث ، لانه اذا طرحنا جانبا بعض الحالات الشاذة ، فان كلا منهما تستطيع ان تقوم بدور الاخرى بدون اي حرج او صعوبة ، لكن بعض الظروف كقوة الشخصية او الثروة او الجاه او الطبيعة النفسية تقسم الادوار بينهما تبعا لهذه العوامل •

والواقع هو ان السحاق لا يعتبر ضربا من ضروب التفنن والتسلية لدى المرأة ، كما لا يشكل لعنة من القدر تحل عليها وانما هو موقف تتخذه المرأة كرد فعل على اوضاعها في المجتمع ، اي انه له ما يبرره في حياة المرأة التي اختارته بمحض ارادتها ، تلبية لداعي بعض العوامل الفيزيولوجية والتاريخية والنفسانية والظروف الاجتماعية • انه يشكل بالنسبة للمرأة طريق من بين الطرق الاخرى لحل مشاكلها الاجتماعية بوجه عام ومشاكل حياتها الجنسية بوجه خاص • وكما هي الحال في جميع تصرفات البشر فان السحاق يؤدي في بعض الحالات الى عدم التوازن والفشل والكذب والرياء ، او يكون على العكس مصدرا للتجارب الخصبة في حياة المرأة •

القسم الثاني

أوضاع المرأة

الفصل الاول

المرأة المتزوجة

•

الزواج هو المصير التقليدي الذي يخصصه المجتمع للمرأة • واغلب النساء هن حتى يومنا هذا اما متزوجات او يعددن انفسهن للزواج او يتألمن لعدم تزوجهن لذلك ينبغي لنا متابعة هذه الدراسة باللجوء الى تحليل الزواج •

للتطور الاقتصادي لوضع المرأة اثر في طبيعة الزواج الذي اخذ يصبح اتحادا يجري بالاتفاق الحر بين فريقين مستقلين • وان ارتباطات الطرفين صارت شخصية ومتبادلة ، ويمكن للطرفين الحصول على الطلاق في نفس الشروط • ولم تعد مهمة المرأة محصورة في التناسل — بل ان الولادة نفسها صارت تعتبر كعمل منتج لان الدولة او رب العمل ، في كثير من الاحوال ، يقومان بدفع الاجور عن مدة الراحة التي يقتضيها الحمل • وفي الاتحاد السوفياتي اعتبر الزواج خلال بضع سنوات كعقد بين فردين يستند الى حرية الزوجين فقط ، على انه اخذ يكتسب في هذا اليوم صفة خدمة تفرضها الدولة على الطرفين • وتبعا لما ستكون عليه البنية العامة للمجتمع في المستقبل ، سينتصر الاتجاه الاول او الثاني ، لكن وصاية الذكور ، على كل حال ، في طريق الزوال • الا ان المرحلة

الحالية ، من وجهة النظر النسائية ، مرحلة انتقال • فقسم من النساء فقط يساهم في الانتاج ، وهذا القسم نفسه يعود الى مجتمع ما زالت سائدة فيه نظم وقيم قديمة • والزواج الحديث لا يمكن فهمه الا على ضوء الماضي المتصل بالحاضر •

كان الزواج دائما يبدو مختلفا اختلافا جذريا بالنسبة الى الرجل والمرأة ان كلا الجنسين ضروريان لبعضهما بعضا الا ان هذه الضرورة لم تؤد قط الى علاقة تبادل • ولم تشكل النساء قط طبقة خاصة تقيم مع طبقة الرجال علاقات تبادل وتبرم العقود على قدم المساواة • فالرجل من الناحية الاجتماعية مستقل وكامل وينظر اليه قبل كل شيء كشخص منتج ، ووجوده مبرر بالعمل الذي يقدمه للجماعة • اما المرأة فكان دورها المحدود بانجاب الاطفال والعمل المنزلي حائلا دون مساواتها مع الرجل •

صحيح ان الرجل بحاجة الى المرأة ، ولكن لا يتوجه بندائه اليها ، بل الى مجتمع الرجال الذي يسمح لكل فرد من افراده بأن يستكمل شخصه كزوج وكوالد •

اما المرأة فكانت مندمجة بالاسرة الواقعة تحت سيطرة الآباء والاخوة ، لذلك كانت تقدم للزواج من بعض الذكور الى بعض الذكور • فقديما كانت العشيرة الابوية تتصرف بها كما تتصرف بالاشياء • على ان وضع المرأة لم يتعدل تعديلا جذريا لما اكتسب الزواج ، خلال تطوره ، شكلا تعاقديا • وبقي الزواج مورد رزقها والمبرر الاجتماعي الوحيد لوجودها • وهو مفروض عليها لسببين : اولا ان تنجب الاطفال للجماعة ،

كما ان مهمتها ايضا ارضاء حاجات الذكر الجنسية والعناية بمنزله • وان العبء المفروض عليها من المجتمع يعتبر كخدمة مقدمة للزوج ، لذلك يتعهد باعالة الزوجة • هكذا كان الزواج بالنسبة الى الطرفين عبئا ومنفعة الا ان الوضعين لم يكونا متوازيين متكافئين • فالزواج بالنسبة الى الفتيات ، كان الوسيلة الوحيدة للاندماج بالجماعة فليس بغريب اذا كانت الامهات دائما حريصات على تزويج بناتهن •

جاء في احدى قصص اميل زولا وصف للمقابلات المعدة سلفا : «قالت مدام (جوسران) لزوجها : هذه رابع محاولة فاشلة لتزويجها • ثم استطردت قائلة وهي تشير نحو ابنتها : كيف فوت هذا الزواج ؟

فتمتمت : لا اعرف يا امي •

وتابعت امها قائلة :

ـ مساعد رئيس مكتب ، لم يبلغ الثلاثين ، مستقبل عظيم • في نهاية كل شهر يجلب اليك راتبه • لعلك ارتكبت حماقة كما فعلت مع الآخرين •

ـ اؤكد لك يا اماه انني لم افعل شيئا •

ـ خلال الرقص مررتما بالبهو الصغير

ـ وارتبكت البنت وهي تقول :

ـ نعم يا امي •• ولما كنا وحيدين فقد اراد اشياء معوجة • وقبلني وهو يضمني اليه • حينئذ احسست بالخوف فدفعته فى قطعة اثاث !

فقاطعتها امها غاضبة : دفعته على قطع اثاث • يا لك من شقية •

ـ لكنه كان متمسكا بي يا اماه .

ـ وما المانع . هل من ضروري ، في الحقيقة ، ان تخبرينا بذلك .

وتابعت الام كلامها وكأنها تلقن ابنتها درسا :

ـ كل شيء انتهى . بدأت اياس منك يا ابنتي فات بليدة . لما كنت بلا ثروة ، فافهمي جيدا اذن ان عليك اصطياد الرجال بشيء آخر . يمكن للفتاة ان تكون لطيفة وان تكون عيناها مفعمتين بالحنان وان تنسى يدها فتسمح بالمداعبات دون ان يبدو عليها ذلك ... وفي النهاية ... تصطاد زوجا .

هكذا تبدو الفتاة سلبية بصورة مطلقة . اما الرجال فيبحثون في الزواج عن تأكيد وجودهم وليس عن حق الوجود . انه بالنسبة اليهم عبء يأخذونه على عاتقهم بمحض اختيارهم ، فيمكنهم اذن ان يتساءلوا عن مزاياه ومساوئه لانه ليس سوى شكل من اشكال الحياة . ولا يعتبر المصير المقرر المحتم بل بامكانهم ان يفضلوا وحدة العزوبية .

حينما تتزوج المرأة تأخذ بعض الضمانات القانونية ، الا انها تصبح تابعة لزوجها فهو رب العائلة من الناحية الاقتصادية وهو الذي يجسدها بالتالي في عين المجتمع . فتأخذ اسمه وتنضم الى طبقته ووسطه وتصبح «نصفه» المكمل ، وتتبعه الى حيث يدعوه عمله .

ولما كان الزوج هو المنتج فهو الذي يجاوز مصلحة الاسرة الى مصلحة المجتمع . اما المرأة فمندورة للمحافظة على النوع والعناية بالمنزل اي انها مندورة للجمود .

والحقيقة ان كل كائن بشري هو ارتقاء وجمود معا ، اذ ينبغي له ان يضم اليه الماضي ليثب نحو المستقبل ، وان يؤكد ذاته دون ان ينقطع عن الآخرين • ولئن كان الرجل يستطيع التوفيق بين هذين الامرين فان الزوجة لا تسمو بنفسها الى الجماعة الا من خلال زوجها •

يفرض الزواج على الفتاة في يومنا هذا بصورة اكثر الحاحا • ولا يزال هناك فئات اجتماعية لا تفسح امام الفتاة سبيل الزواج • فعند الفلاحين تبقى الفتاة العازبة خادمة لابيها واخوتها • ولم تعد الهجرة نحو المدينة ميسرة لها • اما الزواج فيخضعها للرجل ، ويجعل منها سيدة بيت في الوقت نفسه •

ولا تزال بعض الاوساط البورجوازية تترك الفتاة عاجزة عن كسب حياتها ، فلا يمكن لها حينئذ الا العيش كفضولية في دار والدها او ان تقبل وضع التبعية في بيت اجنبي • واذا فرضنا انها اكثر تحررا ، فان الامتياز الاقتصادي للرجل يدفعها الى تفضيل الزواج على العمل • حينئذ تبحث عن زوج احسن منها وضعا آملة الحصول على مكانة اعلى في اسرع وقت • ان جسمها يعتبر كمتاع يباع ويشرى وهو بالنسبة اليها رأسمال يجوز استثماره • واحيانا تقدم بائنة للزوج وتأخذ على عاتقها عبء العمل المنزلي وتربية الاطفال • وعلى كل ، فان من حقها دائما ان ينفق الرجل عليها – بل ان الاخلاق تدعوها الى ذلك • فمن الطبيعي ان تستهويها هذه السهولة لا سيما ان الاشغال النسوية كثيرا ما تكون سيئة الاجور •

كل فتاة تقريبا ، سواء في العالم الجديد او القديم ، تجيب اذا ما سئلت عن مشاريع المستقبل بقولها : «اريد الزواج» ، في حين ان ما من

شاب يعتبر الزواج هدفا اساسيا له ، بل النجاح الاقتصادي هو الذي يكسبه المكانة .

ان شروط الحياة الحديثة تجعل اعباء الزواج ثقيلة على الشباب ، فتناقصت الفائدة منه وخاصة ان الشاب صار باستطاعته ان يؤمن الناحية الزوجية خارج نطاق الزواج . صحيح ان الزواج يسهل بعض نواحي حياة الرجل الا ان اقبال الشباب على الزواج وبالتالي عروضهم تبقى بوجه عام اقل من عروض النساء .

والمرشحة البائسة تعلم جيدا ان حظها في الزواج يتناقص كلما تقدم بها السن . فالخطاب ليسوا كثيرين . وحريتها لا تفوق كثيرا حرية البدوية التي تبادل ببعض رؤوس الماشية .

تقول الكاتبة كوليت :

«الفتاة التي لا تملك ثروة او ليس لها مهنة والتي تعيش في كنف اخوتها ما عليها الا ان تسكت ، وان تقبل بحظها وتشكر ربها» .

لقد اصبحت الفتيات اكثر تحررا ، واخذن يكثرن من خروجهن ويقبلن على الجامعات ، ويحترفن مهنة تتيح لهن فرصة التعرف على الرجال . وقد درست احدى المؤلفات مسألة الانتقاء في الزواج في اوساط البورجوازية البلجيكية بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٧ ، فكانت اكثرية الآراء تدل على ان الزواج المهيأ سلفا من قبل الاهل آخذ في الزوال . اما الطريقة المتبعة فهي الزواج بالمراسلة . وقد بينت الدراسة نفسها على ان الزواج بين اصدقاء الطفولة نادر وان الفتيات هن اللواتي يأخذن عادة المبادرة في الزواج بل جاء في التحقيق : «الفتاة تفعل كل ما في وسعها

كي تتزوج ... والمرأة هي التي تفتش عن الرجل» وفي فرنسا كما في اميركا ، تعلم الامهات والمجلات النسائية الفتيات ان «اصطياد» الزوج ، انه «صيد» يتطلب كثيرا من المهارة : لا تطلبي لا اكثر بكثير ولا اقل بكثير ... لا تكوني خيالية بل كوني واقعية» ..

والشباب يحاولون دائما التخلص من المصيدة : وانتقاء الفتاة محدود جيها في اغلب الاحيان . واذا كان الزوج مناسبا تقريبا فانها تقبله دون حب ولو كان هناك تحفظات .

ولئن كانت الفتاة تريد الزواج لمزاياه ، فانها في نفس الوقت تخشاه لانه يتطلب منها تضحيات جسيمة ، وخاصة الانقطاع الفجائي عن الماضي . حتى ان كثيرا من الفتيات يشعرن بالقلق من فكرة مغادرة بيت والدهن . وفي هذه المرحلة تنشأ كثيرا من الازمات العصبية .

ولناخذ عن ستيكل المثال التالي :

«عندما تعرف عليها ستيكل كانت تشكو من التقيؤ ، وتأخذ المورفين كل مساء وتجتاحها نوبات من الغضب ، وترفض ان تغتسل ، وتأكل في سريرها وتبقى محبوسة في غرفتها . انها مخطوبة وتؤكد انها تحب خطيبها . وتعترف لستيكل بانها استسلمت له ... ثم قالت فيما بعد انها لم تشعر باية لذة ، بل انها حفظت من اثرها بذكرى بشعة وهذا سبب تقيئها . وقد اكتشف انها استسلمت لتعاقب امها التي لا تكن لها ، فيما تعتقد ، حبا كافيا . ولما كانت طفلة كانت تتلصص على والديها في الليل لانها كانت تخاف ان ينجبا اخا او اختا ، لقد كانت تعبد امها ، والآن اصبحت مضطرة الى الزواج ومغادرة بيت ابيها ، ان هذا مستحيل .

لذلك اخذت تحك يديها وبات قاسية ، مريضة ، تحاول اهانة خطيبها بكل الوسائل . وقد شفاها الطبيب الا انها رجت امها ان تكف عن فكرة تزويجها . كانت تريد البقاء دائما في البيت لتظل طفلة . اما امها فكانت تلح في تزويجها ... وقبل يوم الزواج باسبوع وجدت ميتة في سريرها، فقد انتحرت باطلاق النار على نفسها !

وفي حالات اخرى يحل بالفتاة مرض طويل . انها يائسة ، فيما تدعي ، لان مرضها لا يسمح لها بالزواج من الرجل الذي تحب، والحقيقة انها تختلق المرض كي لا تتزوج . ولا تعود الى حالتها الطبيعية الا بفصم الخطوبة .

ان الارتباط ببيت الوالد يدفع الفتاة غالبا الى عدم تحمل فكرة الخطوبة مع ذكر غريب عنها . وفتيات كثيرات لا يقبلن الزواج الا لانه ضروري ، ولانه المخرج الوحيد ، لذلك يخفين في اعماقهن مقاومة عنيدة تجعل الايام الاول من الحياة الزوجية صعبة وقد تمنعهن من الحصول على حياة متوازنة .

لا يكون الحب غالبا سببا في الزواج . فالزوج كما يقول فرويد ليس سوى بديل عن المحبوب وليس المحبوب ذاته . ان هذا التباين ليس امرا طارئا بل تقتضيه طبيعة الزواج نفسه . فالغاية منه التسامي الى المصلحة الجماعية عن طريق الاتحاد الاتحادي والجنسي بين الرجل والمرأة ، وليس الهدف منه تأمين السعادة الفردية . وكثيرا ما يحدث في المجتمعات الخاضعة للنظم الابوية ، ان لا يرى احدهما وجه الآخر الا في يوم الزفاف ، اذ لا يمكن تأسيس الحياة ، من الناحية الاجتماعية ، على

اساس من الهوى العاطفي او الميل الجنسي .

لما كانت العروض النسوية كثيرة فان للرجل امكانية اوسع في الانتقاء . اما الفتاة فعليها ان تزهد في حب شخص معين ، وقد سمعت امرأة ورعة تلقن بناتها ان الحب احساس خشن خاص بالرجل ولا تعرفه النساء الفاضلات . مثل هذه الفكرة نراها عند هيجل في شكل فلسفي . فلا يجب على المرأة ان تأسس علاقات ذات صفة فردية خاصة مع زوج تصطفيه بل عليها ان تبرر ممارسة وظائفها النسوية في شكلها التام . وينجم من ذلك امران : اولا ليس لها الحق في اي نشاط جنسي قبل الزواج . وبما ان الاتصال الجسدي يخضع لنظام ، بالنسبة الى الزوجة، فهناك تجاوز بالرغبة واللذة نحو المصلحة الاجتماعية . وبما ان الرجل يجاوز ذاته نحو العام بصفته عاملا ومواطنا ، فبامكانه ان يتذوق قبل الزواج وعلى هامش الحياة الزوجية ملذات عارضة . ومن جهة اخرى ان الذكر حين يؤدي واجبه النوعي كزوج ومولد فانه يحقق لذته حتما . في حين نجد عند المرأة غالبا افتراقا وتباينا بين الوظيفة النوعية واللذة لدرجة ان الزواج اذ يدعي اكساب حياة المرأة الجنسية وقارا،اخلاقيا ، فانه في الحقيقة يحذفها .

وقد رضي الرجال عن طيب خاطر بكبت المرأة الجنسي مستندين الى نظرة متفائلة ، قد تصل الى التهكم فيقولان : خمس دقائق لذة ... وتسعة اشهر ألم . ان البعض يقول : ان آلام الولادة ضرورية لظهور غريزة الامومة . فطبيعي اذن ان لا يشعر الذكور باي توبيخ في انكار السعادة الجنسية على رفيقتهم .

يقول برودون بصراحة بأن ازالة الحب من الزواج مطابق للعدالة .

الا ان مفاهيم البورجوازية خلال القرن التاسع عشر تعدلت بعض الشيء ، كانت هذه الطبقة تحاول جهدها ان تدافع عن الزواج ونسوته ، ومن جهة فان نمو الفردية كان يحول دون خنق المطالب النسوية ، لذلك نشأت مسألة ادخال المشاعر الفردية الى الزواج ، التي كانت مهملة قبلا . حينئذ استنبط مفهوم «الحب الزوجي» المبهم الذي كان ثمرة عجيبة انجبها الزواج التقليدي . وان بالزاك يعبر عن عدم تماسك افكار البورجوازية المحافظة ، غير انه يربأ بنفسه ان يشبه نظام الزواج المحترم بسوق عادية تعتبر فيها المرأة متاعا . لذلك يصل الى افكار متنافرة كما جاء في فيزيولوجيا الزواج :

«يمكن اعتبار الزواج ، من النواحي السياسية والمدنية والخلقية كقانون ، كعقد ، كنظام ... لذلك ينبغي له ان يكون محط الاحترام العام .

ان اغلب الرجال لا ينظرون الى الزواج الا كوسيلة للحصول على الاطفال . الا ان السعادة لا تنجم عن التناسل او الملكية . وان نطلب الحب من فتاة لم نرها الا بضع مرات في بضعة ايام هو نوع من السخف».

ويستطرد بالزاك قائلا :

«الحب هو توافق الحاجة والعاطفة . والسعادة في الزواج تنجم عن تفاهم روحي تام بين الازواج ، وعلى الرجل ان يخضع ، اذا اراد السعادة لنفسه ، لبعض قواعد الشرف والكياسة . وينبغي له ، بعد الاستفادة من القانون الاجتماعي الذي يقر بالحاجة ، ان يستجيب لقوانين الطبيعة

الخفية التي تفتق المشاعر • واذا كانت سعادته في ان يكون محبوبا فما عليه الا ان يحب باخلاص اذ ما من شيء يقاوم الحب الحقيقي • الا ان التوله يعني الرغبة الدائمة • فهل بوسع الرجل ان يرغب دائما في زوجته؟ نعم انه يستطيع ذلك» •

ثم يسرد بلزاك علم الزواج • ان الزوج لا يتردد في فرض نظام غذائي يضعف المرأة • ويمنع عنها كل ثقافة، ويقسو نحوها في سبيل المحافظة على شرفه • هل المسألة مسألة حب ؟ يبدو ان المغزى الوحيد الذي يمكن استخلاصه من هذه الافكار المهلهلة والمهمة ان من حق الرجل انتقاء امرأة تفي بحاجاته ، وعليه بعد ذلك ان ينبه حب امرأته بالاعتماد على بعض الوصفات • لكن هل هو حق محب اذا تزوج من اجل الملكية والتناسل • واذا لم يكن محبا فكيف يكون هواه من الشدة بحيث ينبه قلب زوجته ؟ هل يجهل بلزاك ان الحب غير المتبادل يقض المضجع اكثر من ان يغوي بصورة حتمية ؟ اننا نرى سوء نيته بوضوح في كتابه : مذكرات زوجتين شابتين • وهي قصة تأخذ شكل رسائل وذات فكرة هادفة •

تدعي البطلة (لويز دي شوليو) تأسيس زواجها على الحب • فيدفعها حبها المبرح الى قتل زوجها الاول ، ثم تموت من فرط غيرتها تجاه زوجها الثاني • اما البطلة الثانية (رونيه دي بستوارد) فتضحي بعواطفها امام عقلها فتعوضها مباهج الامومة عن ذلك وتبني لها سعادة راسخة ثابتة •

اننا نتساءل اي لعنة حلت بالزوجة الاولى ، باستثناء القرار العلوي الصادر عن المؤلف نفسه ، لتمنع عن لويز العاشقة ما تصبو اليه من امومة • فالحب لم يكن قط حائلا دون الامومة •

ويصف بلزاك ليلة العرس بقوله :

«قالت رونيه لصديقتها :

لقد اختفى الوحش الذي نطلق عليه بحسب تعبيرك اسم زوج ، وحل محله ، لا ادري في اية ليلة حلوة ، عاشق تغلغلت كلماته في نفسي وكنت استند الى ذراعه بلذة لا توصف ... وتنبهت غريزة الفضول في قلبي.. اعلمي انني لم افتقد اي شيء يقتضيه الحب الناعم» .

على ان هذه الاعجوبة لم تكن تكرر في اغلب الاحيان ، اذ ترى (رونيه) بعد عدة رسائل وهي تذرف الدموع : «كنت فيما مضى شخصاً اما الآن فاصبحت متاعاً» . اننا نتساءل كيف تحول الزوج الى ساحر ؟ فالوسائل التي يسوقها بلزاك في «فيزيولوجيا الزواج» مقتضبة جداً :

«لا تبدأ الزواج ابدا بالاغتصاب»

او مبهمة :

«ان عبقرية الزوج تكمن في اكتناه انواع اللذة ببراعة ، وتطويرها واعطائها طابعا جديدا وتعبيرا اصيلا» .

غاب عن بلزاك انه ليس هناك عواطف حيادية . وفقدان الحب ، والضغط والضجر ، تؤدي كلها الى فراغ الصبر والخصام اكثر من ان تؤدي الى الصداقة الودودة .

اما (كير كغارد) فيعتقد ان التوفيق بين الزواج والحب يتطلب كما ينجح تدخل العناية الالهية :

«الزواج يا له من اكتشاف غريب ! ومما يزيد في غرابته الاعتقاد بأنه عملية عفوية ، ما من عملية حاسمة مثل الزواج ... لذلك ينبغي عمله بصورة عفوية» .

«العبودية هي ما يلي : الحب والميل العاطفي عفويان تماما ؟ اما الزواج فتصميم . الا ان الميل العاطفي يجب ان ينبه بالزواج او بالقرار : ارادة الزواج ، الامر الذي يعني ان اكثر الاشياء عفوية يجب ان يكون في نفس الوقت اكثر القرارات حرية . ان هذا الامر بسبب عفويته يصعب تفسيره مما يدعو الى ارجاعه الى قوة الهية ، ويجب ان يحدث في نفس الوقت نتيجة تفكير قوي جدا بحيث ينجم عنه التصميم والقرار . بل يجب ان يحدث كل شيء في نفس الوقت ، وان يجتمع الشيئان في لحظة الختام» .

من الصعب ان نفهم كيف يمكن للحب ان يصبح واجبا ، الا ان (كير كغارد) لا يخشى التناقض وكل كتابه عن الزواج يهدف الى توضيح هذا اللغز .

صحيح كما يقول «ان التفكير يقضي على العفوية .. ولو كان التفكير ينتقص من الميل العاطفي لما كان هناك زواج ابدا» . الا ان «التصميم عفوية جديدة تبلغ من خلال التفكير ويحس بها بصورة فكرية صرفية ، عفوية تتناسب تماما مع عفوية الميل العاطفي . ان التصميم مفهوم ديني للحياة المبنية على اسس اخلاقية وينبغي له ، ان صح القول ، ان يمهد السبيل للميل العاطفي ويحميه من كل خطر خارجي او داخلي» .

اما المرأة فليس العقل من نصيبها ، ولا تتمتع بالتفكير لذلك «تنتقل

من الحب المباغت الى التدين المباغت» • ان هذا الاعتقاد يعني بتعبير اوضح ان الرجل المحب يعزم على الزواج بدافع آلهي يضمن له توافق العاطفة وعهد الارتباط • والمرأة لا تكاد تحب حتى تتمنى الزواج •

اتيح لي التعرف الى امرأة كاثوليكية تؤمن ايمانا ساذجا «بالحب المباغت المقدس» ففي اللحظة التي يلفظ فيها الزوجان كلمة «نعم» امام المذبح في الكنيسة يحسان بلواعج الحب في قلبيهما •

على ان كتاب القصة في القرن التاسع عشر اقل وثوقا بمزايا الطقوس ويحاولون ضمان السعادة الزوجية بطرق اكثر السائبة • وهم يواجهون بشجاعة اكثر من بلزاك امكانية الجمع بين الشهوة والحب الشرعي ، لكن بتأثير من (بول هيرفيو) سطر في القانون ان «الحب» واجب يقع على عاتق الزوجين •

ولاسباب اخرى وبطرق اخرى ، يضاعف الاميركيون ، الذين يحترمون الزواج والتربية معا ، جهودهم للتوفيق بين الحياة الجنسية والزواج • وتظهر في كل عام كتب كثيرة للتعريف بالحياة الزوجية ، هدفها ان تعلم الرجل كيف يحقق الانسجام التام مع زوجته • كما يقوم كثير من الاخصائيين في الشؤون النفسية والاطباء بدور المستشارين في الامور الزوجية» وهم يقرون بان للمرأة ايضا الحق في اللذة وان على الرجل معرفة الاصول الكفيلة بتأمينها • الا انهم رأوا ان النجاح ليس مسألة «اصول» فقط • واذا حفظ الشاب عن ظهر قلب عشرين مؤلفا مثل : «ما يجب على كل زوج معرفته» ، «سر السعادة الزوجية» ، «الحب بلا خوف» _ فليس من الاكيد انه سيعرف كيف يجتذب قلب

زوجه ، فالمرأة تستجيب لمجموع الوضع النفسي ، والزواج التقليدي بعيد عن تحقيق احسن الشروط لتنبيه وتنمية الرغبة عند المرأة .

* * *

اكتسبت البكارة قيمة اخلاقية دينية غيبية ، وهي معترف بها اليوم بصورة عامة ، ففي بعض المناطق الفرنسية ينتظر اصدقاء الزوج وراء باب غرفة الزفاف وهم يضحكون ويغنون ، الى ان يظهر عليهم الزوج ليعرض عليهم المنديل ملطخا بالدم ، او ان اهله يعرضونه صباحا على جيرانهم ، وعلى كل فان عادة «ليلة العرس» ما زالت منتشرة بشكل اقل وحشية ، وما دامت العلاقة الجنسية يبررها المجتمع فلا يمكن لعلاقة الشريكين الا ان تكون حيوانية ، حينئذ يبرز الزواج مقراه العام التجريدي : رجل وامرأة يجتمعان بحسب طقوس رمزية امام اعين الجميع ، الا ان الشخصين اللذين يجتمعان في الجو المخدعي للسرير هما شخصان حقيقيان وعميقان .

قصت الكاتبة (كوليت) انها اصيبت لما كانت في الثالثة عشرة من عمرها بارتباك مخيف حين اخذتها صديقتها لرؤية غرفة العرس ، فقد احست بتناقض كبير بين مظاهر الافراح العائلية واللغز الحيواني للسرير الكبير المحجوب .

ان الناحية الساخرة للزواج لا تظهر في الحضارات التي تبرز فردية المرأة ، ففي الغرب، في يومنا هذا، يؤخذ الرجل والمرأة على انهما فردان، والمدعون الى حفلة الزفاف يتضاحكون لان هذا الرجل بالذات وهذه المرأة بالذات سيقومان شخصيا في تجربة فردية صرفة ، بعملية مغطاة

بالطقوس والخطب والزهور • ان العروس الشابة تحس بمفاجأة كبرى حين تكتشف فردية التجربة الواقعية • والكتب النفيسة زاخرة بقصص النساء الشابات اللواتي يعدن عند والدتهن ليلة الزفاف والدموع تنهمر من اعينهن • وقد استمعت الى عدة قصص بصورة مباشرة • امثال هؤلاء الفتيات يكن عادة قد تلقين تربية عالية دون ان يطلعن على التربية الجنسية فيفاجأن امام اكتشاف الجنس •

في القرن الماضي كانت السيدة (آدام) تتصور انها مضطرة الى الزواج من رجل قبلها من فمها ، اذ كانت تعتقد ان ذلك هو الشكل الكامل للاتحاد الجنسي • وقص ستيكل منذ عهد قريب حكاية الزوجة الشابة التي خلا بها زوجها ليلة العرس فحسبته مجنونا من تصرفاته فلم تنبس بكلمة خوفا منه •

ان فتيات اليوم اكثر اطلاعا ، على ان موافقتهن تبقى لها الصفة التجريدية • ويبقى للاختلاء بهن اول مرة طابع الاغتصاب ، حتى ان (هافلوك ايليس) يقول : «ان حوادث الاغتصاب المرتكبة اثناء الزواج اكثر من الحوادث المرتكبة خارجه» • وجمع «نوجباور» في كتابه اكثر من ١٥٠ حالة اصيبت فيها النساء بجروح اثناء الجماع • واسباب ذلك القسوة ، السكر ، الوضع الخاطيء عدم تناسب الاعضاء • وفي انكلترا ، يروي (هافلوك) ان امرأة سألت ست نساء متزوجات من الطبقة المتوسطة وعلى جانب من الذكاء ، عن ردود فعلهن ليلة الزفاف فتبين ان الجماع كان صدمة بالنسبة اليهن • كانت اثنتان منهما تجهلان كل شيء جهلا تاما والاربع الباقيات كن يحسبن انهن يعرفن شيئا لكنهن مع ذلك صدمن نفسيا • وقد اكد (آدلر) على اهمية ازالة البكارة من الناحية

النفسية . ان اللحظة الاولى التي يتملك فيها الرجل كل حقوقه تقرر في اكثر الاحيان مصير الحياة كلها . فالزوج المتهيج وغير المجرب قد يزرع بذور فقدان الحساسية النسوية . وقد يؤدي استمرار قسوته وعدم مهارته الى تحويل فقد الحساسية الى تخدير دائم .

يسرد ستيكل الحالة التالية كمثال للبداية التعيسة :

نشأت السيدة هـ . ن. نشأة عفيفة جدا فكانت ترتجف بمجرد التفكير في ليلة الزفاف . وقد خلع عنها زوجها ملابسها بشيء من العنف دون ان يسمح لها بالاضجاع . ثم خلع ملابسه وطلب اليها ان تنظر اليه وهو عار .. فاخفت وجهها بيديها حينئذ صرخ فيها : لماذا لم تمكثي عند اهلك يا باردة ! ثم القاها على السرير وازال بكارتها بعنف . ومن الطبيعي انها اصيبت بالبرود الجنسي الدائم» .

لقد رأينا ، مثلا ، كل الموانع التي ينبغي للعذراء التغلب عليها لتستكمل استعدادها الجنسي . وان اطلاعها يتطلب جهدا فيزيولوجيا ونفسيا . فمن الحمق والوحشية تلخيص الاطلاع في ليلة واحدة . ومن السخف ان تحول عملية الجماع الاولى الصعبة الى واجب .. ومما يزيد في شعور الرهبة عند المرأة ان العملية الغريبة التي ينبغي ان تخضع لها هي عملية مقدسة اناطها المجتمع والدين والاسرة والمعارف بالزوج كما لو كان سيدا ! ولان هذه العملية تربط كل مستقبلها حيث ان الزواج له صفة نهائية . على ان الرجل نفسه يشعر بالقلق ايضا لان له مصاعبه الخاصة وعقده التي تجعل منه شخصا خجولا مرتبكا او بالعكس متوحشا .

ان الاقبال الشديد يرهب العذراء والاحترام الزائد يذلها • ومن النساء من يبغضن الرجل الذي يحصل على لذته بانانية على حساب آلامهن الا انهن يشعرن بالحزازة الدائمة تجاه الرجل اذا اعرض عنهن في الليلة الاولى • وتذكر (هيلين لانتس) ان بعض الازواج الخجولين يطلبون الى الطبيب ان يزيل بكارة زوجتهم بعملية جراحية بحجة انها سيئة التكوين عضويا ، وقد يؤدي عجز الزوج الى امراض نفسية عند المرأة كما يتبين من المثال التالي لفرويد :

«كان من عادة احدى المريضات ان تركض من غرفة الى غرفة اخرى تتوسطها طاولة • وكانت تهيء غطاء الطاولة بصورة ما ثم تدق مستدعية الخادمة وبعد ان تقترب هذه من الطاولة تصرفها ••• حين حاولت ان تفسر هذا الهوس تذكرت ان على هذا الغطاء بقعة وانها كانت تمده في كل مرة بصورة تظهر هذه البقعة امام الخادمة ••• كل ذلك اعادة وتكرارا الليلة الزفاف حيث ظهر قصور الزوج الذي ترك غرفته مرات عديدة ليعاود التجربة •

ولما خجل من الخادمة التي كان عليها ان تهيء السرير صب شيئا من الحبر الاحمر على غطاء السرير ليدخل في روعها انه دم» •

ان «ليلة الزفاف» تحيل العملية الجنسية الى تجربة قاسية يخاف كل من الزوجين ان لا يتغلب عليها • ان المشكلة الكبرى المطروحة على الزوج هي انه اذا داعب زوجته بتفنن زا • عند يجرحها • ويبدو ان الخوف من ذلك يشل ايضا الازواج الاميركيين خصوصا عند الذين تلقوا تعليما جامعيا ، كما جاء في تقرير (كينسي) • الا انه قد يفشل في تنبيه حساسيتها اذا «احترمها» •

ان هذا الوضع يخلقه ازدواج الموقف النسائي : فالمرأة الشابة ترغب في اللذة وترفضها في الوقت نفسه ، فاذا لم يكن الزوج ذا حظ استثنائي فانه يبدو بالضرورة اما فاجرا خليعا او ساذجا عبيطا ، فيجب الا تعترينا الدهشة اذا بدت «الواجبات الزوجية» ، في اغلب الاحيان ، عبئا مقززا بالنسبة الى المرأة .

يقول (ديدورو) :

«خضوع المرأة لرجل لا يعجبها عذاب بالنسبة اليها . رأيت امرأة فاضلة ترتجف حين يقترب زوجها منها . ورأيتها تغطس في جرن الماء ظنا منها انها لم تطهر تطهرا كافيا من دنس الواجب . نحن معاشر الرجال نجهل تقريبا هذا النوع من التقزز . ان السعادة القصوى تتخلى عنهن وهن بين احضان حبيبهن المعبود في حين نشعر باللذة مع امرأة مسايرة لا تعجبنا . النساء اقل تحكما بحواسهن من الرجال ، الا ان النشوة عندهن ليست سريعة ومضمونة كما عند الرجل» .

نساء كثيرات ، في الحقيقة ، يصبحن امهات وجدات دون ان يتعرفن على اللذة . بل ان منهن من يحاولن التخلص من «دنس الواجب» بالحصول على شهادات طبية او اية وثيقة اخرى . وبين تقرير (كينسي) ان كثيرا من الزوجات في اميركا يتذمرن من كثرة مرات الجماع ويتمنين ان يقلل ازواجهن من عددها ، وقليلات جدا النساء اللواتي يرغبن في مرات اكثر .

ولكننا رأينا ان امكانية المرأة للجماع تكاد تكون غير محدودة . هذا التناقض يبين ان الزواج يقتل الشهوة الجنسية في حين يدعي

اخضاعها لقواعد .

وصف (موریاك) في قصته «تيريز ديكيرور» ردود فعل امرأة زوجت «زواجا عقليا» ، امام الزواج بشكل عام والواجبات الزوجية بشكل خاص :

«لعلها كانت تبحث في الزواج عن ملجأ اكثر من بحثها عن التسلط والامتلاك ! الم يكن الذعر هو الذي دفع بها اليه ؟ لما كانت امرأة عملية فانها كانت تستعجل الحصول على وضع نهائي . كانت تريد ان تضمن نفسها ضد خطر وهمي . ولم تبد قط عاقلة مثلما كانت عليه اثناء الخطوبة ، وكانت منسجمة تمام الانسجام ضمن اطار النظام العائلي . واحست انها ضمنت لنفسها النجاة ، الا انها احست بنفسها مضيعة يوم الزفاف الخانق في كنيسة سان كلير الضيقة . لقد دخلت القفص شبه نائمة ولما سمعت ضجة الباب يغلق من خلفها عادت فجأة الى رشدها »

بعد ليلة الزفاف فكرت في نفسها قائلة : «كانت ليلة فظيعة» ثم اضافت «لا لم تكن فظيعة تماما» . وخلال رحلتها الى البحيرات الايطالية عرفت كيف تكيف جسمها مع هذه التظاهرات فكانت تشعر باللذة . هذا العالم المجهول ، عالم الاحاسيس الذي يدفعها رجل الى دخوله . كانت مخيلتها تساعدها على التصور بانها هي ايضا تستطيع الحصول على السعادة . لكن اي سعادة ؟ انها تشبه تخيلنا للشمس ونحن تنظر الى المطر المنهمر ، هكذا كانت تكتشف تيريز اللذة» .

وهذه شهادة اخرى اوضح من الاولى . انه اعتراف جمعه (ستيكل) من امرأة في الثامنة والعشرين ، نشأت في وسط مثقف .

«كنت سعيدة بخطوبتي اذ شعرت اخيرا انني في ملجأ وصرت شخصا يستدعي الاهتمام • كنت فتاة مدللة وكان خطيبي يحيطني بحبه. كل هذه الاشياء كانت جديدة بالنسبة الي • وقد اشعلت القبلات في النار • وفي صبيحة يوم الزفاف كنت في درجة من الهيجان جعلت قميصي يتبلل بالعرق • كنت افكر في انني اخيرا سأتعرف على المجهول • كانت لدي فكرة صبيانية هي ان على الرجل ان يبول في فرج المرأة ... وشعرت في غرفتنا بالصدمة لما سألني زوجي فيما اذا كان عليه ان يبتعد • وقد طلبت اليه ذلك لانني كنت اشعر حقا بالخجل لان مشهد التعري لعب دورا في مخيلتي • ثم عاد زوجي بادي الارتباك بعدما صرت في السرير • وقد اعترف لي فيما بعد انه ارتاع لمنظري : كنت اجسد الشباب المرح الممتلىء بالترقب •

ولم يكد يخلع ثيابه حتى اطفأ النور ، وان هي الا قبلة حتى حاول ان يمتلكني رأسا • كنت اشعر برهبة شديدة فطلبت اليه ان يتركني ساكنة • كنت اتمنى ان اكون بعيدة عنه ، لانني انزعجت من هذه المحاولة التي لم تسبقها مداعبات تمهيدية • لم يكن في تصرفه قسوة بل قلة في اللباقة والحساسية • كل محاولاته خلال الليل كانت بلا نتيجة فأخذت اشعر بالتعاسة • كنت خجلة من حماقتي طالما انني مخطئة او غير صحيحة التكوين •• واخيرا اكتفيت بقبلاته •

بعد عشرة ايام تمكن من ازالة بكارتي ، الا ان الجماع لم يدم سوى بضع ثوان ولم اشعر بشيء ما عدا الم بسيط • كانت المسألة بالنسبة الي خيبة ظن كبرى •

بعدئذ اخذت احس بقليل من البهجة اثناء الجماع ، الا ان النجاح

كان شاقا وكان زوجي يجد صعوبة في تحقيق هدفه • وفي مدينة «براغ» شعرت باللذة الكاملة مرة وانا اتخيل شخصا آخر وتكرر ذلك عدة مرات • الا انني في النهاية لم اعد احس بالاكتفاء لان المدة كانت قصيرة جدا • وبعد ولادتين لم اعد ابلغ النشوة الا نادرا اما زوجي فكان يبلغها دائما • فاخذت اتتبع العملية بالقلق وكنت احس تجاهه بالبغض اذا ما تركني بعد اكتفائه ...•

ان الخطوبة من شأنها ان تتيح للفتاة التعرف التدريجي ، لكن العادات غالبا ما تفرض على الخطيب عفة بالغة •

ان مصاعب التجارب الاولى يمكن التغلب عليها بسهولة اذا اتزع الحب او الرغبة من الشريكين موافقة تامة • والحب الجسي يأخذ قوته وكرامته من الفرح المتبادل بين المحبين وهم يشعرون بحريتهم ، ولا تعود العملية مفروضة بل منتقاة • الا ان مبدأ الزواج يجرح العفة لانه يحيل الى حقوق وواجبات تبادلا ينبغي ان يؤسس على انتفاضة عفوية ، انه يعطي الاجسام صفة آلية ، اذ يفرض ان تتعارف بشكل عام • ومن الطبيعي ان الزوجين قد يتجاذبان جسيا منذ اول ليلة • والزواج يسهل استسلام المرأة بازاحة فكرة الخطيئة المرتبطة بالجسد • وان التعايش المنتظم يؤدي الى الفة جسية تساعد على النضج الجنسي • الا ان ذلك لا يمنع ان المرأة تغامر مغامرة كبرى بتعهدها ان تتم كل حياتها مع رجل لا تعرفه جنسيا في حين ان مصيرها الجنسي معلق تعلقا جوهريا بشخصية شريكها •

من المرأة الادعاء بان الاتحاد القائم بحسب الاصول له حظ كبير في ان يحدث الحب • ومن السخف ان نطلب من زوجين مرتبطين بمصالح

اجتماعية واخلاقية ان يذوقا اللذة على بعضهما طول الحياة . الا ان انصار الزواج العقلي عبثا يحاولون ان يثبتوا ان زواج الحب ليس له حظ كبير في تأمين سعادة الزوجين . ان الحب المثالي الذي هو الحب الذي تعرفه الفتاة غالبا ، لا يجعلها دائما مستعدة للحب الجنسي . واذا كان بينها وبين خطيبها تجاذب جنسي صحيح وشديد فلا يشكل ذلك اساسا متينا لبناء مشروع حياة .

كتبت كوليت : «تحتل اللذة في صحراء الحب اللامتناهية زاوية صغيرة ملتهبة . وهي من التأجج بحيث لا يرى المرء سواها في البداية . اما حول هذه النقطة فيمكن المجهول والخطر .

وحينما يصحو الزوجان من العناق او حتى من ليلة طويلة ينبغي لهما التفكير في العيش الواحد بجانب الآخر . الواحد من اجل الآخر .

وحتى في حالة اقتراض ممارسة الحب الجسدي قبل الزواج او تنبهه في بداية ليلة الزفاف ، فمن النادر جدا ان يدوم اعواما طويلة .

ثم ان الواحد ينظر الى الآخر كوسيلة لارواء الحاجات وان كانت الحشمة الزوجية تخفي هذا الامر . وقد لاحظ الدكتور (لاغاش) ان المرأة قد تنظر الى عضو الذكر كمؤونة لذة خاصة بها وتحرص على مراقبتها .

ان الارواء الوحشي للحاجة لا يكفـي لارواء الغريزة الجنسية الانسانية . لذلك يختفي وراء الصفات والقبلات الشرعية شيء من الفجور . بل كثيرا ما تستعين المرأة بتصورات مهيجة .

يروي ستيكل قصة امرأة تشعر باللذة مع زوجها اذا تخيلت رجلا

اقوى منه بنية واكبر سنا يأخذها ، دون ان تطلب اليه ذلك ، بصورة لا تستطيع الدفاع عن نفسها ، وتتصور انها ضحية لاعتداء ، وانها تتعرض للضرب وان زوجها شخص آخر .

وتراود الزوج احلام مماثلة فيتصور في صدر امرأته صدر احدى الراقصات وكل جزء من جسمها يعيده الى صورة او ذكرى ...

يقول ستيكل :

«لا يخلق الزواج بين الشريكين انحرافات وتمثيليات تهدد بقطع كل فاصل بين الحقيقة والخيال» وفي نهاية الامر ينشأ عند الرجل والمرأة فجور واضح يأخذ احيانا في الزواج شكلا منظما جديا . والحقيقة ان الحب الجسدي لا يمكن اعتباره لا كغاية ولا مجرد وسيلة .

* * *

لا تعد البورجوازية الفتاة بالحب بل تلوح لها بالسعادة على انها الهدف الامثل . وفي بعض فترات البحبوحة والامن كان هذا المثل الاعلى عاما عند البورجوازية وخاصة الملاكين العقاريين . ولم يكن ليستهدف التطلع الى المستقبل بل المحافظة على الماضي . والحياة المفضلة هي الحياة العادية التي ليس فيها طموح او هوى ، وايام تتوالى دون هدف وتتكرر دائما على نفس الوتيرة ، حياة تسير الى الموت سيرا هادئا دون ان تبحث لنفسها عن اسباب ومبررات .

لقد فقدت هذه الحكمة المزورة المستوحاة من زينون اهميتها في هذا اليوم . فابقاء العالم على ما هو عليه امر غير ممكن وغير مرغوب فيه .

والرجل خلق للعمل وينبغي له ان يناضل وينتج ويبدع ويسمو بنفسه نحو كلية الوجود ولا نهائية المستقبل ٠ بيد ان الزواج التقليدي لا يتيح للمرأة فرصة الانطلاق مع الرجل بل يتركها في حالة الجمود ، فلا يبقى امامها حينئذ الا تبني حياة متوازنة حاضرها يمدد الماضي ويتحرر من تهديد المستقبل ٠

واذا لم تكن محبة لزوجها فانها تحس بالحنان والاحترام المسمى بالحب الزوجي ٠ فتنقطع عن العالم لتخلد النوع البشري بين جدران المنزل الذي تسهر على ادارته ٠ على انه ما من كائن بشري يتخلى نهائيا عن الارتقاء والسمو مهما كان مصرا على افكاره ٠ فالبرجوازي كان يعتقد انه اذا حافظ على النظام القائم وابرز فضائله بنجاحه وبحبوحته فانه الاله والوطن والحضارة ٠ وحياة المرأة المنزلية تسمو نحو غايات ، والرجل هو الذي يلعب دور الوسيط بين فرديتها والعالم ٠ وليس عليها اذن الا ان تضع كيانها بين يديه ليعطيه هو المغزى ٠

المرأة ملكة في الدار ، ناعمة بالهدوء والاستقرار ، اما الزوج فهو الذي يتكفل بحملها خلال العالم والزمان اللامتناهي ٠ المرأة زوجة وام وسيدة بيت تجد في الزواج القوة على العيش ومغزى للحياة ٠

انما ينبغي لنا ان نرى كيف يتحقق هذا المثل الاعلى في الواقع :

كان المثل الاعلى للسعادة ممثلا دائما في المنزل قصرا كان ام كوخا ٠ بين جدرانه تتشكل الاسرة كخلية منعزلة تؤكد هويتها عبر الاجيال المتلقية ٠ اما الماضي فيتخذ شكل اثاث ورسوم للجدود ليجسد سلفا مستقبلا غير محفوف بالاخطار ٠ وتتطلع الى الحديقة لترى تقلب الفصول

الرتيب فلا الزمان ولا المكان يطلان على اللانهاية بل يدوران في حلقة مفرغة •

وفي كل حضارة تستند الى الملكية العقارية نرى آدابا تتغنى بفضائل المنزل • فقصة (هاري بوردو) «البيت» تلخص كل القيم البورجوازية : الاخلاص للماضي ، الصبر ، التوفير ، حب الاسرة ومسقط الرأس •

اما اليوم فقد فقد المنزل البهجة السالفة ولم يعد بالنسبة الى كثير من الرجال سوى مسكن لا يكتظ بالذكريات السالفة ولا يقيد العصور المقبلة • على ان المرأة لا تزال تبذل جهدها لتضفي على منزلها المغزى والمعنى اللذين كانا للبيوت الحقيقية •

هذه العناية خاصة بالنساء • فالرجل الطبيعي لا ينظر الى الاشياء المحيطة به الا على انها ادوات ووسائل فيضعها بحسب ما خصصت له • ان تنظيمه ـ الذي لا ترى فيه المرأة الا نوعا من الفوضى ـ هو ان تكون سجايره واوراقه وادواته تحت متناول يده •

ونرى نفس الشيء عند الفنانين خاصة • فالنحاتون والرسامون الذين يقع على عاتقهم عبء اعادة تنظيم العالم لا يبالون بالاطار الذي يعيشون فيه •

كتب (ريلكه) عن (رودان) :

«لما زرت رودان اول مرة فهمت ان المنزل لم يكن بالنسبة اليه سوى ضرورة بسيطة : انه ملجأ ضد البرد وسقف ينام تحته • كان يشعر [illegible] وحـ [illegible] تكافه • اما بيته الحقيقي فكان ضمن ذاته» •

ان من ينبغي ان يجد مأواه ضمن ذاته ينبغي ان يكون صاحب مؤلفات واعمال • والرجل لا يهتم الا قليلا بداخل المنزل لان الطريق الى العالم كله مفتوح امامه وبامكانه ان يؤكد ذاته من خلال اهدافه ومشاريعه •

اما موقف المرأة تجاه المنزل فيعينه نفس المنطق الذي يعين موقفها بصورة عامة : انها تحيل نفسها الى فريسة وتتحرر عن طريق التنازل •

لا توصد المرأة باب المنزل دونها وهي غير آسفة • كانت الارض موطنها والغابات ملكا لها لما كانت فتاة • اما الآن فهي محجوزة ضمن اطار ضيق الجدران • استحالت الى مكان صغير مغلق بالنسبة اليها والجدران تسد الافق امامها •

فلنستمع الى احدى بطلات (وولف) :

«لم اعد اميز الشتاء من الصيف الا من البخار المتجمع على الزجاج• مع اني كنت فيما مضى اسرح في الغابات واصادف في طريقي الاقاقين والرعيان» •

لذلك تعمل المرأة على انكار هذه الحدود المقيدة • فتستعيض بالرسوم عن الطبيعة ، وبزوجها عن الجماعة البشرية • اما طفلها فيصور المستقبل تصويرا عمليا • هكذا يستحيل البيت الى مركز للعالم بل يصبح حقيقته الوحيدة • فالبيت ، مهما كان شكله يحميها من تهديد العالم الخارجي المبهم الذي يكاد يفقد واقعيته • وحين يحل المساء وتغلق نوافذ بيتها تحس بنفسها انها ملكة • انها تنزعج من ومض النور في النهار وتنكر كل ما لا تملك في الليل •

تجد المرأة في زينة البيت تعبيرا عن شخصيتها • فالبيت قسمتها المخصصة لها في هذا العالم ، وهو ايضا تعبير عن قيمتها الاجتماعية وحقيقتها الصميمية • وانها تتأكد من استحواذها على بيتها عن طريق العمل المنزلي • فتراها تصدر تعليماتها الى الخدم آمرة ناهية كيما تنسب الى نفسها ما ينجزه الخدم • ومن مهامها ايضا السهر على الغذاء واللباس والعناية بمجتمع الاسرة بصورة عامة • هكذا تحقق المرأة ذاتها كنشاط ، لكنه نشاط لا ينتشلها من جمودها ولا يسمح لها بتأكيد فرديتها •

هناك اشعار كثيرة تتغنى بالاعمال المنزلية • من الصحيح ان المرأة تقف ، نتيجة لهذا الاعمال ، وجها لوجه مع المادة وانها تحقق مع الاشياء نوعا من الالفة التي تغني ذاتها • تصف (مادلين بوردوكس) ما تشعر به البطلة من لذة وهي تنظف فرنها في قصة : «البحث عن ماري» بقولها : انها تحس بالحرية والقدرة في نهاية اصابعها •• وتحدثت كاتبات عديدات بشغف عن الغسيل المكوي وبريق ماء الصابون والشراشف البيض والنحاس البراق • وبعد ما تنتهي ربة المنزل من عملها تشعر بفرحة التأمل • ومن الضروري ان تكرس المرأة عنايتها بمنزل تزهو به كيما تحس انها تغني نفسها اغناء ايجابيا والا فانها لا تتعرف مطلقا على لذة التأمل الذي يكافىء جهودها •

وصف احد الاميركيين ، بعد ما قضى عدة شهور مع البيض الفقراء في جنوبي الولايات المتحدة ، مصير احدى النساء المرهقات بالعمل والتي تعمل عبثا على جعل مسكنها الحقير صالحا للسكن • كانت تعيش مع زوجها واولادها السبعة في كوخ خشبي مغشى بالشحوار وزاخر ببق الفراش • حاولت دون جدوى ان تجعل بيتها جميلا ولكن بقى لها نقص

الكوخ الحقير • فقالت والدموع تهمر من عينيها • «لشد ما ابغض هذا البيت ، يبدو ان لا شيء في العالم يجعله جميلا» •

لقد كتب على كثير من النساء في العالم التعب الدائم المتكرر في معركة لا تؤدي الى انتصار • ان نفس المرأة تذوب وهي تمشي في مكانها • انها لا تعمل سوى الابقاء على الحاضر ولا تشعر انها تعمل خيرا ايجابيا بل تحس انها تكافح الشر دائما • وهذه المعركة تتكرر كل يوم •

ان قصة الخادم الذي رفض تلميع حذاء سيده معروفة • اذ قال لنفسه : لماذا اعذب نفسي ••• ما دمت سأعاود العمل نفسه في الغد • وثمة فتيات كثيرات من اللواتي لم يرضخن لمصيرهن يشعرن بنفس اليأس • وهذا يذكر بموضوع كتبته تلميذة في السادسة عشرة استهلته بما يلي :

«اليوم مخصص للتنظيف والتعزيل • ان صوت المكنسة الكهربائية يصل مسامعي ، ان نفسي تدفعني الى الهرب ، ان يكون في بيتي حينما اصبح امرأة كبيرة ، يوم للتنظيف والتعزيل» •

يواجه الطفل المستقبل كارتقاء دائم نحو قمة مجهولة • وحينما ترى الطفلة امها وهي تغسل الصحون في المطبخ تهم بغتة ان يدي امها تغطس في ماء الغسيل كل يوم وفي نفس الساعة • وستبقى خاضعة لنفس الطقوس حتى الموت •

لا شيء سوى الاكل والنوم والتنظيف • السنوات لا تسير صعدا الى السماء بل تمتد رتيبة على صفحة افقية منبسطة • كل يوم يقتدي بسابقه • انه حاضر ابدي عقيم لا امل منه ولا رجاء

وصفت (كوليت اودري) وصفاً ماهراً عقم النشاط الذي لا يستطيع شيئاً امام الزمن :

«في اليوم التالي ، عثرت على شيء وهي تكنس تحت المقعد الكبير فحسبته اول الامر قطعة قطن او وبرة ضخمة . ولكن لم يكن سوى كرة من الغبار ، من النوع الذي يتجمع فوق الخزن المهملة او خلف قطع الاثاث بين الخشب والحائط . وبقيت ساهمة امام هذه المادة الغريبة . هكذا انقضت ثمانية او عشرة اسابيع وهي تعيش في هذا الدار . ورغم عناية جوليت ، اتيح لكرة من الغبار ان تتشكل وتتضخم وهي قابعة في الظلام . هذه الذرة الصغيرة من الغبار تنبىء عن الاهمال ، عن بداية التخلي . على ان هذه الكرة كانت تمثل وضعاً ثانياً ، للغبار المنتصر .

حياتهما المشتركة هي السبب في كل شيء . انهما مثل غيرهما من الازواج ، يفرزان الاقذار التي يجب التخلص منها ليفسح المجال امام غيرها . يا لها من حياة !.. كل ذلك في سبيل ان يظهر زوجها المهندس حسن الهندام .

كانت ثمة عبارات تتوارد في رأس مرغريت : «اسهري على العناية بارض الغرف» او «لصيانة النحاس استعملوا ...» اما هي فكانت مكلفة بالعناية بائنين من الكائنات حتى نهاية العمر» .

الانجاب ، الكي ، التكنيس ... هذا يعني ايقاف الموت وايضاً الحرمان من الحياة . فالزمن في حركة واحدة يخلق ويهدم اما ربة البيت فلا تتلقى الا الناحية السلبية . ان موقفها شبيه بموقف المانوي الذي يؤمن بوجود مبدأين : مبدأ الخير ومبدأ الشر . مع العلم ان الخير يبلغ

بالقضاء على الشر وليس بعمل ايجابي . اما المسيحية فليست كالمانوية رغم وجود الشيطان ، لان الانسان اذ ينذر نفسه للرب يحارب الشيطان باحسن طريقة .

ان كل مذهب يقول بالتجاوز والحرية يربط قهر الشر بالتقدم نحو الخير . الا ان المرأة غير مدعوة الى بناء عالم افضل . فالبيت والغرفة والثياب الوسخة كلها اشياء جامدة . وليس باستطاعة المرأة الا ان تطرد طردا دائما مبادىء الشر التي تنزلق الى هذه الاشياء . فتهاجم البقع والغبار والطين وتحارب الخطيئة وتناضل ضد الشيطان . ومن المحزن ان تلتفت المرأة التفاتا دائما الى محاربة عدو بدل ان تتجه نحو اهداف ايجابية . وقد تصل حد الهوس فتقيد حريتها برغبة ما لا تريد فتحمل على الغبار بغضب . ولا يكاد احدهم يدخل ميدانها حتى تبرق عيناها : «امسح رجليك ، لا تلمس هذا» . حتى انها قد تفقد كل بهجة في الحياة وتصبح قاسية العينين ويبدو وجهها منهمكا كل الانهماك ، دائم التأهب . وتذود عن نفسها بالحيطة والبخل فتغلق النوافذ لان الحشرات والغبار تدخل مع الشمس ، ثم ان الشمس تأكل وبر السجاد ... ان بغضهن الاوساخ لا ينفصل عن بغضهن الخدام وكل البشر واشخاصهن بالذات .

وعلى كل حال ، ليس هناك سوى نساء قليلات يخترن منذ شبابهن مثل هذه الاخلاق المكفهرة ، لان النساء اللواتي يحببن الحياة لا يعرفن ذلك . تقول كوليت :

«كانت نظيفة متقززة لكنها كانت بعيدة عن الهوس الذي يدفع الى عد المناشف وقطع السكر والزجاجات الممتلئة» .

ان الباردات والمصدومات من النساء يصبحن حقودات عصبيات المزاج . وقد تعرفت الى سيدة عجوز من عادتها ان تستيقظ كل صباح في الساعة الخامسة لتفتش خزائنها وتعيد ترتيبها . يبدو انها كانت امرأة مرحة في شبابها . الا انها مالت نحو الترتيب كما يقبل البعض على الشرب نظرا الى انفرادها في مكان معزول مع زوج مهمل وولد وحيد .

اما (ليزا) التي يتحدث عنها (جوهاندو) فينجم ميلها الى العمل المنزلي من رغبتها الجامحة في بسط سيطرتها على عالم ما ، ومن ارادة للتسلط تدور في الفراغ لعدم وجود مجال لها ، انه نوع من التحدي للزمان والعالم والحياة والرجال والكائنات كلها .

«ماذا تفعل ليزا منذ نهوضها حتى نومها ؟ انها تزحزح كل غرض وكل اثاث وتلمس كل زاوية من ارض الغرف وجدرانها وسقوفها . تقول عنها امها انها منهمكة جدا حتى انها لا تشعر بوجود شخصها» .

يتيح العمل المنزلي في الواقع للمرأة فرصة الهروب الدائم والابتعاد عن ذاتها . او كما يقول (شاردون) : «انها تبلغ حالة من الفراغ الذهني تقضي عليها» .

لهذه القسوة تلاحق المرأة بها الاشياء وتمسها طابع جنسي غالبا . ومن الواضح ان حس النظافة يأخذ اهمية بالغة في هولندة لان نساءها يتصفن بالبرود . وللحضارات المتمسكة عادة بالطهر والتي تحارب لذائذ الجسد مثل اعلى يقوم على النظام والطهارة . ولا تعيش بلاد جنوبي اوروبا في جو من القذارة المرحة بسبب قلة المياه ، ان حب الجسد وحيوانيته يقود الى تحمل رائحة البشر والقذارة .

ان اعداد الطعام عمل اكثر ايجابية ومرحا من التنظيف . فهو يتطلب اولا الخروج الى السوق . وهذه هي الفترة المنفلتة في الحياة اليومية بالنسبة الى كثير من ربات البيوت . لان الوحدة ثقيلة على المرأة وخاصة ان الاعمال المألوفة لا تشغل بالها . فهي تشعر بالسعادة ، في المدن الجنوبية ، لانها تستطيع ان تخيط وتغسل وتحضر الخضار على عتبة الباب وهي تثرثر .

رأيت قرية صغيرة واقعة في منطقة القبائل في الجزائر ، حطمت فيها النساء عين الماء التي بنيت في الساحة . لان النزول كل صباح الى النبع المنساب في سفح التل كان التسلية الوحيدة بالنسبة اليهن .

والنساء حين يتسوقن البضائع يتبادلن عبارات يؤكدن بواسطتها «قيما منزلية» حيث تجد كل واحدة منهن معنى لاهميتها . ويشعرن انهن اعضاء مجتمع يجابه مجتمع الرجال . والشراء خاصة يشكل لذة عميقة ، انه يكاد يعادل الاختراع . فبين البائع والمشترية تتكون علاقات صراع وتحايل . والمشترية تحاول ان تحصل على احسن بضاعة بارخص سعر . ان الاهمية القصوى التي تضفي على توفير بسيط جدا لا يمكن تفسيرها بالحرص على توازن الميزانية ، بل ان هدف المرأة هو ان تخرج رابحة . فحينما تتفحص البضاعة المعروضة تصبح ملكة ، العالم تحت قدميها بثرواته ومصايده كيما يأخذ فريستها . وهي تحس بظفر عابر حينما تفرغ على طاولتها كيس المؤن . وعلى الرف تصف العلب المحفوظة كفمان ضد المستقبل وتتأمل بانشراح الخضار واللحم التي ستخضعها لسلطانها .

لقد قضى الغاز والكهرباء على سحر النار ، الا ان النساء في الارياف

ما زلن يعرفن بهجة الحصول على اللهب الحي من الخشب الجاف • ولا تكاد النار تشتعل حتى تصبح المرأة ساحرة • وبحركة بسيطة من يدها او بسحر النار تجري تحولا على المواد وتصبح المادة غذاء •

تصف (كوليت) هذه العمليات السينمائية بقولها :

«ان جوا من السحر والالغاز يجري بين لحظة وضع القدر وما فيها على النار ولحظة رؤية الاناء على الطاولة والدخان يتصاعد منه» •

وقد تغنت الكاتبات بشكل خاص بصنع المربيات : انه لمشروع ضخم ان يمزج الانسان السكر الجاف الصافي بالفواكه • ان المادة المزبدة المحرقة التي تتولد تدريجيا مخطرة • وان ربة المنزل تسيطر على هذه المادة الشبيهة بحمم البراكين ثم تصبها في النهاية في الآنية وهي مزهوة • ويمكن للمرأة ان تشعر بارتياح خاص حين تنجح في اعداد الفطائر لان الجميع لا يحسنون ذلك بل يجب ان يكون هناك موهبة • كتب (ميشيليه) قائلا «لا شيء اصعب من فن المعجنات» •

ونرى في هذا الميدان ايضا ، ان الفتاة الصغيرة تتسلى في اقتداء من هن اكبر منها• انها تحس بسعادة بالغة حين تحصل على فرن صغير حقيقي كلعبة وحينما تقبلها امها في المطبخ وتسمح لها برق العجين •

الا ان الوضع هنا مثل الوضع في العناية بالمنزل ، فالتكرار سرعان ما يستنزف اللذة • فعند الهنود الذين يتغذون خاصة بنوع من المعجنات تمضي النساء نصف يومهن وهن يعجن ويقلين ويعجن من جديد ، كل يوم تحت سقف ، بنفس الطريقة خلال العصور : انهن لا يشعرن ابدا بسحر الفرن • ولا يمكن ان تحول كل يوم عملية الشراء الى عملية بحث عن

كز او الشعور بالنشوة امام لمعان الحنفية • ان الرجال والكاتبات خاصة هـم الذين يتغنون بصورة شعرية بهذه الانتصارات لانهم لا يقومون بالاعمال المنزلية او انهم يقومون بها نادرا • ان هذا العمل اليومي يصبح رتيبا وآليا ، لان فترات الانتظار تتخلله : يجب انتظار الماء حتى تغلي وانتظار الغسيل حتى يصبح نظيفا • ولو عملت المرأة على تنظيم عدة مهام ما لبقي لها لحظات طويلة من السلبية والفراغ • هذه اللحظات تفسح المجال امام الضجر ، ولا تشكل سوى وسيط غير جوهري بين الحياة الآنية وحياة الغد • فاذا كان الشخص الذي يقوم بها منتجا مبدعا اندمجت في تاريخ وجوده اندماجا طبيعيا مثل الوظائف العضوية • لذلك تبدو السخرات اليومية اقل كآبة حين يقوم بها الرجال لانها لا تمثل بالنسبة اليهم سوى لحظات سلبية عابرة يتعجلون الخلاص منها •

ان ما يجعل مصير المرأة — الخادمة جافا هو تقسيم العمل الذي يكرسها تكريسا تاما لما هو عام وتافه • فالسكن والغذاء اشياء مفيدة في الحياة الا انها لا تجعل الحياة ذات مغزى • والاهداف المباشرة لربة المنزل هي وسائل مادية وليست غايات حقيقية • فليس عجيبا ان تحشر المرأة فرديتها كيما تستسيغ عملها ، لذلك تتبنى لنفسها طقوسا وتطيرات خاصة ، وتتمسك بطريقتها في اعداد المائدة وترتيب البهو وطبخ اكلة ما ، كما تقنع نفسها ان ما من امرأة سواها تستطيع اعداد الشواء مثلها • اما اذا حاول زوجها او ابنتها مد يد المساعدة اليها ، فانها تسحب منهما المكنسة او الابرة قائلة لا يستطيع احدكم خياطة زر •

ان المرأة تبدد كثيرا من الزمن وتهدر كثيرا من الجهد في محاولتها

البحث عن الاصالة والكمال الفردي . لذلك يصعب تقدير عبء الاعمال المنزلية تقديرا دقيقا . وبحسب تحقيق نشرته جريدة (كومبا) عام ١٩٤٧، يبدو ان النساء المتزوجات يخصصن ثلاث ساعات و٤٥ دقيقة تقريبا للعمل المنزلي وملحقاته في ايام العمل، اما في ايام العطل فيخصصن ثماني ساعات . فيبلغ المجموع ثلاثين ساعة في الاسبوع اي ما يعادل ثلاثة ارباع مدة العمل الاسبوعي للموظفة او العاملة . هذا كثير لا سيما اذا كان للمرأة عمل آخر، وقليل اذا كان عملها الوحيد .

والعناية بالاطفال، اذا كانوا عديدين، تزيد كثيرا من متاعب المرأة . والام الفقيرة تستنفد قواها في اعمال غير منظمة . اما البورجوازية التي تعتمد على المساعدة فتكاد تكون عاطلة تماما، مما يدفعها الى الضجر . ونتيجة لذلك: تعقد نساء كثيرات واجباتهن ويضاعفنها الى ما لا نهاية بصورة تصبح معها هذه الواجبات اكثر من العمل الاختصاصي .

واكثر ما يحزن في الامر ان هذا العمل لا يؤدي الى شيء دائم . فالمرأة تميل الى اعتبار عملها كافيا في حد ذاته . لذلك تتأمل الفطائر الخارجة من الفرن وتصدر الآهات: من المؤسف اكل هذه الفطائر . ومن المؤسف ايضا ان الزوج والاطفال سيوسخون الغرفة باقدامهم .. ان الاشياء، اذا ما استعملت، تتوسخ او تتحطم . لذلك تراودها نفسها كيما تحول دون اي استعمال .

هذه تحفظ المربيات حتى يحل بها العفن، وتلك تقفل باب البهو بالمفتاح . لكن من المستحيل ايقاف عجلة الزمن فالمؤن تجتذب الفئران، كما ان الديدان تتوضع فيها . ليس العالم حلما متحجرا جامدا بل هو مادة معرضة للتحلل . ان ربة المنزل التي تخلع ذاتها على الاشياء معلقة

مثل الاشياء بالعالم كله . الشواء يحترق والزجاج ينكسر ، وهذه مصائب مطلقة لان الشيء الذي ينكسر يضيع الى الابد . لذلك لا يمكن الوصول من خلالها الى الديمومة والاستقرار .

على نتاج العمل المنزلي ان يندثر بالاستعمال . ويطلب من المرأة ان تتنازل دائما عن اعمالها التي لا تنتهي الا بالضياع والخراب . وكيما تضحي بها غير آسفة ، ينبغي لها ان تحس بومضة الفرح امام هذه التضحيات الصغيرة . ولما كانت نتيجة العمل المنزلي تثبيت الوضع القائم فان الزوج يلاحظ حين عودته الفوضى والاهمال ، بينما يبدو له النظام والنظافة اشياء طبيعية . وهو يهتم بصورة اكثر ايجابية بالطعام المعد اعدادا حسنا . ولحظة انتصار الطباخة هي حين تضع على الطاولة طبقا ناجحا فيتقبله الزوج والاولاد بحرارة ، لا بالكلمات فقط بل بالاقبال عليه والتهامه بفرح ايضا . ان عمل الطباخة لا يجد حقيقته الا في فم المدعوين . هذه الحقيقة تتطلب منهم ان يذوقوا الاطباق ويعربوا عن رأيهم . ولئن كانت الزوجة تريد اسعاد زوجها فانها اميل الى الموافقة على النشاطات التي تدخل في نطاق ما تبنيه هي نفسها من سعادة .

انقضت العصور التي كانت تتميز بشمول هذه الرغبات . فقد كانت السعادة المثل الاعلى للرجل وبجدها قبل كل شيء في ارتباطه ببيته واسرته . اما الاولاد فكانوا يرضون بالتكيف تبعا لاهلهم وتقاليدهم وماضيهم . وكانت المرأة سيدة البيت ورئيسة الطاولة مثل الملكة . وهي لا تزال تلعب هذا الدور في اوساط بعض الملاكين العقاريين ، وبعض الفلاحين الموسرين الذين يمددون الحضارة الابوية بصورة متقطعة .

على ان الزواج اليوم هو في الغالب من بقايا العادات ، ووضع

الزوجة اصعب مما كان عليه من قبل • اذ لا تزال تحمل نفس الواجبات دون ان يكون لها نفس الحقوق • كما لا تزال تقوم بنفس الاعباء دون ان تحصل على مكافأة وشرف نتيجة للنهوض بها • والرجل يتزوج اليوم لانه يريد ان يكون له بيت لكنه يحافظ على حريته في الهروب منه • انه يستقر ولكنه يبقى افاقا في قرارة نفسه • كما انه لا يحتقر السعادة ولكنه لا يجعلها غاية بذاتها • ويولد التكرار الملل في نفسه ، فينشد التجديد والمخاطر ويبحث عن الصداقات التي تنتشله من العيش مع شخص واحد •

اما الاولاد فيتسنون اكثر من الزوج تجاوز حدود المنزل • وحياتهم تكمن في مكان آخر ••• امامهم • والمرأة تحاول ان تشكل عالما من الديمومة والاستمرار على حين يريد الزوج والاطفال مجاوزة الوضع الذي تعلقه ، هذا الوضع الذي لا يشكل بالنسبة اليهم سوى احد المعطيات ، لذلك قد تتجه المرأة الى فرض خدماتها بالقوة •

ان العمل الذي تقوم به المرأة في الداخل يمنحها الاستقلال الذاتي لكنه لا يفيد المجتمع مباشرة ولا يطل على المستقبل ولا ينتج شيئا • وهو لا يأخذ مكانته الا اذا الحق بكيانات تسمو نحو المجتمع بالانتاج والعمل • انه لا يحررها بل يجعلها معلقة بالزوج والاطفال • وهي لا تشكل في حياتهم سوى وسيط غير جوهري لان وضعها يستند الى تكوين الرابطة الزوجية نفسها •

لا يسمح للمرأة ان تقوم بعمل ايجابي وان تفرض بالتالي نفسها كشخص كامل • ومهما كانت محترمة فانها تبقى تابعة ، ثانوية ، طفيلية • وان اللعنة الكبرى المحيقة بها تكمن في انها لا تمسك بمغزى وجودها بيدها • لذلك يعتبر النجاح او الفشل في الحياة الزوجية بالنسبة اليها

اخطر ، فالرجل مواطن منتج قبل ان يكون زوجا ، اما هي فانها زوجة قبل كل شيء ، او زوجة فقط ، وان عملها لا ينتشلها من وضعها لان هذا العمل يستمد هو نفسه قيمته من وضعها .

ينبغي لنا اذن ان نرى كيف تعيش في الواقع هذا الوضع الذي يتحدد بصورة جوهرية بخدمة السرير وخدمة الاعمال المنزلية ، وحيث لا تجد مكانتها الا اذا رضيت بالتبعية .

تنتقل الفتاة من حال الى آخر يجعلها في ازمة . وينضم القلق المرتبط بالانتقال الى الاضطراب الذي يحدثه الاطلاع الجنسي المفاجىء.

ان ارتباطات الفتاة بمنزل والدها اوثق من ارتباطات الشاب . وتتفاوت الانقطاع في حدة الالم بحسب الحالات . فاذا تمكنت من تحطيم الاواصر التي تربطها بوالدها واخوتها وبامها خاصة ، فانها تغادرهم دون مأساة . اما اذا بقيت خاضعة لهم فيمكن لها ان تبقى تحت سيطرتهم بصورة عملية ، ولا يكون تغير وضعها ملحوظا جدا .

ولئن كانت تتمنى الخلاص من بيت ابيها فانها تحس عادة بصدمة حينما تنفصل عن المجتمع الصغير الذي كانت مرتبطة به ، وحينما تنقطع عن ماضيها وعالم طفولتها ذي المبادىء الاكيدة والقيم المضمونة ، ذلك ان لم تتهمك في الحياة الجنسية . على ان الاطلاع الجنسي ، سواء نجح او لم ينجح ، يميل في البداية الى زيادة اضطرابها .

حين كانت فتاة تعيش في كنف اهلها محمية بسلطتهم ، كانت تستعمل حريتها في الثورة والامل ، وفي رفض ومجاوزة حال ترى فيه في نفس الوقت امنها . كانت تسمو بنفسها نحو الزواج ، لكن حينما تتزوج لا

يعود امامها مستقبل آخر . ان ابواب المنزل توصد من خلفها لتتركها مع حصتها في الدنيا . انها تعرف جيدا ما هي الاعمال المخصصة لها ، وستكرر امامها دائما نفس الطقوس .

حين كانت فتاة كانت فارغة اليدين ولكنها كانت تملك الامثل والاحلام وكل شيء . اما الآن فلها زاوية محدودة في العالم ، فتفكر حينئذ في قلق ولسان حالها يقول : ليس لي سوى هذا الى الابد . الى الابد هذا الزوج وهذا المسكن . انها لا تعود تنتظر شيئا او تبتغي شيئا مهما !

انها تخشى مع ذلك مسؤولياتها الجديدة . ولئن كان للزوج حنكة السن والتمتع بالسلطة فان سحر نفوذه يزول لمجرد كونها على علاقة جنسية معه . وهو لا يستطيع ان يحل محل الاب والام خاصة . كما انها تحس بالبرد يجري في اوصالها حين تجد نفسها وحيدة في منزلها الجديد مرتبطة برجل غريب عنها الى حد ما مودعة حياتها كطفلة لتصبح زوجة كتب عليها ان تصير اما بدورها ، وتكتشف الضجر وسطحية الحياة حين تلفي نفسها منفصلة انفصالا نهائيا عن كنف والدتها ضائعة في عالم لا يصور لها اي غاية او هدف .

يبدو هذا القلق بصورة ملحوظة في مذكرات الكونتيسة تولستوي الشابة بعد ما قبلت بحماس الزواج من الكاتب الكبير الذي كان يثير اعجابها :

تزوجت صوفي في ٢٣ ايلول وفي المساء غادرت اهلها :

«كان يتحكم بخناقي شعور قاس مؤلم . واحسست حينئذ ان لحظة

مغادرة اسرتي واحبائي ووالدتي الى الابد قد حلت • وكانت اللحظات الاخيرة ، لحظات الوداع ، رهيبة جدا • وقد حرصت على ان تكون امي آخر من اودع •

وما ان انتزعت نفسي من ضماتها وذهبت احتل مكاني في العربة دون ان التفت نحوها حتى اطلقت صرخة لم انسها طول حياتي •

كان مطر الخريف لا يكف عن الهطول • واطلقت العنان لدموعي وانا قابعة في الزاوية مرهقة بالجهد ، مما اثار دهشة بل استياء ليون • ولما خرجنا من المدينة شعرت بالرهبة وانا في الظلام الدامس الذي كان يهصر نفسي هصرا • ولم نتبادل اية كلمة حتى وصولنا الى اول موقف (بيريوليوف فيما اذكر) الا انه كان كثير الحنان والرعاية •

في بيريوليوف اعطونا الغرف المسماة غرف القيصر وهي كبيرة لا تجتذب النفس • ثم جلبوا لنا السماور • وبقيت جالسة محافظة على السكون كالمحكوم عليها • قال لي ليون : ما بالك؟ هلا شرفتينا بالخدمة. فاطعت وقدمت الشاي • كنت مطيعة ولم اكن لاستطيع التحرر من بعض المخاوف ، او مخاطبة ليون دون تكلف بل كنت اتجنب ذكر اسمه ، وبقيت مدة طويلة اخاطبه بضمير الجمع»

بعد اربعة وعشرين ساعة وصلا الى (يا سنيافابوليانا) • وفي ٨ تشرين الاول عادت صوفي الى كتابة مذكراتها :

«كنت دائما احلم بكائن كامل ، غض ، نقي اكرس له حبي ••• انه لصعب علي ان اتخلى عن احلام الطفولة» •

وفي اليوم التالي دونت :

واشعر بالضيق . رأيت الليلة الماضية احلاما مزعجة ورغم اني اطردها عن ذاكرتي فاني احس بوطئها في نفسي . رأيت امي في الحلم مما سبب لي كثيرا من الضنى . ما اشبهني بالنائمة التي لا تستطيع الاستيقاظ . يبدو لي دائما اني على اهبة الموت . هذا غريب ... كيف يحدث الآن بعد ان سار لي زوج . انني اسمعه وهو نائم فاحس بالخوف وحدي . انه لا يترك لي فرصة الدخول الى ذاته وهذا الامر يحزنني . وتبدو لي كل هذه العلاقات الجسدية مقززة» .

١١ تشرين الاول : «يا للفظاعة ! انني انطوي دائما على نفسي . فزوجي مريض ، سيء المزاج ولا يحبني . كنت انتظر ذلك انما لم اكن احسب ان ذلك سيكون بهذه الدرجة من البشاعة . من الذي يهتم بسعادتي ؟ ما من احد يشك في اني عاجزة عن تأمين هذه السعادة له ولنفسي . وقد اتساءل في ساعات حزني وشقائي بقولي : لماذا اعيش ما دامت الامور سيئة بالنسبة الي وبالنسبة الى الآخرين ؟ هذا غريب الا ان هذه الفكرة تتسلط علي . يخيل الي انه يصبح اكثر برودة يوما بعد يوم اما انا ، بالعكس ، فازداد حبا له . اني استرجع ذكرى اهلي فاشعر بالعجب ، كم كانت الحياة خفيفة انذاك ! اما الآن فروحي ممزقة يا الهي ! وما من احد يشعرني بحبه.... امي العزيزة.... اماه.... عزيزتي تانيا.... لكم كنتما لطيفتين !» .

«لم غادرتهما ؟ هذا محزن ، مخيف ، ومع ذلك فليوتشكا طيب جداً . فيما مضى كنت اقبل بلهفة على الحياة والعمل . اما الآن فقد حتم القضاء وانتهى الامر . بوسعي البقاء صامتة اياما كاملة واناً متشابكة الذراعين مكررة السنين الخالية . كم اود ان اشتغل ولكن لا اقوى على ذلك .

قديما كان العرب على البيانو مصدر لذة لي اما الآن فصار مصدر ازعاج، عرض علي ليوتشكا "بقاء في البيت اثناء ذهابه الى نيوسلكوي، كان ينبغي لي ان اوافق لاحرر نفسي انما لم تكن لي القوة على ذلك . يا له من مسكين ! انه يبحث في كل مكان عن التسليات والمبررات كيما يتجنبني . آه لماذا انا على الارض» .

١٢ تشرين الثاني ١٨٦٣ : «اقر باني لا اعرف كيف املأ فراغ وقتي، ان ليوتشكا سعيد لانه يتمتع بالذكاء والموهبة . اما انا فلا شيء لي منهما . ليس صعبا على المرء ان يجد شيئا يعمله فالعمل متوفر . لكن يجب على المرء ان يتذوق هذه الاعمال الصغيرة ويعتاد على محبتها : العناية بالحيوانات ، قراءة الاشياء السخيفة كثيرا ، والاشياء المهمة قليلا جدا . لقد نمت نوما عميقا حتى ان سفرتنا الى موسكو وانتظار ولادة طفل لم يسببا لي اي انفعال ، اية بهجة ، اي شيء . من يدلني على وسيلة تنهي وتحمل الحياة تدب في اوصالي ؟ ان هذه الوحدة تثقل كاهلي وانا غير معتادة عليها . كان هناك في بيتنا نشاط وحركة اما هنا فلا شيء غيابه وكل شيء عابس مكفهر . الوحدة امر عادي بالنسبة اليه فهو لا يشعر مثلي باللذة مع اصدقائه بل الاقبال على نشاطاته فقد شب بغير عائلة .»

٢٣ تشرين الثاني : «صحيح انني عاطلة ، بغير نشاط ، الا ان هذه ليست طبيعتي . لا اعرف باي عمل اشرع . احس احيانا بالرغبة الجامحة في التحرر من تأثيره ... مالي ارضخ لنفوذه ! لم اعد كما كنت من قبل مما يجعل حياتي في غاية المشقة» .

١٠ نيسان «عيبي الكبير اني لا اجد ذخرا في نفسي . انه

منهمك جدا في اعماله وفي ادارة اطيانه اما انا فلا هم لي اطلاقا • ولا اتمتع باية موهبة • لكم اود ان يكون لي شاغل ... انما ابتغي عملا حقيقيا • فما مضى ، في مثل ايام الربيع الجميلة هذه كنت احس بالحاجة الى شيء ما ، بالرغبة في امر ما • ولا يعلم الا الله فيم كنت افكر واحلم • اما اليوم فلا احتاج الى شيء • لم اعد احس بهذا الميل السخيف المبهم الى المجهول،لانني بعدما وجدت كل شيء لم يعد امامي شيء ابحث عنه»

٢٠ نيسان «يزداد ليون بعدا عني يوما بعد يوم• ان الناحية الجسمية من الحب تلعب لديه دورا كبيرا جدا اما بالنسبة الي فلا دور لها اطلاقا»•

نرى ان المرأة الشابة تعاني من فراق اهلها ووحدتها ، من الشكل النهائي لمصيرها وتحس بالملل خلال الاشهر العشرة الاولى • وقد احست (كوليت) بنفس الملل حتى بلغت حد ذرف الدموع بعد زواجها الاول الذي فرضه اخوتها عليها •

وقد وصف (مارسيل بريفو) في «رسائل الى فرنسواز المتزوجة» حيرة المرأة الشابة وارتباكها بعد عودتها من رحلة العرس :

«انها تفكر في بيت اهلها ، بأثاثها من طراز نابليون الثالث ، وبكل ما فيه من قديم مضحك • كل ذلك ينطبع على صفحة ذاكرتها لحظة كملجأ فعلي ، كعش حقيقي ، حيث احتضنها الحنان الصرف في معزل عن التقلبات والاخطار • اما هذا المنزل برائحة السجاد الجديد المتصاعدة فليس عشا حقيقيا • انها تحس بنفسها حزينة حزينة جدا كما لو كانت متروكة في الصحراء» •

ينشأ عند المرأة الشابة اعتبارا من هذه الحيرة مزاج سوداوي • وهي

تشعر خاصة بدوامة حريتها الفارغة . يسوق (بيير جانيه) حكاية المرأة المتزوجة التي لم تكن تستطيع البقاء وحدها في المنزل لانها كانت تحس بنفسها تغريها وتدفعها الى التطلع من النافذة والقاء النظرات على المارة .

ومن النساء من يصررن على رفض وضعهن كنساء بالغات مدى الحياة .

مثلا حالة المدعوة ك. ي. التي يرويها (جانيه) :

«ك. ي. ، امرأة في السادسة والثلاثين ، تتسلط عليها فكرة ثابتة مفادها انها فتاة صغيرة يتراوح عمرها بين العاشرة والثانية عشرة لا سيما حينما تكون وحيدة . فتقفز وتضحك وترقص وتحل شعرها وتتركه ينسدل ويتموج على كتفيها وتقصه جزئيا على الاقل . وهي تتمنى ان تتساوق مع هذا الحلم . (من المؤسف انني لا استطيع ان العب لعبة التخفي امام جميع الناس ... اود ان يجدوني لطيفة . اخاف ان اكون دمية وارغب ان يقولوا لي انهم يحبونني كما يحبون الاطفال الصغار . الطفل الصغير محبوب لطيبة قلبه ودعاباته ... وماذا يطلب منه لقاء ذلك ؟ ان يكون محبوبا ... لا شيء اكثر من ذلك . الا انني لا استطيع مفاتحة زوجي فهو لا يفهمني . اتبهوا مثلا ... اود كثيرا ان اكون صغيرة وان يكون لي اب وام اجلس على ركبتيهما ويداعبان شعري ... لكن لا ... انا سعيدة .. وام لاطفال . يجب ان اعني بداخل المنزل وان اكون جدية وان افكر لوحدي . آه يا لها من حياة.)»

وغالبا ما يشكل الزواج ازمة بالنسبة الى الرجل . ولا ادل على ذلك ان كثيرا من الاضطرابات النفسية تنشأ في فترة الخطوبة وفي الايام

الاولى من الحياة الزوجية . ولئن كان اقل ارتباطا بالاسرة من اخواته فانه يكون عادة تابعا لجماعة ما ، كالمدرسة او الجامعة او ورشة العمل او زمرة رفاق يشعر معهم انه غير مهمل . انه يغادر هذه الجماعة ليبدأ حياته الجديدة كرجل بالغ . فهو يخشى العزلة في المستقبل ويتزوج غالبا ليتجنبها .

باستثناء فترة تأجج الحب القصيرة ، لا يمكن لشخصين فقط ان يشكلا عالما يحميهما امام العالم . هذا هو شعور كليهما بعد الزفاف . فالمرأة لا تخفف عن الرجل عبء مسؤولياته بل على العكس تزيدها . ويكون من نتيجة اختلاف الجنس اختلاف في السن والتربية والوضع ، مما لا يسمح بأي تفاهم حقيقي . وان كان الزوجان متآلفين فانهما يبقيان غريبين عن بعضهما بعضا . وفيما مضى كان بين الطرفين هوة عميقة دائما . فالفتاة الناشئة في جو من الجهل والبراءة لم يكن لها اي ماض ، في حين ان خطيبها يختبر الحياة وعليه ان يقوم هو باطلاعها على حقيقة هذه الحياة

ومن الذكور من يشعر بالزهو ازاء هذا الدور الدقيق . اما اذا كان الرجل اكثر تبصرا فانه يقيس المسافة بينه وبين رفيقته المقبلة بشيء من القلق .

وصفت (اديت وارتون) مخاوف شاب اميركي من جيل ١٨٧٠ امام المرأة المخصصة له :

«تأمل في شيء من الرهبة والاحترام الجبهة الصافية والعينين الجديتين والفم البريء المرح لهذه المخلوقة الشابة التي كانت على اهبة

وهب نفسها له . كانت هذه الحصيلة الرهيبة للنظام الاجتماعي تبدو له الآن كأنها اجنبية .. ماذا كان يعرف احدهما عن الآخر ما دام من واجبه، كرجل مهذب ان يخفي ماضيه عن خطيبته ، ومن واجبها ان لا يكون لها اي ماض ؟ اما الفتاة ، وليدة نظام التعمية المعد باتقان ، فكانت بسبب صراحتها وصفائها تبدو كلغز معقد جدا . كانت صريحة لانه لم يكن لديها شيء تخفيه ، وواثقة لانها لم تكن تتصور ان عليها ان تلزم جانب الحيطة والحذر ، وكانت مضطرة ، دون اي تمهيد ، الى ان تغمس في ليلة واحدة فيما يسمى (حقائق الحياة ..)

بعدما حوم مائة مرة حول هذه الروح البسيطة ، ارتد مثبط الهمة لما ادرك ان هذا الصفاء الصناعي ، المعد اعدادا ماهرا بفضل تآمر الامهات والعمات والجدات المتزمتات ، لم يوجد الا ليلبي ذوقه الشخصي وكيما يمارس عليها حقه كسيد ويحطمها كما يحطم تمثال من ثلج» .

ان الهوة اليوم اقل عمقا ، فقد صارت الفتاة اقرب الى الطبيعة واكثر اطلاعا واحسن استعدادا وتأهبا للحياة .

وكثيرا ما تكون المرأة مثل الطفلة لانها فعلا صغيرة جدا بالنسبة الى زوجها .

كتبت صوفي تولستوي :

«انني ابذل جهدي كيما اكبح جماح وثبات الشباب ، لانها تبدو تماما في غير محلها في هذا الوسط المتعقل»

ويرى الزوج من جهته في امرأته «طفلة» . انها ليست بالنسبة اليه الرفيقة المنتظرة ، وهو يشعرها بذلك فتحس انها مذلولة . وليس من

شك في انها تريد ان تجد دليلا مرشدا بعد خروجها من بيت اهلها ولكنها تريد ايضا ان ينظر اليها على انها شخص كبير • انها تتمنى ان تبقى طفلة كما تريد ان تصبح امرأة • ولا يستطيع الزوج ابدا ان يعاملها بصورة ترضيها ارضاء تاما •

وحتى اذا كان فارق السن ضئيلا فيجب ان لا ننسى ان الشاب والفتاة قد تلقيا تربية مختلفة • تخرج المرأة من عالم نسوي تلقت فيه الحكمة النسوية واحترام القيم النسوية ، اما الرجل فيكون متشبعا باخلاق الذكور فيصبح صعبا عليهما ان يتفاهما في اغلب الاحيان ولا يلبث ان يحل النزاع بينهما •

لما كان الزواج يلحق المرأة بالرجل بصورة طبيعية فان مسألة العلاقات الزوجية تطرح بشكل حاد بالنسبة اليها • ومن مفارقات الزواج ان له مهمة جنسية ومهمة اجتماعية في نفس الوقت • وينعكس هذا الازدواج في صورة الرجل كما تبدو للمرأة • فهو نصف اله يتمتع بنفوذ الرجولة وعليه ان يحل محل الاب كمدافع ووصي وموجه ، وينبغي للمرأة ان تترعرع وتتفتح في ظلاله لانه حامل القيم وضامن الحقيقة • وهو في الوقت نفسه ذكر ، على المرأة ان تشترك معه في تجربة ، غالبا ما تكون مخجلة ، بغيضة ، غريبة ومزعزعة •

انه يدعو زوجته الى الولوغ معه في الحيوانية كما يوجهها في نفس الوقت بقدم موطدة نحو المثل العليا •

قد يكون الرجل احيانا ابا وعاشقا فتصبح العملية الجنسية ذات طابع مقدس ، وتجد الزوجة بين ذراعيه سلما نهائيا تشتريه بخضوعها

التام • ان مثل هذا الحب الذي يبلغ حد الهوى نادر الوقوع في الحياة الزوجية • وقد تحب المرأة زوجها حبا عذريا فترفض الاستسلام لهذا الزوج الذي تقدره كثيرا •

مثال ذلك الحالة التالية التي يسوقها ستيكل :

«السيدة د• س• ارملة فنان كبير ، لها من العمر الآن اربعون عاما • ورغم انها كانت تحب زوجها حتى العبادة فقد كانت مصابة بالبرود معه»

وعلى العكس من ذلك قد تستطيع المرأة التعرف على لذة تلقتها كانحدار مشترك تقتل فيها الاعتبار والاحترام •

ان ما يحدث غالبا ان الزوج يبقى بعد التجربة الجنسية حائزا على الاحترام فتتغاضى المرأة عن ضعفه الحيواني • او انه يبقى رفيقا ظريفا ولكنه يفقد سحره • وقد وصفت (ك• مانسفيلد) هذا الازدواج :

«كانت تحبه حبا حقيقيا وتكن له الاعجاب والاحترام الشديد • وكانت تعرف اعماق نفسه اكثر من اي شخص في العالم • فقد كان نموذجا للصراحة والاحترام ، وبقي بسيطا ساذجا يقنع بالقليل رغم ماله من تمرس عملي • لكن ليته لم يثب عليها وهو ينبح بشدة موجها اليها عينين نهمتين جدا مولهتين جدا •

كان يغيض بالقوة الا انها كانت منذ طفولتها تبغض الاشياء التي تقبل عليها بسرعة • وكان مخيفا في بعض الاحيان حتى كانت تهم بان تصرخ بكل ما لها من قوة : تكاد تقتلني ! وحينئذ تحس بالرغبة في قول اشياء مقيتة ••• نعم ••• نعم ••• ان ذلك صحيح • رغم كل حبها واقدامها واعجابها كانت تبغض (ستانلي) •

كانت كل احاسيسها بالنسبة اليه دقيقة ، واضحة ، صحيحة • وهذا الشعور الآخر ، هذا البغض كان هو ايضا صحيحا ، وكانت تتمنى ان تقدم له هذه الاحاسيس بصورة هدايا ••• وان تقدم له هذا الشعور الآخر في النهاية كمفاجأة»

على ان المرأة تكون بعيدة جدا عن الاقرار باحاسيسها امام نفسها في مثل هذا الصدق • ان حب الزوج والتمتع بالسعادة امران يتطلبهما المجتمع وهذا ما تنتظره اسرة المرأة منها •

فاذا كان اهلها معارضين في زواجها فانها تصر على تكذيبهم فتحيا حياتها الزوجية بسوء نية وتقنع نفسها طوعا انها تحب زوجها حبا عظيماء وان هذا الحب يأخذ شكلا متزايدا في الهوس والتملك والغيرة كلما تناقص اكتفاء المرأة الجنسي • وتصبح لها حاجة ملحة الى حضور زوجها كيما تعزي نفسها بخيبة الامل ، هذه الخيبة التي ترفض الاقرار بها في البداية •

يذكر (ستيكل) امثلة عديدة عن هذا التعلق المرضي :

«بقيت احدى النساء في الاعوام الاولى من زواجها في حالة البرود نتيجة لتثبيت حالة الطفولة • فنشأ عندها حب من النوع الذي يرى عند النساء اللواتي يرفضن اظهار عدم اكتراثهن بزوجهن • كانت لا تعيش الا من اجل زوجها ولا تفكر الا فيه • ولم [illegible] لها اية ارادة • كان عليه ان يهيء كل صباح البرنامج اليومي وان [illegible]ول لها ما ينبغي لها شراءه••• فكانت تنفذ كل شيء بامانة • واذا لم يبين لها اية مهمة ، بقيت في غرفتها دون ان تعمل شيئا • كانت لا تستطيع ان تبقى وحدها بل تحب ان

تمسكه بيدها • كانت تعيسة تذرف الدمع مدة ساعات وترتجف من اجل زوجها واذا لم تكن هناك مناسبة خلقتها» •

اما (صوفي تولستوي) فتريد ان يكون زوجها المحبوب بجانبها دائما وحالما يبتعد عنها تعذبها سياط الغيرة • فقد كتبت :

١١ — ١ — ١٨٦٣ : «ان غيرتي مرض ولد معي • لعل ذلك ناجم عن انني احبه ولا احب سواه ، لذلك لا يمكنني ان اكون سعيدة الا معه وبـه»

١٥ — ١ — ١٨٦٣ : «اود ان لا يفكر ولا يحلم الا بي وان لا يحب احدا سواي • لا اكاد اقول لنفسي احب ايضا هذا الشيء او ذاك ، حتى اتراجع عن قولي وأحس انني لا احب شيئا بعده •• وانني اشعر بدونه بقلق عظيم ، وبتفاقم الحاجة الى عدم الافتراق عنه يوما بعد يوم»

١٧ — ١٠ — ١٨٦٣ : «احس بنفسي عاجزة عن فهمه جيدا ، لذلك التصص عليه بكل غيرة» •

٣١ — ٧ — ١٨٦٨ : «من المضحك ان يقرأ الشخص مذكراته ! فكم هناك من متناقضات ! هل يوجد شخصان اسعد منا ؟ ان حبي لا يكف عن الازدياد • احبه دائما بنفس الحب القلق ، المبرح ، المشحون بالغيرة والقائض بالخيال • الا ان هدوءه وثقته بنفسه امور تستفزني احيانا»

١٦ — ٩ — ١٨٧٦ : «بحثت بتعطش عن صفحات مذكراته التي تتطرق للحب وحالما وجدتها اكلتني الغيرة • اني حانقة عليه لانه ذهب • لم اعد انام ولم اعد آكل شيئا تقريبا • كل يوم تحل بي الحمى •• ورعشات في المساء • هل انال الجزاء لانني افرطت في حبي ؟»

انا نشعر من خلال هذه الصفحات بجهود ضائعة للتعويض عن فقدان الحب الحقيقي • ان القلق ، والالحاح والغيرة تعبر عن فراغ القلب • وكثير من الغيرة المرضية تترعرع في مثل هذه الشروط • فالغيرة تعبر تعبيرا لا مباشرا عن عدم الاكتفاء الذي تجسده المرأة عادة باختلاقها منافسة لها • واذا لم تحصل على احساس بالاكتفاء ، فانها تنظم صدمتها تنظيما عقليا بتخيلها ان زوجها يخونها •

وغالبا ما تمعن المرأة في الكذب عن رياء او كبرياء او حياء • يقول شاردون : كثيرا ما يبقى بغض الزوج مختفيا طول الحياة ويحل محله ما يسمى بالمزاج السوداوي او غيره • وتعبر المرأة عن شعور الخصام ببذل الجهد في رفض تحكم الزوج.فبعد انقضاء شهر العسل وفترة الاضطراب التي تليه ، تحاول المرأة الحصول على استقلالها • وهذا ليس بالامر السهل • لان الزوج يتمتع بشيء من النفوذ نظرا الى كبر سنه غالبا ، كما انه رب الاسرة بحسب احكام القانون ويتمتع بتفوق معنوي واجتماعي ، وغالبا ما يكون له ــ على الاقل ظاهريا ــ تفوق فكري ، كما يمتاز على زوجته بالثقافة او على الاقل بالتمرس المهني • ويكون منتسبا الى حزب او جمعية ، ونظرا الى كونه عاملا ومواطنا فان افكاره متمرسة بالواقع • وبمعنى آخر ان الرجل المتوسط يتحلى بالمحاكمة وبتذوق الواقع والتجربة وبالفكر الناقد • ان ذلك ما تفتقده كثير من الفتيات • واذا سبق لهن قراءة الكتب وسماع المحاضرات فان معارفهن المكدسة بحسب السوانح لا تشكل ثقافة • واذا كن لا يحسن المحاكمة كثيرا فليس مرد ذلك الى نقص في تكوين دماغهن بل لان الظروف العملية لم تضطرهن الى ذلك • فالتفكير بالنسبة اليهن نوع من اللعب

اكثر من ان يكون اداة ووسيلة • حتى ولو كن متمتعات بالذكاء والحساسية فانهن لا يعرفن اثبات آرائهن واستخلاص النتائج منها • لذلك يستطيع الزوج وان كانت الزوجة خيرا منه ، ان يثبت انه على حق وانها على خطأ • فيؤدي ذلك الى تفاقم شقة الخلاف بينهما • وفي نهاية الامر لا يبقى للمرأة الشابة الا الصمت والدموع او العنف • فالمرأة تحاول احيانا ان تقاوم وتناضل ، الا انها تقبل في اكثر الاحيان ، طوعا او كرها ، ان يفكر الرجل محلها فيصبح هو ضمير الاسرة • وهي تعول على الرجل لتكوين الآراء المشتركة في كل المواضيع العامة والتجريدية عن حياء او كسل او نقص في المهارة • ويحلو للزوج في اغلب الاحيان القيام بدور الموجه والقائد ، لانه حين يعود مساء من احتكاكه مع اقرانه ورؤسائه يروق له ان يرى نفسه رئيسا مطلقا ينشر الحقائق الصائبة • فيعرض وقائع اليوم ويصوب نفسه تجاه الخصوم ، وهو سعيد انه يرى في زوجته صورته التي تؤكد اقواله •

ان الزواج يشجع الرجل على تسلط خاضع للهوى • والميل الى التحكم هو الاكثر شيوعا والحاحا • وان تفويض امر المرأة بالرجل يشجع على انتشار البغي في الارض • فالزوج لا يكتفي غالبا بان ينال الاستحسان والاعجاب وان ينصح ويوجه بل انه يصدر الاوامر ويتصرف كالسيد المطلق • وهو يتحرر في البيت من كل احقاده المتكدسة منذ صباه وطيلة حياته والمتجمعة يوميا اثناء احتكاكه مع بقية الرجال • انه يأمر وينهي ويتصنع الشدة والبأس ويرفع صوته عاليا ويضرب بيده على الطاولة •• ان هذه المهزلة هي بالنسبة الى المرأة جزء من الواقع اليومي• فالزوج مقتنع الى ابعد الحدود بحقوقه حتى ان اقل بادرة استقلال من

زوجته تبدو له كعصيان • اما هي فتنتشي عليه مع ذلك • ولئن ابتدأت بالاعتراف بتفوق الرجولة الا ان ذلك سرعان ما يتبدد فتكتشف الزوجة ان الذي امامها ليس قائدا او سيدا بل رجلا ، ولا ترى اي مبرر لقبول العبودية • واحيانا تخضع ظاهريا الا انها تدخل غالبا في خصام سافر مع هذا السيد وتحاول هي ايضا بسط سلطانها عليه •

وقد يتفاقم الخصام حتى يؤدي الى الانفصال • لكن المرأة بصورة عامة ، رغم رفضها تحكم زوجها ، تريد مع ذلك المحافظة عليه • انها تناضل ضده لتدافع عن استقلالها وتحارب بقية العالم لتحافظ على الوضع الذي يتذرها للتبعية • ان هذا اللعب المزدوج صعب ، مما يفسر تفسيرا جزئيا حالة القلق والتوتر العصبي التي تحل بكثير من النساء طيلة حياتهن •

وكما ان اصطياد الزوج فن ، فان المحافظة عليه تتطلب كثيرا من المهارة • خصوصا ان المرأة تقامر باشياء لا تستوجب التفريط : الا من المادي والمعنوي ، البيت الخاص ، مكانة الزوجة • وسرعان ما تعرف المرأة ان سحرها الجنسي ليس سوى اوهى اسلحتها ، لان تأثيره يخف مع العادة، كما ان هناك نساء كثيرات يتوددن له كيما يعجبنه ويستهوينه• ويصطرع ضمن نفس المرأة غالبا الكبرياء التي تدعوها الى البرود ، وفكرة استهواء زوجها باللهفة الجنسية • وهي تعول ايضا على اشياء اخرى كالحنان على الاطفال واتقانها آداب المجتمع •

الا ان هناك تقاليد كاملة تلقن الزوجات فن اجتذاب الرجل ، اذ يجب اكتشاف نقاط الضعف فيه وامتداحها والموازنة بمهارة بين الخضوع والمقاومة وبين الحذر والتساهل • والمسلكان الاخيران من الاهمية

بمكان فلا ينبغي التشديد كثيرا على حرية الرجل او التساهل كثيرا فيها.

فاذا كانت كثيرة التساهل فقد تتعرض لفقدانه . واذا ارهقته بمراقبتها والحاحها اثارته ضدها . وان عذر المرأة الاكبر في مناوراتها ولفها ودورانها انها مجبرة على حشر كل كيانها في الزواج . فكيما تسود بين الزوجين علاقات الاخلاص واواصر الصداقة فان الشرط الضروري الذي لا غنى عنه ان يكون كل واحد حرا تجاه الآخر ومساويا له مساواة فعلية ملموسة . وما دام الزوج يملك وحده استقلاله الاقتصادي ويتمتع بامتيازات الرجل بحكم القانون والعرف فمن الطبيعي ان يبدو غالبا كطاغية ، مما يدفع المرأة الى الثورة والمكر .

لا احد ينكر مآسي الحياة الزوجية . الا ان المدافعين عن الزواج يدعون ان النزاعات بين الازواج تنشأ عن ارادة الافراد السيئة وليس عن نظام الزواج نفسه .

ان (اندريه بروتون) احد كبار المتحمسين للحب الوحيد المطلق الخالد يضطر الى القول بان هذا الحب قد يخطىء في انتقاء شخص المحبوب في الظروف الحالية على الاقل .

وليس من شك في ان كثيرا من الازواج ينجحون في الوصول الى نوع من التوازن والاتفاق . الا ان هناك لعنة تحل بهم ولا يتحررون منها الا نادرا وهي الشعور بالسأم . فاذا لم ينجح الزوج في ان يجعل من زوجته صدى وصورة لشخصه او انزوى كل منهما في عالمه الخاص فلن يكون بينهما بعد بضعة اشهر او بضع سنين اية مشاركة او اي تجاوب .

ان المنافحين عن الحب الزوجي يقرون بانه ليس حبا ، وان هذا السبب بالذات يضفي عليه طابعا عجيبا ، لان البورجوازية قد استنبطت في السنوات الاخيرة اسلوبا ملحميا شعريا فاصبحت الرتابة مغامرة ، والاخلاص جنونا علويا ساميا ، والملل حكمة وتعقلا ، والاحقاد الزوجية اعمق شكل للحب ، والحقيقة انه اذا تباغض شخصان دون ان يستطيع احدهما الاستغناء عن الآخر فالعلاقة بينهما لا تستدعي الا الشفقة ، والحل الامثل ان لا يرتبط شخصان الا بالاتفاق الحر لحبهما .

على ان الحرية لا تعني الخضوع للهوى ، فالاحساس نوع من التعهد يجاوز اللحظة العابرة ، ولا يكون الاحساس طليقا حرا الا اذا كان غير خاضع للتوجيهات الخارجية ، وكان الشخص يحياه بصدق لا يعرف الخوف ، اما شعار «الحب الزوجي» فيدعو الى كل انواع الكبت والكذب ، واول ما يمنع على الزوجين هو ان يحققا بينهما تعارفا حقيقيا .

بعدما شفي احد المرضى وجه شكره لاصدقائه وممرضاته ثم التفت الى زوجته التي لم تبارح جواره مدة ستة اشهر قائلا : «اما انت فلا اتوجه اليك بالشكر لانك لم تعملي سوى واجبك» ، انه لم ينظر الى اية حسنة من حسناتها على انها مزية ، لان هذه الحسنات يضمنها المجتمع ويتضمنها نظام الزواج .

يجري الكلام كثيرا عن خيبة امل الرجل الساذج المخلص امام المكر النسوي والحقيقة ان المرأة منذورة للاخلاق ، لان الاخلاق تضطرها الى تجسيد كيان غير انساني ، وما ان تفكر وتحلم وتتمنى وتتنفس دون توجيهات حتى تخون ما يتمثله الرجل فيها ، لذلك لا تنساق نساء كثيرات مع ذاتهن الحقيقة الا في غياب ازواجهن ، وعلى العكس من ذلك ، لا

تعرف المرأة حقيقة زوجها ، فقد تحسب انها ترى وجهه الحقيقي في حين ان حقيقة وجه الرجل هي اول كل شيء في ما يفعله ضمن العالم مع الرجال الآخرين .

وفي بعض الحالات الموفقة قد تنجح المرأة في ان تصبح رفيقة حقيقية لزوجها ، فتناقش مشاريعه وتسدي له النصائح وتساهم في اعماله ، الا انها تخدع نفسها اذا ظنت انها تحقق بذلك عملا شخصيا ، فالرجل يبقى الحرية الوحيدة المتمتعة بالنشاط والمسؤولية ، وينبغي لها ان تكون مولهة بحبه لتجد الفرح في خدمته والا فانها لن تشعر الا بالحنق امام حرمانها من نتائج جهودها .

تأخذ الحياة الزوجية ، بحسب الاحوال ، اشكالا مختلفة ، الا ان الحياة اليومية تجري بالنسبة الى كثير من النساء على نفس الوتيرة .

يستيقظ الزوج صباحا بعجلة ، وتصغي الزوجة بانشراح الى صوت الباب يغلق خلف زوجها لانها تحب ان ترى نفسها حرة ، غير خاضعة للتوجيهات وسيدة في بيتها ، وخلال شتى مراحل اليوم تتقلب نفسيتها ضمن الاطار التالي الذي يتكرر كل يوم تقريبا : الملل ، الانتظار ، خيبة الامل .

وقد تعرض للمرأة بعض انواع الهروب ، الا ان ذلك صعب من الناحية العملية في الارياف حيث تثقل قيود الزواج كاهل المرأة فتصبح بعضهن ربات بيوت طاغيات متحكمات وتلعب بعضهن دور الضحية المستعبدة .

ولا يبقى للمرأة التي تريد ان تحيا وضعها حياة مناسبة الا الكبرياء

الصابرة في اغلب الاحيان ، ولما كانت مقيدة بكـل الاشياء وبكل الاشخاص فـلا يمكنها ان تعرف سوى الحرية الضمنية اي الحرية التجريدية .

وغالبا ما تداعب الاوهام نفس المرأة في الاعوام الاولى فتحاول ان تعجب بزوجها اعجابا مطلقا وان تمنحه حبها بغير تحفظ وان تحس بنفسها ضرورية لزوجها واطفالها ، ثم تطالعها مشاعرها الحقيقية فتدرك ان زوجها يستطيع الاستغناء عنها وان اولادها سينفصلون عنها تدريجيا. وحين تكف الحياة المنزلية عن حمايتها من حريتها الفارغة ترى نفسها منعزلة مهجورة .

كل الكاتبات الصادقات لاحظن هذه السوداوية التي تقطن قلب المرأة في الثلاثين من عمرها،وان هذه صفة مشتركة بين بطلات الكاتبات: كاترين مانسفيلد ، دوروثي باركر ، فيرجينيا وولف .

واذا ما قارنا حوادث الانتحار بين العازبات والمتزوجات وجدنا ان الاخيرات معصومات من البرم بالحياة بين العشرين والثلاثين ثم يسير المنحنى نحو التناقص بعد الثلاثين .

ان مأساة الزواج لا تكمن في انه لا يؤمن للمرأة السعادة الموعودة ، لان ضمان السعادة امر مستحيل ، وانما لانه ينذرها للتكرار والرتابة المملة .

وحياة الفتاة حتى العشرين غنية بالمفاجآت ، حيث تجتاز الفتاة تجارب البلوغ والحياة الجنسية والزواج والامومة ، وفي العشرين من عمرها ترى نفسها سيدة بيت مرتبطة بزوجها الى الابد وبين ذراعيها

طلقها ، هذه هي حياتها قد تحددت معالمها الى آخر ايامها ، اما الاعمال الحقيقية فمتروكة للرجل .

* * *

ان الشكل التقليدي للزواج آخذ في التحول ، الا انه لا يزال يشكل نوعا من الاضطهاد يحس به الزوجان بصورة مختلفة . فاذا لم تأخذ بعين الاعتبار سوى الحقوق المجردة فانهما اليوم متعادلان تقريبا . فهما اكثر حرية من ذي قبل في اصطفاء بعضهما . ويمكنهما الانفصال عن بعضهما بصورة اسهل من الماضي . على ان الزواج ليس بالنسبة الى المرأة سوى امكانية مجردة اذا لم تكن لها وسائل تأمين حياتها بنفسها .

ان سيادة الرجال ذاتها تجعلهم مقيدين . فلانهم وحدهم يربحون المال ، ترهقهم الزوجة بمطاليبها ، ولانهم وحدهم يمارسون مهنة ، تفرض عليهم الزوجة النجاح فيها . وعلى العكس من ذلك ، ليس من شأن طغيان المرأة الا ابراز تبعيتها .

ولئن كانت العبودية الزوجية اكثر استفزازا للرجل فانها اكثر عمقا بالنسبة للمرأة . وان وجه الاخلاف الاساسي بينهما هو ان تبعية المرأة مستبطنة ، فهي مستعبدة وان تصرفت ظاهرا بحرية . اما الرجل فحر مستقل ، وهو غير مكبل بالاغلال الا في الظاهر لان الاعباء التي يتحملها هي الاكثر وضوحا . والمرأة تتلقف غذاءها منه كطفيلية فلا يمكن اما اذن ان تكون سيدة مظفرة .

والحقيقة ، كما ان الذكور والاناث هم ضحايا النوع من الناحية البيولوجية ، فانهم يتحملون وطأة مؤسسة الزواج بصورة مشتركة ، واذا

قلنا ان الرجال يضطهدون النساء ثار الزوج غاضبا لانه يحس بنفسه مضطهدا ، وهو كذلك في الواقع ..

ان المجتمع الذي شيده الذكور في مصلحتهم قد حدد وضع المرأة بصورة صارت في الوقت الحالي مصدر عذاب الطرفين .

يجب تعديل الوضع ، بصورة يحظر معها جعل الزواج «مهنة» بالنسبة الى المرأة ، وذلك في مصلحة الزوجين معا .

فالمرأة تثقل كاهل الرجل لانه محظر عليها ان تستند الى نفسها . وسيتحرر الرجل نفسه اذا تحررت هي وصار لها شيء تفعله في هذا العالم .

ان الطفل ، بحسب النظرة التقليدية ، هو الذي يضمن للمرأة استقلالا ملموسا يغنيها عن ان تنذر نفسها لاية غاية اخرى . واذا لم تكن المرأة كزوجة شخصا كاملا فانها تصبح كذلك بفضل الامومة ، فالطفل هو بهجة حياتها ومبرر وجودها . وبفضله تصبح مؤسسة الزواج ذات مغزى وتبلغ هدفها .

فلنفحص اذن هذه المرحلة العليا لتطور المرأة .

الفصل الثاني

الام

•

لا تستكمل المرأة مصيرها الفيزيولوجي الا بالامومة . هذا هو استعدادها الطبيعي ، لان كل عضويتها موجهة نحو ادامة النوع . على ان هناك من يقول ان المجتمع الانساني ليس متروكا للطبيعة ابدا ، خاصة ان انجاب الاطفال لم تعد ، منذ قرن تقريبا ، تحدده الصدفة البيولوجية ، بل صار خاضعا لاشراف الارادة والرغبات . فبعض البلاد تبنت بصورة رسمية طرق (مراقبة النسل) ويجري ذلك في البلاد الخاضعة لتأثير الكاثوليكية بصورة سرية ، ويسبب ذلك غالبا نزاعات بين الاحياء والازواج .

فاذا كانت وسائل مقاومة الحمل بدائية اضطرت المرأة الى اللجوء الى الاجهاض .

لا شيء كالاجهاض يترك المجال لرياء البورجوازية . فهو جريمة مقززة يحول الشرف دون التلميح اليه . فاذا ما وصف احد الكتاب افراح وآلام الولادة قوبل بالترحاب اما اذا تحدث عن الاجهاض قوبل له ، لانه يتهم بالتمرغ في القذارة وبوصف الانسانية وصفا حقيرا وضيعا! الا ان الواقع يبين ان عدد حوادث الاجهاض في فرنسا كل عام يعادل

حوادث الولادة . ان هذه الظاهرة من الشيوع بحيث ينبغي اعتبارها من الطوارىء الطبيعية المرتبطة بوضع المرأة .

يصر القانون على اعتبار الاجهاض جنحة . ولا شيء اسخف من الحجج التي توجه ضد تشريعه . فيدعون ان العملية خطيرة ، الا ان الاطباء الشرفاء يقررون مع الدكتور (هيرشفيلد) ان «الاجهاض الذي يقوم به طبيب اخصائي في العيادة مع اتخاذ الوقاية الضرورية لا يتضمن هذه الاخطار الجسيمة التي يؤكد القانون الجزائي وجودها» . بل بالعكس ، انه يشكل خطرا كبيرا على المرأة في شكله الحالي .

ينبغي لنا ان نلاحظ ان المجتمع الذي يبدي حماسا كبيرا في الدفاع عن حقوق الجنين يتنكر كل التنكر للاطفال بعد ولادتهم . والسلطة تلاحق المجهضات بدل ان تبذل جهدها لاصلاح هذه المؤسسة التي يطلق عليها اسم «الاسعاف العام» . ولئن كانت ترفض اعتبار الجنين تابعا للمرأة التي تحمله في احشائها فانها توافق على جعل الطفل غرضا خاصا باهله . وفي اسبوع واحد رأينا احد الجراحين ينتحر لانه اتهم بعمليات اجهاض ، واحد الآباء يضرب ابنه حتى الموت فيحكم عليه بالسجن ثلاثة اشهر مع وقف التنفيذ ، كما رأينا مؤخرا احدى الامهات ترفض استدعاء الطبيب للعناية بابنتها المريضة بحجة انها تخلت عنها للعناية الآلهية والارادة الربانية تخليا غير مشروط ، ولما حاول بعض الاطفال القاء الاحجار عليها غضب بعض الصحفيين واحتج بعض الناس الشرفاء مدعين ان الاطفال يخصون اهلهم ويعتبر كل اشراف اجنبي مرفوضا .

وفي افريقيا الشمالية ، لا يمكن للمرأة ان تلجأ الى الاجهاض ، ولكن اذا انجبت عشرة اطفال ومات منهم سبعة او ثمانية فلا يأبه احد لذلك .

زد الى ذلك ان اكثر الرجال احتراما للحياة الرشيمية هم ايضا اكثرهم تحمسا واندفاعا للزج بالشبان الى ساحات الحروب .

ان الاسباب العملية الموجهة ضد الاجهاض القانوني ليس لها اي وزن . اما الاسباب الخلقية فتتلخص في الحجة الكاثوليكية القديمة القائلة بان الجنين روحا فاذا قضينا عليه قبل التعميد حرمناه من دخول الجنة . ومن الملاحظ ان الكنيسة تسمح بقتل الانسان الكامل في الحروب او في حالة الحكم بالاعدام وتتعنت في انسانيتها بالنسبة الى الجنين . انه لم ينقذ نفسه بالتعميد ... ولكن «الكفار» في زمن الحروب المقدسة لم يكونوا هم ايضا معمدين ومع ذلك كان تقتيلهم يلقى كل تشجيع .

والحقيقة اننا هنا امام فكرة تقليدية راسخة لا تمت بالصلة الى الاخلاق . وبلغت القسوة في بعضهم حدا عجيبا . وكتاب الدكتور (روا) لنموذج صارخ على ذلك . فقد الح على اخطار الاجهاض مع انه اعتبر العملية القيصرية صحية جدا وطالب باعتباره كجريمة وليس كجنحة . وتمنى ان يمنع حتى في حالة تعرض حياة المرأة او صحتها للخطر نتيجة للحمل . اذ اعلن ان الانتقاء بين حياة واخرى عمل غير اخلاقي وبالاستناد الى هذه الحجة نصح بتضحية الام .

ان روح العداء للمرأة ما زالت حية ، ويرى ذلك في عناد بعض الرجال واصرارهم على رفض كل ما من شأنه تحرير المرأة .

ان عملية الاجهاض تجري غالبا في شروط غير ملائمة حتى ان كثيرا من النساء المجهضات يلاقين حتفهن . كتب الدكتور (ديلا) مقالا في

جريدة (كوميا) في آذار ١٩٤٨ جاء فيه :

«ان المعهد الطبي الشرعي في باريس يتلقى جثتين في كل اسبوع • وكثير من عمليات الاجهاض تؤدي الى امراض دائمة» •

لقد قيل ان الاجهاض «جريمة راقية» وهذا القول صحيح الى حد كبير ، لان طرق منع الحمل كثيرة الانتشار في اوساط البورجوازية • وان وجود غرفة خاصة للزينة يجعل التطبيق سهلا بعكس العمال والفلاحين المحرومين من الماء الجاري •

ومن اسباب الاجهاض ، الفقر وازمة السكن واضطرار المرأة الى العمل خارج البيت • ويبدو ان المرأة ، في اغلب الاحيان ، تقرر تحديد النسل بعد ولادتين •

ان خطورة هذه التجربة تتبدل كثيرا تبعا للظروف • فالمرأة المتزوجة زواجا بورجوازيا والتي تستند الى رجل ولديها اموال وصلات ، هي في وضع مميز ، فهي تستطيع ، بصورة اسهل من غيرها ، الحصول على اذن اجهاض «طبي» ، واذا دعت الحاجة فانها تذهب في سفرة الى سويسرا حيث يسمح بالاجهاض • وفي اوضاع الطب النسائي الحالية تعتبر هذه العملية سهلة بسيطة اذا قام بها اخصائي واتخذت كل الضمانات الصحية •

وعلى العكس من ذلك ، لا شيء يستدعي الشفقة مثل الفتاة المنعزلة التي لا تملك الاموال الضرورية فتضطر الى ارتكاب «جريمة» لتمسح اثار «الخطيئة» •

ان الرجل الذي يغوي المرأة هو الذي يقنعها غالبا بالتخلص من

الطفل • فاما ان يكون قد هجرها بعد حملها وانها تريد ان تخفي الامر عنه او انها لا تجد من طرفه اية مساعدة • وهي احيانا لا تتخلى عن الطفل دون اسف ، وحينما تباشر بالتخلص منه تكون في شهرها الثالث او الرابع او الخامس ، حينئذ يصبح الاجهاض اكثر خطورة واشد الما من الاجهاض في الاسابيع الاولى • ان المرأة تعرف هذا الامر معرفة جيدة ، لذلك تحاول التخلص منه وهي في حالة من القلق واليأس •

يجهل الناس في الارياف استعمال المسبر • والفلاحة التي ارتكبت الخطيئة تدحرج نفسها من السلم او الدرج وغالبا ما تجرح نفسها بغير نتيجة • اما في المدن فالنساء يتبادلن المعونة ، على ان الجراحين الذين يتنجد بهم يكونون غالبا قليلي الكفاءة •• هذا اذا لم تقم المرأة نفسها بالمحاولة •

قص علي طبيب ، ان احدى الطباخات الجاهلات ارادت ان تحقن رحمها بالخل فحققت مثانتها ، مما سبب لها آلاما مبرحة •

يرافق الاجهاض الذي يكون غالبا اكثر مشقة من الولادة الطبيعية اضطرابات عصبية • وقد يحدث احيانا امراضا داخلية خطيرة او يؤدي الى نزيف مميت •

حدثوني عن ضاربة على الآلة الكاتبة بقيت اربعة ايام في غرفتها وهي غارقة في دمائها دون اكل او شرب لانها لم تجرأ على طلب المساعدة • لا شيء اصعب من وضع يختلط فيه التهديد بالموت بالجريمة والفضيحة • ولما كانت العملية تجري في جو من السرية والاجرام فان الخطر يتزايد ، وتأخذ العملية طابعا حقيرا مقلقا • ويأخذ الالم والمرض

والموت شكل عقاب . ان المرأة تحس بنفسها مخطئة من خلال الاخطار التي تأخذها على عاتقها وهذا التداخل بين الالم والخطيئة شاق ومرهق .

تختلف شدة الشعور بالناحية المعنوية للمأساة بحسب الظروف .

فبالنسبة الى النساء «المتحررات» جدا ، ونظرا الى ثروتهن ووضعهن الاجتماعي ووسطهن المنطلق ، وبالنسبة الى النساء اللواتي علمهن الفقر او البؤس الاستخفاف بالاخلاق البورجوازية ، لا يوجد اية مشكلة . كل ما في الامر ان عليهن المرور بفترة مزعجة قليلا او كثيرا .

الا ان هناك نساء كثيرات يحسسن بالرهبة من اخلاق لا تزال تحافظ على سلطانها امام اعينهن وان كن لا يستطعن ان يكفين سلوكهن بمقتضاها . فهن يحترمن احتراما ضمنيا القانون الذي يخالفنه ، ويتألمن لارتكابهن جنحة ، ويتألمن الما اكبر لانهن مضطرات الى البحث عن شركاء وشريكات .

يشعرن اولا بذل السؤال : السؤال عن عنوان وطلب عناية طبيب او ممرضة . انها تطلب هذه المساعدة ، ولكنها ترفضها غالبا ضمن نفسها ، فهي موزعة منقسمة ضمن ذاتها . لانه اذا كان صحيحا ان الاجهاض ليس جريمة قتل فلا يمكن مع ذلك تشبيهه بوسيلة بسيطة ضد الحمل . فقد وقع الحادث وهو بداية مطلقة ثم اوقف تطوره . وان بعض النساء تصاحبهن ابدا ذكرى هذا الطفل الذي لم يولد .

تروي (هيلين دوتش) في كتابها «نفسية النساء» حالة امرأة متزوجة طبيعية جدا من الناحية النفسية ، فقدت جنينين في الشهر الثالث بسبب تكوينها الجسمي فاقامت لهما قبرين وبقيت تحيطهما بحبها وخشوعها

حتى بعد ما ولد لها عدة اطفال .

فلا شك في ان المرأة التي تجهض نفسها بارادتها تحس غالبا انها ارتكبت ذنبا . وقد تعبر السوداوية المرضية عن هذا الشعور بالاثم . والى جانب النساء اللواتي يعتقدن انهن اعتدين على حياة شخص ، هناك نساء كثيرات يعتبرن ان جزءا من ذاتهن قد فصل عنهن ، وعن ذلك ينشأ حقد ضد الرجل الذي طلب اليهن الاجهاض . واذا كان من النادر ان تقطع المرأة صلتها بشريكها الرجل قطعا باتا فكثيرا ما يحدث ان تصاب بالبرود الجنسي ازاء جميع الرجال او ازاء الرجل الذي حملت منه .

يميل الرجال الى الاستخفاف بالاجهاض فيعتبرونه من الطوارىء العديدة التي كتبها خبث الطبيعة على النساء ، ولا يقدرون ما يتضمنه من قيم .

وتنكر المرأة كل قيم الانوثة ، قيمها الخاصة ، حين تتناقض اخلاق الذكور تناقضا صارخا . ويتزعزع كل عالمها الخلقي . في الحقيقة ، انهم كرروا امامها منذ طفولتها قولهم ان مهمتها انجاب الاطفال وتغنوا امامها ببهجة الامومة . وبرروا مساوىء وضعها والاعمال المنزلية المملة وكل شيء بهذا الامتياز العجيب الذي تتمتع به وهو القدرة على انجاب الاطفال . وها هوذا الرجل يسألها ان تتخلى عن ظفرها كأنثى ، كيما يحافظ على حريته ولا يقيد مستقبله ولا يهدد مصالح مهنته ، الم يعزوها عن فزعها امام دم الحيض وهي فتاة بوعدها بمباهج الولادة .

وحتى اذا رضيت بالاجهاض ورغبت فيه فانها تحس به كأنه تضحية بانوثتها ، وينبغي لها ان تعتقد اعتقادا نهائيا ان جنسها كمرأة لعنة تحيق

بها وعجز يلازمها وخطر يهددها . وقد يصل الحد في بعضهن مبلغ التحول الى السحاق .

على ان الرجل ، حين يطلب الى المرأة التضحية بامكانياتها الجنسية في سبيل تحسين مصيره كرجل ، يفضح في نفس الوقت رياء القواعد الاخلاقية للذكور .. انهم يمنعون الاجهاض بصورة عامة ولكنهم يرضون به بصورة خاصة كحل ملائم . انهم يناقضون انفسهم بطيش ، الا ان المرأة تحس بهذا التناقض ، في جسمها الجريح . وغالبا ما تكون خجولة لدرجة يستحيل عليها ان تثور ضد سوء نية الذكور . وهي ، اذ تفكر في انها ضحية ظلم يجعل منها مجرمة بالرغم منها ، تحس بنفسها مدنسة مذلولة . انها هي التي تجسد خطيئة الرجل تجسيدا ملموسا مباشرا . فهو يرتكب الخطيئة ويتحلل منها بالقائها على عاتق المرأة . وقد لا ينطق احيانا بكلمة ، بل يكتفي بالذهاب ، الا ان صمته وهروبه يشكلان تكذيبا صارخا لكل الاخلاق التي شرعها الذكور . والنساء يتعلمن الكف عن تصديق الرجال حينما يشيدون بالمرأة او حينما يشيدون بالرجل . ان الشيء الوحيد المؤكد هو حالتهن التعسة . واعتبارا من اول اجهاض تبدأ المرأة بفهم الحقيقة . ولا يعود للعالم نفس الوجه بالنسبة الى الكثيرات.ومع ذلك فالاجهاض هو الطريق الوحيد المفتوح.

وصدق ستيكل بقوله :

«ان تحظير الاجهاض قانون غير اخلاقي لان هذا القانون سيخالف حتما في كل يوم وفي كل ساعة» .

ان تبني مراقبة النسل والاجهاض القانوني يتيح للمرأة النهوض

بالامومة في حرية ، ويتقرر انجاب الاطفال عند المرأة بالارادة المصممة كما بالصدفة ، وطالما لم يصبح التلقيح الصناعي اجراء شائعا فقد تتمنى المرأة الامومة دون ان تحصل عليها اما لانها ليست على علاقة مع رجل او ان زوجها عاقرا او انها سيئة التكوين ، وعلى العكس من ذلك ، تجد نفسها غالبا مضطرة الى الانجاب ضد رغبتها ، وتعيش النساء الحمل والامومة بصور مختلفة تبعا لحدوثهما في حالات الثورة او الخضوع او الاكتفاء او الحماس ، ويجب الاحتراس من ان القرارات والعواطف التي تقر بها الام الشابة لا تتفق دائما مع رغباتها العميقة ، فبامكان المتزوجة الشابة التي تستقبل حملها بفرح وافتخار ان تخشاه في صمت وتكرهه من خلال ذكريات الطفولة التي ترفض هي نفسها الاقرار بها ، وهذا من الاسباب التي تحمل النساء على الصمت حول هذا الموضوع ، وان صمتهن ينشأ جزئيا من انهن يرتحن الى احاطة هذه التجربة الخاصة بهن بالالغاز ،

ورأينا ان المرأة تمر اعتبارا من طفولتها بعدة مراحل فيما يخص الامومة ، فحين تكون صغيرة يبدو لها الامر كأعجوبة ولعبة فهي تجد في الدمية والطفل غرضا تمارس عليه استحواذها وتسلطها ، وحين تصبح يافعة ترى في الطفل تهديدا لسلامة شخصها او انها ترفضه بشدة او انها تخشاه وتتمناه مما يؤدي الى كل انواع القلق ، وبعض الفتيات يرتحن الى ممارسة السلطة التي تخولها الامومة ولكنهن غير مستعدات لضمان ما ينجم عنها من مسؤولية ،

مثال ذلك حالة (ليديا) التي كانت تعمل في الخدمة وهي في السادسة عشرة من عمرها ، كانت تعامل الاطفال الموكلين لعنايتها بكل تضحية ،

وكان ذلك امتدادا لاحلام الطفولة . الا انها شرعت فجأة باهمال خدمتها واخذت لا تبالي بالاطفال وتخرج من البيت وتغازل . لقد انتهى بالنسبة اليها وقت اللعب وبدأت بالاهتمام بحياتها الحقيقية التي لا تحتل فيها الرغبة في الامومة الا مكانا محدودا . وبعض النساء يرغبن طيلة حياتهن في السيطرة على الاطفال ولكنهن يرفضن انجاب الاطفال بانفسهن فيصبحن معلمات او ممرضات او قابلات ، وبعضهن ايضا لا يدفعن عنهن الامومة بقرف الا انهن يكن منهمكات بحياتهن الغرامية او بمهنتهن انهماكا لا يدع مجالا للامومة في حياتهن .

وتحقق المرأة عقمها غالبا بصورة ارادية اما بتجنب الاتصال الجنسي او بوسائل تحديد النسل . على ان هناك حالات لا تقر فيها المرأة بخوفها من الولد فيمنعها السياق النفسي من الحمل . اذ تطرأ عليها اضطرابات وظائفية من اصل عصبي ، تظهر بالفحص الطبي .

يعطي الدكتور (ارتور) مثالا بارزا على ذلك :

«هيئت السيدة هـ من قبل امها تهيئة سيئة على حياتها كمرأة فقد كانت امها تتنبأ لها دائما بافظع الكوارث اذا حملت طفلا . ولما تزوجت السيدة هـ خيل اليها انها حامل في الشهر التالي ثم لاحظت خطأها . وتخيلت نفس الشيء بعد ثلاثة اشهر ثم شعرت بخطئها . وبعد عام ذهبت تستشير احد الاخصائيين في الامراض النسائية فلم ير عندها او عند زوجها اي سبب للعقم . وبعد ثلاثة اعوام راجعت طبيبا آخر قال لها : سوف تحملين طفلا حينما ستقللين من الحديث عن الحمل . وبعد خمسة اعوام اعتقدت السيدة هـ مع زوجها ان لن يكون لها طفل ... فولدت طفلا في العام السادس» .

يتأثر قبول او رفض الحبل بنفس العوامل التي يتأثر بها الحمل بصورة عامة • فخلال اشهر الحمل تنشط احلام الطفولة • وتعيش المرأة حملها بصورة مختلفة بحسب علاقاتها مع زوجها ومع ذاتها •

وحينما تصبح المرأة اما تأخذ محل امها التي ولدتها • واذا كانت تتمنى الحبل حقا فانها تبتهج به وتعمل على السير فيه دون مساعدة • اما اذا كانت لا تزال واقعة تحت السلطة وراضية بذلك فانها تلجأ الى ايادي امها فيبدو لها طفلها كأخ او كأخت لها اكثر من فلذة كبدها • واذا كانت ترغب في التحرر ولا تجرؤ عليه في نفس الوقت فانها تخشى ان يقيدها الطفل عوضا عن ان ينقذها • مثل هذا القلق يكون من نتيجته احيانا الاجهاض •

تروي (هـ دوتش) قصة امرأة كانت مضطرة الى مرافقة زوجها وترك طفلها عند امها فانجبت طفلا ميتا • وقد دهشت لانها لم تبكه كثيرا • انها كانت تستطيع ترك ولدها عند امها التي كان بوسعها التحكم بابنتها من خلال الطفل •

اننا نرى من المثال التالي الذي ترويه (هـ دوتش) ما للعلاقة مع الام من اثر سيء :

«السيدة سيث هي الابنة الصغرى لعائلة ذات اولاد عديدين ليس فيهم سوى صبي واحد • كانت امها تنظر اليها نظرة حقد لانها كانت تريد مولودا ذكرا • الا انها لم تكن تقاسي كثيرا من ذلك لان اباها واختها الكبرى كانا يعطفان عليها • ولما تزوجت واخذت تنتظر ولادة طفل ، احال الحقد الذي كانت تشعر به سابقا تجاه امها ، فكرة

الامومة بغيضة الى نفسها رغم انها كانت تتمنى هذا الطفل بلهفة • فولدت قبل انتهاء المدة بشهر طفلا ميتا • ولما حملت ثانية خشيت وقوع حادث جديد ، ولحسن حظها ان احدى صديقاتها المقربات حملت في نفس الوقت وكان لها ام شديدة العطف والمحبة احاطتهما برعايتها اثناء حملها • الا ان صديقتها كانت تسبقها بمدة شهر مما دفعها الى الخوف من اتمام فترة الحمل وحدها • لكن الجميع دهشوا اذ رأوا فترة حمل الصديقة تمتد شهرا زيادة عن المدة المقدرة • وفي نهاية الامر ولدت الصديقتان في نفس اليوم •

وقررت الصديقتان ان تحملا بالولد المقبل في نفس اليوم وابتدأت السيدة سميث حملها الجديد بغير قلق • الا ان صديقتها اضطرت خلال شهرها الثالث الى مغادرة المدينة ، ويوم علمت السيدة سميث بذلك اجهضت • ولم تحمل بعد ذلك بأي ولد آخر لان ذكرى امها كانت شديدة الوطء على نفسها •

ولا تقل علاقة المرأة مع والد الطفل في الاهمية عن علاقتها مع امها • والمرأة التي بلغت حدا من النضج والاستقلال قد تريد طفلا يخصها فقط • واذا كان والد الطفل يشاركها في حياتها فانها ترفض ان يكون له اي حق في نسلها وتحاول ان تشكل مع صغيرها وحدة مغلقة على نفسها • على ان المرأة في اكثر الحالات تحتاج الى مساعدة الرجل لتقبل مسؤولياتها الجديدة • وكلما كانت خجولة ازدادت لديها هذه الحاجة •

والمرأة التي تكن حبا لزوجها تكيف غالبا عواطفها مع عواطفه وتتقبل الحمل والامومة ببهجة اذا كان فخورا بذلك ، وتتقبلهما باستياء اذا احس بالانزعاج • وتتمنى المرأة احيانا الطفل لتوثيق الصلة مع

رجلها فيتعلق ميلها الى الطفل بنجاح او فشل مخططاتها .

واذ كانت تحس تجاه زوجها بالخصام فيمكنها التمسك بالطفل تمسكا شديدا يدفعها الى انكار حق الاب فيه او انها ، على العكس ، تنظر الى الطفل نظرة حقد كما تنظر الى ابيه البغيض .

على ان الحمل مأساة تصطرع ضمن ذات المرأة ، فتحس به في نفس الوقت كاغناء وكاقتطاع . والجنين هو جزء من جسمها وفي الوقت نفسه طفيلي يستثمرها وكل منهما يمتلك الآخر . انه كائن جديد يستعد لرؤية الحياة ويبرر وجود امه ، وهذه تحس بالعزة والفخر الا انها تشعر بنفسها العوبة في ايدي قوى مظلمة .

تصبح مباهج الحمل والارضاع عند بعض النساء من القوة بحيث يردن تكرارها دائما . هؤلاء النساء اللواتي يعتبرن «منجبات» اكثر منهن امهات ، يحسّن بنهم عن امكانية التنازل عن حريتهن في صالح جسمهن . اذ يبدو لهن وجودهن مبررا بدور الانجاب السلبي لجسمهن . هكذا تصبح المرأة غريقة في تيار الحياة مندمجة بالكل كحلقة في سلسلة تعاقب الاجيال اللامتناهية ، ككتلة من اللحم موجودة من اجل كتلة لاحقة بفضل كتلة سابقة . ان المرأة الحامل تكف عن كونها متاعا خاضعا لشخص آخر وتكف ايضا عن كونها شخصا تقلقه حريته لتصبح هذا الواقع الملتبس : الحياة . ولكنها متوهمة اذ تحس بنفسها ، كوجود بالذات وكقيمة كاملة .

انها لا تصنع الطفل بل يصنع ضمنها . ولحمها لا يحدث الا اللحم فقط . وهي عاجزة عن تكوين وجود عليه ان يكون لنفسه . ان الخلق

المنبعث عن الحرية يضع الشيء كثيئة ويضفي عليه طابع الضرورة . قد يكون للمرأة اسباب في ان تريد طفلا الا انها لا تستطيع ان تعطي لهذا «الآخر» الذي سيوجد غدا اسباب وجودها الخاصة .

فالمرأة تحدث الطفل في عمومية جسمه لا في فردية وجوده . وكل طفل هو آلة يصنع من نفسه انسانا . ولا يمكنه ان يحقق ذاته كشعور وحرية اذا لم يولد . ان الحقيقة العليا لهذا الموجود الذي يتكون في احشائها تستعصي عليها .

كل امرأة تظن ان ولدها سيكون بطلا ولكنها تخشى في نفس الوقت ان تلد طفلا ناقصا . وبحسب الاحوال تنتصر اما الفكرة الاولى او الفكرة الثانية الا ان المرأة تتقلب غالبا بين الفكرتين .

كما انها تتأثر ايضا بمزدوجة اخرى : فهي تؤكد الحياة ضد الزمن والموت اذ ترى نفسها محمولة بدوامة النوع وتكون لذلك مرشحة للخلود ، بيد انها تحس في جسمها حقيقة كلمة هيجل : «ولادة الاطفال موت الآباء» . ان مجاوزة الذات هذه ، هي ايضا بالنسبة الى المرأة تشخيص مسبق لموتها . وتعبر المرأة عن هذه الحقيقة بما تشعره من خوف حينما تتصور الولادة ، لانها تخشى ان تفقد حياتها اثناءها .

ان موقف المرأة يتبدل خلال مراحل تطور الجنين . ويجب ان نلفت النظر اولا الى ان الولد لا يكون حاضرا في بداية سياق التطور ، وليس له بعد سوى وجود تصوري . تستطيع الام ان تحلم بهذا الفرد الصغير الذي سيولد بعد بضعة اشهر وان تشغل نفسها في اعداد السرير والملابس ، ولا تحس احساسا ملموسا الا بالاضطرابات العضوية

التي تجري ضمنها ، ويدعي بعض كهنة الحياة والخصب ادعاء غبياً : ان المرأة تعرف من كيفية اللذة التي تحس بها ان الرجل جعل منها اما ، هذه اسطورة ينبغي طرحها ، لان المرأة لا يمكنها ان تعرف هذا الحادث معرفة حدسية جازمة ، بل تستقرئه اعتبارا من علامات اكيدة : اذ تنقطع عنها العادة الشهرية وتحس بالثقل والالم في ثدييها وتشعر بالدوار وبالرغبة في التقيؤ ، واحيانا تظن فقط انها مريضة فينبهها الطبيب ، حينئذ تصبح فريسة للنوع الذي يفرض عليها قوانينه المجهولة ، ويرجع تقيؤها جزئيا الى التغير في افراز العصارات ، واذا كانت هذه الارتكاسات ، غير المعروفة عند الحيوانات الثدية ، تأخذ قسطا من الاهمية فذلك لدواع نفسية ، انها تظهر الطابع الحاد الذي يكتسبه الصراع بين النوع والفرد عند انثى الانسان ، وحتى اذا كانت المرأة ترغب في الولد رغبة عميقة فان جسمها يثور حينما ينبغي له ان ينجب .

ويؤكد (ستيكل) ان تقيؤ المرأة الحامل في «حالات القلق العصبية» يعبر دائما عن نوع من الرفض للطفل ، واذا كانت المرأة تستقبله بخصام – لاسباب لا تقر بها غالبا – فان الاضطرابات المعدوية تأخذ في الازدياد .

ويمكن ان تظهر في بعض الحالات الفكرة القائلة بالانجاب عن طريق الفم والتي يمكن ملاحظتها عند الاطفال ، وتشبه بعض النساء الحمل بمرض في الجهاز الهضمي ، تروي «هـ دوتش» قصة مريضة كانت تتحص تقيؤها بقلق لترى فيما اذا كان هناك اجزاء من الجنين ، على انها كانت تعلم فيما تقول ، ان هذه الفكرة الثابتة سخيفة ، ويعبر

النهم والحباس الشهية عن نفس التردد بين الرغبة في المحافظة على الجنين والرغبة في تحطيمه ... تعرفت الى امرأة شابة كانت تشكو من تقيؤات فظيعة وقبض شديد، قالت لي هي نفسها ذات يوم انه يخيل اليها، انها تحاول في نفس الوقت طرح الجنين والمحافظة عليه .

ان الامساك والاسهال يعبران دائما عن نفس الخليط من الرغبة والقلق، ويكون نتيجة ذلك احيانا الاجهاض . وتكاد تكون الاجهاضات العفوية كلها ناشئة عن سبب نفسي . ومما يزيد في انزعاج المرأة انها تعزو اليه اهمية زائدة وتزداد في الاصغاء الى نفسها . وخاصة وحم النساء الحبالى المشهور فانه فكرة ثابتة ذات اصل طفولي . وهن يشتهين الاطعمة بصورة خاصة نتيجة لفكرة الخصب الغذائي القديمة . وهناك على كل حال ترسيخ للوهم من قبل التقاليد فتترقب المرأة ان يحل بها وتترصده بل وتخترعه . لقد قصوا علي حكاية المرأة التي احست بشهوة جنونية الى السبانخ فهرعت الى السوق لتشتريه وكانت تدق على الارض بشدة وبصبر فارغ وهي تنظر اليه حين طبخه . كانت تعبر عن شعور القلق بوحدتها ولما كانت تعرف انها لم تكن تستطيع التعويل الا على نفسها فانها كانت تعمل على اكفاء رغباتها بسرعة كبيرة .

وصفت الدوقة (داربانتيس) وصفا مسليا حالة وحم اوحيت الى المرأة، من الناس المحيطين بها :

«ان الاعتناء الشديد يزيد الانزعاج ومرض القلب والم الاعصاب وشتى انواع الالم الذي يصاحب دائما حالات الحمل الاولى . وقد خبرت ذلك .. كانت امي هي التي ابتدأت ذات يوم وانا اتناول العشاء عندها ...

قالت لي بغتة :

ـ آه ! يا الهي ، لم افكر في ان اسألك عن وحمك .

فأجبتها بقولي :

ـ لا اشعر به ابدا .

قالت امي :

ـ لا تشعرين بالوحم ، لا تشعرين بالوحم ، ان ذلك لم يحدث قط ! انت مخطئة . لا شك في انك لم تنتبهي اليه . سأتحدث مع حماتك في هذا الموضوع .

هكذا تشاورت الاثنتان فيما بينهما . وصرت اسمع (جونو) يسألني كل صباح : (اي شيء تشتهين يا لور) . واضافت شقيقة زوجي العائدة من فرساي الى قائمة الاسئلة ما شاهدته من اشخاص مشوهين نتيجة لعدم تلبية الوحم .

وفي النهاية حل بي الخوف فأخذت ابحث في رأسي عن الاشياء التي تعجبني اكثر من غيرها فلم اجد شيئا . اخيرا فكرت عرضا ان الاناناس شيء طيب . وما ان اقنعت نفسي بانني اشتهي الاناناس حتى شعرت برغبة شديدة فيه وازدادت هذه الرغبة لما علمت انه ليس وقت الاناناس . حينئذ فقط شعرت بهذا الالم الفظيع الذي يجعلك في حالة الموت او تلبية الرغبة .

ولما حصلت اخيرا على الاناناس دفعت عني الصحن وانا اقول :

ـ لا اعرف ما حل بي ولكني لا استطيع ان آكل الاناناس» .

ان النساء اللواتي يتلقين عناية زائدة او يعتنين بانفسهن كثيرا تظهر عليهن العوارض المرضية اكثر من غيرهن • اما النساء المسترجلات واللواتي ينذرن انفسهن لوظيفة التناسل فيجتزن تجربة الحمل بسهولة.

وتتبدل العلاقة بين الام والجنين بامتداد الحمل • ويستقر الجنين استقرارا راسخا في جوف امه وتتكيف البنيتان الواحدة مع الاخرى ويجري بينهما تبادل بيولوجي يسمح للمرأة باستعادة توازنها • ولا تعود تشعر بانها فريسة النوع بل هي التي تمتلك ثمرة احشائها • في الاشهر الاولى كانت امرأة عادية وفيما بعد ستصبح اما بشكل واضح فيعوض مجد الامومة عن ضعفها • ونساء كثيرات يجدن حينئذ سلما عجيبا في حملهن • ولا يعود احد يطلب اليهن القيام بعمل او بذل مجهود ولا يعود من شأنهن الاهتمام ببقية الناس • ان احلام المستقبل التي كانت تداعب مخيلتهن صارت حقيقة واقعة •

وترى المرأة نفسها ايضا قد صارت محط الاهتمام • كانت كزوجة تتألم من تبعيتها للرجل ، الا الآن فلم تعد متاعا جنسيا او خادمة بل انها تجسيد للنوع ووعد بالحياة والخلود • اما الاشخاص المحيطون بها فيحترمونها وحتى ان نزواتها بالذات تصبح مقدسة •

ان ذلك يشجعها ، كما رأينا ، على اختلاق الرغبات وتصور الوهم • تقول (هـ • دوتش) «ان الحمل يتيح للمرأة ان تظهر بعض الافعال بمظهر العقلانية ولولاه لبدت سخيفة» •

وهناك نساء اخريات يندفعن مع اهميتهن الجديدة ويتبنين اساطير الرجال : فيقابلن صفاء الفكر بليل الحياة الخصيب ، والشعور الواضح

بألغاز الباطن ، والحرية الخصبة بثقل البطن • ان المرأة المرشحة للامومة تحس بنفسها كينبوع ، كجذر • واذا غفت فنومها نوم الفوضى حيث تختمر العوالم • ومنهن ايضا من يتبنين انفسهن ويسحرن بالحياة التي تنمو ضمنهن •

وعلى العكس من ذلك ، تتألم النساء اللواتي يعتبرن انفسهن متاعا جنسيا ويحببن انفسهن في جمال جسمهن من رؤية انفسهن دميمات مشوهات عاجزات عن استثارة الشهوة • ولا يبدو الحمل بالنسبة اليهن كعيد واغناء بل كانتقاص لشخصهن •

نرى في كتاب «حياتي» (لايزودورا دانكان) :

«كان الطفل يشعر بوجوده • وكان جسمي الجميل المرمري يتحطم ويتشوه ، كنت احس احيانا وانا اسير على شاطىء البحر بفيض من القوة والعزيمة واقول في نفسي : هذا المخلوق الصغير سيكون لي ، لي وحدي ، لكن كان يخيل الي في ايام اخرى انني حيوان بائس وقع في الفخ • وكنت افكر غالبا وانا اتقلب بين اليأس والامل ، في تطوافي ايام صباي وفي نزهاتي الهائمة••• كل ذلك كان شيئا قديما ضائعا في الضباب الذي يؤدي الى انتظار الطفل ، هذه التحفة الفنية الموجودة تحت متناول اية فلاحة • حينئذ بدأت تنتابني كل انواع الرعب • وعبثا كنت احاول اقناع نفسي بأن لكل النساء اطفالا وان ذلك امر طبيعي ، ومع ذلك كنت احس بالخوف • الخوف من اي شيء ؟ طبعا لا من الموت ولا من الالم • كان تشوه جسمي يزداد يوما بعد يوم امام عيني المندهشتين • وغالبا ما كنت احس بنفس ، بائسة مقهورة ، بالرغم مني • الصراع مع الحياة ، مع هذه العملاقة ، لم يكن صراعا متكافئا ، الا انني كنت انتقل بفكري

الى الطفل الذي سيولد فتتجر كل احزاني . يا لها من ساعات قاسية ، ساعات الانتظار في الليل ! كم تدفع غاليا لتحصل على مجد الامومة » .

وفي مرحلة الحمل الاخيرة يرتسم الانفصال بين الام والطفل، وتشعر النساء بصور مختلفة باول حركة من حركاته ، بضربة رجله على ابواب العالم ، على جوانب الجوف الذي يحجبه في معزل عن الدنيا . وبعض النساء يتلقين بدهشة هذه الاشارة التي تعلن عن وجود حياة مستقلة ، وبعضهن يُكرن في التسهن بترف كوعاء يتضمن شخصا غريبا . ومن جديد يتكدر الاتحاد بين الجنين وجسم الام وتحس المرأة بالضغط والتوتر وصعوبة التنفس . هذه المرة ، لا يمتلكها النوع غير المميز بل يمتلكها هذا الطفل الذي سيولد . قبل الآن لم يكن سوى صورة وامل، اما اليوم فهو حاضر حضورا ثقيلا . وان حقيقته تخلق مشاكل جديدة .

كل انتقال مقلق ، لذلك تبدو ولادة الطفل مخيفة جدا . وحينما تقترب المرأة من الاجل المحدد تعود كل مخاوف الطفولة الى النشاط . فاذا احست بنفسها ملعونة من قبل امها نتيجة للشعور بالاثم اقنعت نفسها انها ستموت او ان طفلها سيموت . وقد وصف تولستوي في قصته «الحرب والسلم» امرأة كانت ترى في الولادة حكما بالاعدام وقد ماتت بالفعل .

تكتسب الولادة طابعا مختلفا بحسب الاحوال . فالام تتمكن ان تحافظ في جوفها على كنز اللحم الذي هو قطعة ثمينة من ذاتها وتتمنى في نفس الوقت الخلاص من شيء مزعج ، تريد ان تمسك اخيرا بحملها بين يديها ولكنها تخاف من المسؤوليات الجديدة التي سيخلقها تحقيق

هذا الحلم • قد تنتظر هذه الرغبة او تلك ولكن المرأة تكون غالبا موزعة بين الرغبتين • وغالبا ما تزمع ان تثبت لنفسها وللمحيطين بها انها تستطيع التغلب على التجربة بغير مساعدة ولكنها في الوقت نفسه تأخذ على العالم والحياة وعلى اقاربها هذه الآلام التي تحل بها وتبنى عن احتجاج مسلكا سلبيا • والنساء المستقلات يحاولن جهدهن ان يلعبن دورا ايجابيا في اللحظات التي تسبق الولادة واثناء الولادة بالذات • واذا كن من النوع الطفولي فانهن يتركن امرهن بكل سلبية للقابلة ولامهاتهن • وبعضهن تدفعهن كبرياؤهن الى عدم الصراخ كما يرفض بعضهن تلقي التوجيهات •

وبصورة عامة ، يمكن القول ان النساء يعبرن في هذه الازمة عن موقفهن العميق تجاه العالم بشكل عام وتجاه الامومة بشكل خاص :

فهن صابرات او مستسلمات او ملحات او ثائرات •••

هذه الاستعدادات النفسية تؤثر تأثيرا بالغا في مدة وصعوبة الحمل الذي يتعلق طبعا بعوامل عضوية صرفة ايضا • وانه لامر ذو دلالة ان المرأة تحتاج بصورة طبيعية الى المساعدة فتنهض بالوظيفة التي اوكلتها اليها الطبيعة • وهناك فلاحات معتادات على الشدة يلدن بانفسهن الا ان وحدتهن تؤدي غالبا الى موت الطفل او اصابة الام بامراض غير قابلة الشفاء • ومن الطبيعي ان يكون الصراع بين مصلحة الفرد المؤنث ومصلحة النوع ، من الشدة بحيث يؤدي غالبا الى موت الام او الطفل وان توسط البشر عن طريق الطب والجراحة هو الذي انقص انقاصا كبيرا ، بل ازاح تقريبا ، الطوارئ ، التي كانت كثيرة الوقوع سابقا • وان

طرق التخدير المنتشرة في امريكا تنافي قول التوراة : «ستلدين في الالم» .

تبدو الولادة بالنسبة الى بعض النساء كاستشهاد ، وبالنسبة الى بعضهن تبدو كتجربة سهلة التحمل . وقليلات هن اللواتي يشعرن بلذة جنسية بسبب الولادة .

كتبت احداهن تقول :

«انني مخلوقة شهوانية لدرجة ان الولادة نفسها هي ، بالنسبة الي ، عملية جنسية كانت عندي سيدة جميلة جداً تعتني وتحقنني ، وكان ذلك كافياً ليضعني في حالة من التهيج الكبير المصحوب بالرعشات العصبية»

وبعضهن يدعين انهن شعرن خلال ولادتهن بالقدرة المبدعة . فقد قمن حقاً بعمل ارادي وانتاجي . وعلى العكس من ذلك تشعر الكثيرات انهن سلبيات وادوات يحل بها الالم والتعذيب .

★ ★ ★

والعلاقات الاولى بين الام ووليدها هي ايضاً مختلفة . فبعض النساء يتألمن من الفراغ الذي يشعرن به في جسمهن ويخيل اليهن ان كنزهن قد سرق منهن ولكن كل ام شابة تحس في نفس الوقت بفضول متعجب . انها لاعجوبة غريبة ان يرى المرء وان يمسك بيديه كائناً حياً تكون ضمن ذاته وخرج من ذاته . لكن ماذا كان بالضبط دور الام في هذه الحادثة الخارقة التي قذفت الى الارض بوجود جديد ؟ انها تجهل ذلك . لولاها لما كان الطفل موجوداً ولكنه مع ذلك يفلت منها . انها تحس

بالحزن المندهش وهي تراه في الخارج منقطعا عن ذاتها او غالبا ما تحس بخيبة الامل • وهي تريد ان تحس به تابعا لها بصورة اكيدة مثل يدها الخاصة •

انها لا تملك اي ماض مشترك مع هذا المخلوق الصغير الاجنبي وكانت تنتظر ان يكون مألوفا لديها مباشرة • الا انه قادم جديد وهي مندهشة من اللامبالاة التي تقابله بها • لقد كان صورة وشيئا لا متناهيا اثناء الحمل • وكانت الام تلعب في مخيلتها دور امومتها المقبلة • وانه الآن شخص صغير محدود موجود وجودا واقعيا وانه ضعيف وملح • ويتمازج الفرح بوجوده الفعلي مع الاسف من انه ليس سوى هذا • ولكن عن طريق الارضاع تجد ثانية كثير من الامهات الشابات علاقة حيوانية اليفة مع طفلهن • والارضاع اكثر ارهاقا من الحمل ولكنه يتيح للمرضع ان تمدد حالة الفرحة والامن التي كانت تتمتع بها وهي حامل •

الا ان هناك نساء لا يستطعن تغذية طفلهن وتدوم لديهن اللامبالاة المندهشة الخاصة بالساعات الاولى الى ان يجدن مع الطفل علاقات ملموسة •

وهناك ايضا امهات كثيرات يحل بهن الخوف من مسؤولياتهن الجديدة • فخلال الحمل ، لم يكن عليهن الا ان يتوكلن على جسمهن ولم يكن تطلب منهن اية مبادرة • اما الآن فامامهن شخص له عليهن حقوق • وان بعضهن يدغدغن طفلهن ما دمن في المستشفى فرحات ولا مباليات الا انهن يبدأن بالنظر اليه ككعبء حالما يعدن الى بيوتهن • وحتى الارضاع لا يسبب لهن اى فرح ، بل على العكس ، فهن يخفن على

صدورهن • ان فم الطفل يجرحهن ويبدو لهن انه يمتص منهن القوة والحياة والسعادة • ويفرض عليهن عبودية صعبة مع انه لم يعد جزءا منهن • انه يبدو لهن كطاغية فينظرن نظرة الخصام الى هذا الشخص الاجنبي الصغير الذي يهدد جسمهن وحريتهن وكل ذاتهن •

★ ★ ★

وتتدخل عوامل اخرى كثيرة • فعلاقات المرأة بامها تحافظ على كل اهميتها • تروي (هـ دوتش) حالة مرضع شابة كان حليبها ينضب كلما زارتها امها لتراها • وهي تطلب المساعدة غالبا ولكنها تغار من العناية التي تقدمها امرأة اخرى للطفل •

كما ان لعلاقات الاب مع الطفل وما يحس به من عواطف تأثيرا كبيرا ايضا • وان مجموعة من الاسباب الاقتصادية والعاطفية تعين وضع الطفل كعبء وقيد او كتحرير وامن •

وهناك حالات يتحول فيها الخصام الى حقد ظاهر يتجلى في الاهمال البالغ او المعاملة السيئة •

ويعتبر الخبراء في التحليل النفسي ان الامهات اللواتي عندهن فكرة ثابتة يفعلن شرا باطفالهن واللواتي يتخيلن حوادث فظيعة ، يشعرن كلهن تجاه اطفالهن بعداء يحاولن كبته •

ان ما يميز هذه العلاقة عن سائر العلاقات البشرية ان الطفل نفسه لا يتدخل في الايام الاولى • وليس لابتساماته وغمغماته مدلول الا ما تفترضه الام • وكيما يبدو الطفل ساحرا او مزعجا يتعلق الامر كله بالام

لا بالطفل . لذلك تحس النساء الباردات السوداويات اللواتي كن يتوخين فيه الصحبة والدفء بخيبة الامل .

ان حادث الانتقال الى الامومة كغيره من حوادث الانتقال بسبب خيبة امل مكدرة عند الاشخاص الذين يأملون ان يكون بوسع حادث خارجي ان يجدد حياتهم ويبررها .

هذا هو الشعور الذي نجده عند صوفي تولستوي . فقد كتبت : «كانت هذه الاشهر التسعة اقطع ما رأيت في حياتي . اما الشهر العاشر فالاجدر ان لا أتحدث عنه» .

وهناك امثلة اخرى تثبت عدم وجود «غريزة» الامومة . هذه الكلمة لا تطبق ابدا على النوع البشري . ان موقف الام يتحدد بمجموع وضعها وطريقة اخذ هذا الوضع على عاتقها .

واذا كانت بعض النساء اللواتي يكن «منجبات» اكثر منهن امهات ، يتوقفن عن الاهتمام بالطفل حالما يبلغ الفطام او حالما يولد ، ويتمنين ان يحملن من جديد ، فان كثيرات من النساء يشعرن ، على العكس ، بان الانفصال نفسه هو الذي يعطيهن الطفل ، فهو لم يعد قطعة غير متميزة من ذاتهن بل هو قطعة من العالم يمكن رؤيته ولمسه .

تعبر (سيسيل سوفاج) عن بهجة الامومة المتملكة المستحوذة بقولها :

هأنتذا حبيبي الصغير
على سرير امك الكبير
يمكنني ضمك في حبور
ووزن شأن غدك النضير

يا مرحبا تمثالي الصغير
من الدما واللحم والسرور
يا صورتي وثورة الشعور

وتأخذ الامومة شكلا آخر حينما يكبر الطفل ، ففي الايام الاولى لا يكون سوى طفل مثل غيره من الاطفال وليس له الا وجود عام ، ثم تأخذ فرديته بالظهور شيئا فشيئا . والنساء المتحكمات يشعرن حينئذ بجاهه بالبرود ، وعلى العكس من ذلك ، يبدأ بعضهن الآخر بالاهتمام به . وتصبح علاقة الام بالطفل متزايدة التعقيد ، فهو صورتها ولكنه في نفس الوقت شخص مستقل قد يعصاها . انه موجود وجودا حقيقيا ولكنه موجود في اعماق المستقبل وجودا خياليا تصوريا كيافع وبالغ . هو ثروة وكنز من جهة ، وعبء وطاغية من جهة اخرى .

ان الام كالعاشقة تشعر بالخيلاء اذ ترى نفسها ضرورية ، فهي ترى تبريرا لذاتها في استجابتها لما يطلب منها . على ان صعوبة حب الام وعظمته انه لا يستند الى المبادلة . فالمرأة لا ترى امامها رجلا او بطلا بل كائنا صغيرا يتمتع بالشعور في جسم ضعيف . وتبقى امامه وحيدة ولا تنتظر منه اي ثواب مقابل عطاياها التي لا تجد تبريرا لها الا في حرية المرأة ذاتها . هذا الكرم يستحق المديح الذي لا يكف الرجال عن اغداقه على المرأة . ولكن التعمية تبدأ حينما يعلن «دين الامومة» ان كل ام نموذجية . يمكن لتضحية الام ان تكون نموذجا كامل الاصالة ، ولكن الامومة هي عادة توفيق عجيب بين الانانية والغيرية والحلم والصدق وسوء النية والتضحية والقسوة .

ان الخطر الاكبر ، التي تعرض عاداتنا الطفل اليه ، هو ان الام التي

يسلم اليها الطفل تسليما تاما هي تقريبا امرأة غير مكتفية ، فهي باردة او عطشى من الناحية الجنسية ، وتشعر انها اقل من الرجل من الناحية الاجتماعية وهي غير متمكنة من العالم والمستقبل، لذلك تحاول التعويض عن هذا الكبت من خلال الطفل • فاذا ادركنا الى اي حد يجعل وضع المرأة صعبا عليها ان تحقق ازدهارها التام ، وما يمكن في اعماق نفسها من رغبات وثورات ومطالب فاتنا نفزع لان امر الطفل الاعزل يترك اليها، وكما كانت تهدهد وتعذب دميتها بصورة دورية لما كانت طفلة ، فان مسلكها الحالي مسلك رمزي ، الا ان هذه الرموز حقيقة واقعة شديدة بالنسبة الى الطفل • فالام التي تضرب الطفل لا تضربه وحده فقط ، او انها لا تضربه مطلقا اذا جاز القول ، بل تنتقم من الرجل ومن العالم ومن ذاتها ••• ولكن الطفل هو الذي يتلقى الضربات •

والى جانب هؤلاء الامهات الساديات ، يوجد كثيرات من ذوات النزوات وان ما يسرهن هو التحكم • فالطفل دمية اذا كان صغيرا جدا ، وفيما بعد يرذن ان يكون عبدا يطيعهن اطاعة عمياء • والنساء لا يزهدن غالبا في الحصول على مكافأة من العناية التي يوفرنها للطفل ، انهن يصغن من خلاله كائنا خياليا يرى ان امه تستحق الاعجاب ويفرضن عليه ان يشبه زوجهن او ، بالعكس ، ان لا يشبه ، او ان يجسد ابا او اما او جدا مبجلا •

ان هذا العناد في التربية وهذه السادية الخاضعة للنزوة يتمازجان غالبا ، وتحتج الام عن غضبها بانها تريد اعداد طفلها •

وان بعض النساء كيما يعوضن عن فراغ قلبهن ويجازين خصومه

لا يردن الاقرار بها ، لا يحتملن ابتعاد الطفل عنهن ويتخلين عن كل لذة وعن كل حياة شخصية ، مما يسمح لهن بالظهور في مظهر الضحية ، ثم يستخلصن من هذه التضحيات حق انكار كل استقلال للطفل . ان مشاهد الخضوع هذه تسبب لدى الطفل شعورا بالاثم يؤثر في كل حياته . وان العذر الكبير للام ان الطفل بعيد جدا عن ان يجلب لها استكمال الذات وعدت به منذ طفولتها ، فتقتص منه عن التعمية التي كانت الام ضحية لها . كانت تستطيع التصرف بدمياتها دون ان تكون خاضعة للمسؤولية ، اما الآن فالمجتمع وزوجها وامها وكبرياؤها الخاصة يسألونها الحساب عن هذه الحياة الصغيرة الاجنبية كما لو كانت من صنعها .

* * *

ان مصالح الابوين ومصالح الطفل لا تلتقي دائما ، وعن ذلك تنجم المأساة . فهو لا يفهم التفسيرات التي تحاول امه ان تبديها ، وهي لا تستطيع النفوذ الى داخل شعوره ، وان احلامه ورغباته تشكل عالما مغلقا غير شفاف . والام لا تستطيع ان تنظم الا من المخارج وبصورة متخبطة هذا الكائن الذي يشعر بهذه القوانين التجريدية كعنف سخيف لا معنى له .

وحينما يكبر الطفل يبقى عدم التفاهم هذا . فالطفل يدخل عالما من المصالح والقيم تجهله الام . وان هذه قد يبلغ غيظها حد ذرف الدموع لانها تحاول قيادة كائن لا يمكن التجاوب معه .

ان الوضع يختلف بحسب كون الطفل صبيا او بنتا . ورغم ان

الصبي اصعب قيادا من البنت فان النساء يفضلن الذكور لما لهم من نفوذ وامتيازات فعلية • فهن يقلن : «انه لعظيم ان تنجب الام ذكرا» • قلنا انهن يحلمن بانجاب «بطل» والبطل يكون عادة من الجنس المذكر • فالابن سيكون قائد رجال ومبدع اعمال ، وسيفرض ارادته فوق سطح الارض وستساهم امه في خلوده وسيعطيها هو ما لم تستطع هي عمله • ومن خلاله ستستحوذ على العالم •

ان للمرأة موقفا ملتبسا ازاء سمو الذكر • واذا كانت حياتها الزوجية او الغرامية قد جعلتها معادية للرجال فانها تحس بالاكتفاء حينما تتحكم بالمخلوق الذكر في شكله الطفولي • وان احلامها اكثر تناقضا فهي تريدها لا متناهية وواقعة في قبضة يدها في نفس الوقت • ومن حسن حظ الغلام انه يستطيع بسهولة التحرر من هذا التسلط لان العادات والمجتمع تشجعه على ذلك • والام نفسها ترضخ للامر لانها تعرف ان الصراع مع الرجل صراع غير متكافىء • وتغري نفسها بان تصبح الام الحزينة او ان تغذي الكبرياء بانها انجبت قاهرها •

الا ان الام لا ترى في بنتها فردا من الفئة المختارة المميزة بل تبحث من خلالها عن صورتها لذلك يأخذ الصراع بين الام وابنتها شكلا حادا •

هناك نساء راضيات عن حياتهن رضاء يدفعهن الى اعطاء بناتهن نفس ما كان لهن من حظ • وبعضهن يدفعهن الاشمئزاز من جنسهن الى اعطاء بناتهن تربية الذكور •• وقد ينظرن الى الفتاة التي هي صورة منهن ، على انها مخلوقة من النوع السامي ليعوضن عن نقصهن ، او انهن يحاولن ان يفرضن على ابنتهن نفس مصيرهن • فتقول الواحدة

منهن لابنتها : «ما كان حسنا بالنسبة الي فهو حسن بالنسبة اليك» .

ولا تنشأ النزعات الحقيقية الا حينما تكبر الفتاة . كانت هذه تنتمي وهي صغيرة ان تؤكد استقلالها وكان ذلك يبدو في عين الام انكارا بغيضا لايادنيها وفضلها . فهي لا ترضى ان تصبح صورتها شخصا آخر . هكذا يهدم استقلال البنت آمالها . فتشعر بغيرة مزدوجة : فهي تغار من الناس الذين يأخذون ابنتها منها كما تغار من ابنتها التي تغزو وتسرق منها جزءا من العالم . وتتسلط هذه الغيرة اولا على علاقات البنت بأبيها . لان الام تحب ان تسود سيادة تامة على عالمها النسوي وتريد ان تكون الوحيدة التي لا يمكن الاستعاضة عنها : وها هي ذي ابنتها الشابة تعيدها الى وظيفتها العامة الصرفة .

فاذا غابت يومين مثلا عن البيت فانها توبخ ابنتها اذا وجدت البيت في حالة فوضى ولكنها تبلغ ثورة الغضب اذا تبين لها ان الحياة العائلية سارت سيرا تاما بدونها . انها لا ترضى ان تصبح ابنتها حقا وفعلا نسخة ثانية عنها تحل محلها . ولما كانت هي حبيسة الحياة الجدية فانها تحسد ابنتها على كل المشاغل والتسليات التي تنتشلها من ملل الحياة المنزلية .

وتنتهي الام بقبول انكسارها طوعا او كرها وتسود بينها وبين ابنتها الشابة صداقة معذبة . الا ان الام تبقى الى الابد خالية الظن شاعرة بالحرمان في حين تعتقد البنت غالبا ان اللعنة تلاحقها .

ان الوصف السابق يظهر لنا خطأ اعتقادين شائعين :

الاول ان الامومة تكفي لارضاء المرأة .

والثاني ان الطفل يجد سعادة اكيدة بين ذراعي امه .

ان علاقة الام باطفالها تتحد ضمن الاطار العام للحياة . وترتبط بعلاقاتها مع زوجها وماضيها ومشاغلها وذاتها . وان العلاقات الزوجية والحياة المنزلية والامومة تشكل مجموعة مترابطة . فاذا كانت الام متفقة مع زوجها حملت اعباء المنزل بفرح واذا كانت سعيدة مع اطفالها اصبحت متساهلة مع زوجها . الا ان هذا الانسجام صعب التحقيق لان المهام المختلفة المنوطة بالمرأة لا تتفق جيدا مع بعضها بعضا .

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية

•

ليست الاسرة مجموعة منغلقة على نفسها ، بل هي على اتصال مع خلايا اجتماعية اخرى • وليس المنزل (حياة داخلية) يقبع الزوجان ضمن حدودها فحسب بل هو ايضا تعبير عن مستوى معيشة وثروة وذوق ينبغي ان يعرض امام عيون الآخرين • وعلى عاتق المرأة خاصة يقع عبء تنظيم الحياة الخارجية • فالزوج مرتبط بالجماعة كمنتج وكمواطن بوشائج التضامن العضوي القائم على تقسيم العمل ، اما العائلة فهي شخص اجتماعي يتحدد بالاسرة والطبقة والوسط والعرق • والمرأة هي الاقدر على تجسيدها لان علاقات الزوج المهنية لا تتفق غالبا مع قيمته الاجتماعية بينما تستطيع المرأة المتحررة من رباط العمل ان تكرس نفسها على معاشرة امثالها • وان واجبها الاجتماعي الخارجي في تمثيل العائلة يختلط مع ما تشعر به من مسرة في اظهار نفسها •

انها تعني بملابسها وقت الخروج او الاستقبال • كما ان لزينتها صفتين : تهدف الزينة اولا الى ابراز مقام المرأة الاجتماعي وتجسد ايضا الانانية النسوية • ان العناية بالجمال واللباس نوع من العمل بالنسبة الى المرأة التي يبدو لها انها تصطفي ذاتها وتخلقها خلقا جديدا • هكذا

تضطرها الاعراف الى ان تخلع نفسها على صورتها • وان المجتمع نفسه يطلب من المرأة ان تجعل من نفسها متاعا جنسيا وان هدف الازياء التي تخضع المرأة لها ليس ان يبرزها كفرد مستقل بل ليقدمها فريسة لرغبات الذكور •

ان ملمس الحرير الناعم يعوض عن قسوة العالم الجنسي • واذا كانت اكثرية المساحقات يرتدين الملابس على طريقة الذكور فليس ذلك عن اقتداء بهم وعن تحد للمجتمع فقط ، انهن غير محتاجات الى دغدغة المخمل او الساتان لانهن يتلقفن مزاياه السلبية على الجسم النسوي • والمرأة توحد ذاتها مع غنى العالم وتذوب في ثروانه • والتي لا تتحكم بحبها للاشياء الثمينة وما تحويه من رمز تنسى وجهها الخاص وقد تعني بلباسها بصورة غريبة • فالفتاة الصغيرة مثلا تحسب نفسها جميلة اذا تحلت بالشرائط لانها توحد ذاتها مع زينتها العجيبة •• وقد تدهش احيانا لزينة بعض العجائز التي تلفت النظر الى تجاعيدهن ولكنهن يكن قد زهدن في الاعجاب وصارت الزينة بالنسبة اليهن مجرد لعبة كما كانت ايام طفولتهن •

وعلى العكس من ذلك ، قد يمكن للمرأة الانيقة ان تنشد اللذائذ الحسية او الجمالية في زينتها ولكن يجب ان توفق بينها وبين انسجام صورتها • انها لا تحب الاشياء التي تزينها بل تحب نفسها مزينة •

ليست الزينة تبرجا فقط بـل هي ايضا تعبير عـن وضع المرأة الاجتماعي • والمومس وحدها تظهر الناحية الاولى فحسب لان مهنتها ان تكون متاعا جنسيا • وكما كانت تعلن عن مهنتها سابقا بتغطية ثوبها

بالورود فانها تعلن عنها اليوم بالاحذية العالية والساتان الملتصق بجسمها وشريحها الفاضح وعطرها الثقيل . ويوجه اللوم عادة الى المرأة التي تلبس مثل الموسات ، لان مزايا المرأة الجنسية تندمج بالحياة الاجتماعية ولا ينبغي لها ان تبرز الا من خلالها .

واذا كانت المرأة التي تستثير بوضوح رغبة الرجل توحي بسوء النوع فان التي تنفره ليست احسن منها ، اذ تبدو كأنها مساحقة تقتدي بالرجال او مصروعة تحاول لفت النظر . والاعراف هي التي تتكفل بتعيين الحد الوسط بين الحشمة وعرض المفاتن .

ان هذا المدلول الاجتماعي للزينة يسمح للمرأة بان تعبر عن موقفها تجاه المجتمع ، بطريقتها في اللبس . فاذا كانت ممتثلة للنظام القائم اسبغت على نفسها شخصية رصينة والا فانها تؤكد باصالتها الخاصة رفضها ما هو متعارف عليه . ومما يلفت النظر ان المرأة «المتحررة» في كثير من الروايات ، تبرز نفسها بجرأتها في الزينة التي تظهر صفتها كمتاع جنسي، اي انها تبرز تبعيتها .

وحتى لو ليست كل واحدة بحسب وضعها فذلك نوع من التمثيل، فحالما تبدو المرأة متزينة متبرجة فانها تصبح مثل اللوحة او التمثال او الممثل على المسرح ، ان هذا الخلط بينها وبين شيء خيالي وكامل مثل ابطال القصص هو الذي يعجبها وهي تبذل جهدها كيما تذوب فيه . وكلما تبنت زينة جديدة حسبت نفسها شخصا جديدا . ويوما بعد يوم تتكرر هذه اللازمة :«كنت فاتنة في اللون الاسود... في اللون الرمادي كنت فاتنة ... كنت في اللون الابيض فاتنة» . فاذا كانت الزينة تكتسب

هذه الاهمية البالغة بالنسبة الى كثير من النساء فلانها تضع بين ايديهن العالم وذاتهن بصورة وهمية •

وبما ان المرأة متاع اصبح من المفهوم ان تعدل طريقة لباسها وتبرجها من قيمتها الفضية • وتعتبر الاناقة سلاحا ومدعاة للاحترام ورسالة توصية •

ولكنها عبودية في الوقت نفسه ، لان القيم التي تنجم عن الاناقة لا تأتي مجانا بل يجب دفع ثمنها غاليا لدرجة ان مفوضي الشرطة يفاجئون احيانا في المخازن الكبرى احدى نساء المجتمع او احدى الممثلات وهي تسرق عطورا او جوارب حريرية ••• وبعض النساء يتعاطين البغاء او «يقبلن المعونة» كيما يلبسن • والزينة هي التي تعين مقدار حاجتهن الى النقود •

على ان حسن اللباس يتطلب ايضا زمنا وعناية وينجم عن مثل هذا العمل احيانا بهجة حقيقية • وفي هذا الميدان ايضا مجال للاكتشاف كنوز خفية، والمفاصلات والحيل والاستنباط ، واذا كانت المرأة ماهرة فقد تصبح مبدعة • وتبدو ايام العرض بالنسبة اليها كمغامرات جنونية • والثوب الجديد هو وحده بمثابة عيد •

وتستطيع المرأة اليوم ان تعنى بجسمها وتكيفه بالرياضة والاستحمام والتدليك والنظام الغذائي فتحكم بوزنها ولون بشرتها ، كما تسمح لها اصول التجميل الحديثة ان تضيف الى جمالها مزايا ايجابية • ولكن عليها ان تجابه الزمن لان الجسم يبلى مع الوقت • وان ما تؤول اليه كل صيرورة حية من انحطاط مخيف يدفع بعض النساء الباردات او المحرومات الى الفزع من الحياة نفسها •

ويتعس عنادهن السلبي حياتهن وحياة الآخرين : الضحك الزائد يجعد الوجه ، الشمس تفسد البشرة ، الامومة تجعل الوجه والجسم دميمين ... الخ. الا ان كل هذا الاعتناء لا يمنع ظهور الشعر الابيض • وهي تعرف منذ طفولتها ان لا مفر من هذا المصير •

اما مطالب الزوج فتتصف بالازدواج • فاذا كانت زوجته جذابة جدا احس بالغيرة ، بيد ان كل زوج يود ان تكون زوجته انيقة • وقد رأينا ان القيم الجنسية والاجتماعية في الزواج لا تنسجم تماما • هذا التناقض ينعكس هنا ايضا • فالمرأة التي تبرز جاذبيتها الجنسية تبدو رديئة بالنسبة الى زوجها • واذا ليست ببساطة فانه يقرها على ذلك ولكن ببرود • انه لا ينظر اليها بعينيه الخاصتين بل يتفحصها من خلال عيون الآخرين • واذا كان الرجل يحب امرأة في عريها حبا ملتهبا فانه يهواها بغض النظر عن تبرجها • وعلى العكس من ذلك ، اذا كف عن حبها فاجمل ثوب في العالم يصبح عديم الجدوى • ان الزينة تصلح ان تكون وسيلة للغزو ولا تصلح ان تكون سلاحا دفاعيا • ومزيتها الخاصة انها تخلق السراب وتعرض للنظر شيئا خياليا • الا ان السراب يتبدد في العشرة اليومية والعواطف الزوجية مثل الحب الجسمي تجري في ميدان الواقع •

كثيرا ما يقال ان المرأة تلبس كيما تثير غيرة النساء الاخريات • هذه الغيرة هي اشارة واضحة الى النجاح ولكنها ليست هدفا • ان المرأة تبحث من خلال الاراء المعجبة عن تأكيد مطلق لجمالها واناقتها وذوقها اي عن تأكيد بذاتها • انها تلبس لتظهر نفسها ، وتظهر نفسها لتصبح ، شخصا كائنا • وبذلك تخضع نفسها لتبعية مزدوجة • ان تضحية ربة

البيت نافعة وان لم يعترف بها ، اما جهد المتأنقة فيذهب هباء ان لم يطلع عليه احد ، فالمرأة تنشد تقييما نهائيا لذاتها وهذا التطلع الى المطلق يجعل بحثها مرهقا ، اذ يكفي ان ينتقد شخص واحد فقط قيمتها حتى تكون هذه القيمة غير جميلة ، والثناء يخدعها ولكن يكفي تكذيب واحد لتهديمه ، ولما كان المطلق لا يتجلى الا بسلسلة من الظهور لا متناهية فلا يمكنها ان تربح نهائيا ، لذلك تكون المتأنقة حساسة متأثرة ولذلك ايضا قد يمكن لبعض النساء الجميلات ان يقتنعن بحزن انهن غير جميلات وغير انيقات وانهن يحتجن الى استحسان علوي يصدر عن حكم مجهول الهوية ، انهن ينشدن جوهرا ذاتيا يستحيل تحقيقه ، ونادرات هن المتأنقات اللواتي يحددن بذاتهن قوانين الاناقة ولا يمكن لاحد ان يعيب هفوة لانهن هن اللواتي يبنين قواعد النجاح والفشل ، اولئك هن القادرات على اعتبار انفسهن ناجحات نجاحا نموذجيا ، ولكن هذا النجاح مع الاسف لا يجدي شيئا ولا ينفع احدا .

وتقتضي الزينة الخروج والاستقبال بل ان ذلك هو الهدف الاصلي منها ، وفي اغلب الاحيان ، بينما ينصرف الزوج الى اعماله اليومية تقوم المرأة بواجباتها الاجتماعية ، وقد وصف السأم الذي يخيم على هذه الاجتماعات النسائية كثيرا : ينجم ذلك عن ان النساء المجتمعات للقيام بالتزاماتهن الاجتماعية ليس لديهن ما يتناقلنه ، فلا يوجد هناك مثلا اية مصلحة مشتركة تربط بين زوجة المحامي وزوجة الطبيب ، اما الحديث عن الاطفال والمتاعب المنزلية فوقعه غير حسن في محادثة عامة ، فلا يبقى امامهن الا الكلام عن الطقس وعن آخر قصة تثير الاهتمام وبعض الافكار العامة المستمدة من ازواجهن .

ولا يعني الاستقبال ، بالنسبة الى ربة البيت ، تلقي الآخرين في بيتها الخاص فحسب بل انها تعرض ما لديها من اواني فضية وزجاجية وما شاكل ذلك .

ان الصداقات النسوية التي تعقدها المرأة ثمينة بالنسبة اليها وتختلف في طابعها عن العلاقات السائدة بين رجال . فهؤلاء يتناقلون فيما بينهم بصفتهم اشخاصا مشاريعهم الشخصية من خلال الافكار . اما النساء فيتبادلن الاسرار والوصفات ، وتتحدن مع بعضهن بعضا ليشكلن عالما معاكسا لعالم الرجال ، ويقارن بين تجاربهن . ويصبح الحمل والولادة والاطفال والشؤون المنزلية الاحداث الاساسية في التاريخ البشري .

ان قيمة هذه العلاقات تتجلى في صدقها وصحتها . فالمرأة امام الرجل ممثلة وهي تكذب اذ تعرض امامه شخصية خيالية من خلال زينتها وحركاتها ، اما مع النساء الاخريات فهي ليست في حالة حرب بل منهمكة في تهيئة زينتها واعداد حيلها . والنساء يشعرن بتضامنهن شعورا عفويا اكثر من الرجال . ولا يلتفتن نحو عالم النساء بل يلتفتن جميعا نحو عالم الذكور ، وكل واحدة منهن تتمنى ان تحتكر قيمة لشخصها ، على ان كل واحدة منهن ترى في الاخرى غريمة في ميدان التبرج والحب خاصة .

النساء هن لبعضهن بعضا رفيقات في الاسر وانهن يتبادلن المعونة كيما يتحملن سجنهن ولتهيئة هروبهن اذا اقتضت الضرورة ، ولكن المنقذ لا يأتي الا من عالم الذكور . وبالنسبة الى اغلبية النساء يفقد الزوج من تأثيره ، الا ان الرجل يبقى مع ذلك حقيقة العالم والسلطة العليا وباعث اللذة والطمأنينة .

الفصل الرابع

مومسات ومحظيات

•

تعد الدعارة من متممات الزواج الحتمية • وقد قال مورجان : «ان العهر يتبع البشرية في موكب حضارتها كظل رهيب يخيم على العائلة» • وقال ماندفيل في كتاب له احدث ضجة كبيرة : «من الواضح انه توجد ضرورة تدفع المجتمع الى التضحية بقسم من النساء في سبيل المحافظة على القسم الآخر» • اي ان وجود طائفة من «الفتيات التائهات» يسمح للمجتمع بمعاملة «المرأة الشريفة» بالاحترام والتقدير اللائقين بها • وتشكل المومس بالنسبة للرجل مبررا لقباحاته ، فهو يحملها نتائج تصرفاته الشنيعة ، ثم ينبذها من المجتمع • وسواء كانت المومس تمارس الدعارة في ظل نظام قانوني يضعها تحت مراقبة سلطات الامن ، او كانت تعمل في السرية والخفاء ، فانها تعامل من قبل الناس في كلا الحالتين كالمنبوذة •

غير ان حالة المومس من وجهة النظر الاقتصادية تماثل حالة المرأة المتزوجة • وقد قال مارو : «ان الفرق بين النساء اللواتي يبعن انفسهن عن طريق الدعارة والبغاء ، وبين اللواتي يبعن انفسهن بواسطة الزواج ، ينحصر في ثمن ومدة عقد البيع» • ويكون العمل الجنسي بالنسبة

للطرفين عبارة عن خدمة تلتزم بها الثانية (المتزوجة) مدى الحياة تجاه رجل واحد ، واما الاولى (المومس) فتؤديها لعدد من الزبائن الذين يدفعون الثمن بصورة مجزأة • ومن وجهة نظر ثانية ، تتمتع المرأة المتزوجة بحماية رجل واحد ضد كل الرجال اما الاولى فانها محمية من قبل جميع الرجال ضد احتكارها لحساب رجل واحد • لكن الاختلاف الرئيسي بين المرأة المتزوجة والمومس يكمن في ان المجتمع يضطهد المرأة الشرعية بصفتها امرأة متزوجة ، لكنها تلقى احترامه بصفتها انسانا بشريا وقد بدأ هذا الاحترام يتغلب بشكل جدي على الاضطهاد لدى المرأة المتزوجة ، اما المومس فانها لا تتمتع بأي حق من حقوق الانسان البشري بل تلخص حياتها بنفس الوقت جميع اشكال العبودية الانثوية •

ما هي العوامل التي تدفع المرأة الى مزاولة الدعارة ؟ لم يعد هنالك اي انسان يعتقد بصحة نظرية (لومبروزو) التي تساوي بين المومسات والمجرمين ، ومن المحتمل ان نتائج الاحصاءات التي تؤكد بأن المستوى الفكري للمومسات هو ادنى من الوسط ، هي نتائج صحيحة ، لأن النساء اللواتي لا يتمتعن بمقدرة فكرية كافية يفضلن اختيار مهنة لا تتطلب منهن اي جهد فكري او اي اختصاص في فرع من الفروع • لكن هنالك عدد كبير من المومسات يتمتعن بمستوى فكري عادي ، ومن بينهن عدد من نادرات الذكاء • ودلت الدراسات من جهة ثانية على ان جنوحهن الى البغاء لا يعود في اغلب الاحيان الى اسباب وراثية او عاهات جسمانية • ولا شك في ان السبب الرئيسي في انتشار الدعارة يعود الى الفاقة والشقاء والحرمان التي يعانيها قسم كبير من سكان البشرية وسوف نرى على الدوام منظر المومسات وهن يتسكعن في الشوارع طالما بقيت

مؤسسات البغاء والشرطة موجودة في عالمنا المليء بالمتناقضات . واذا كان بوسع المومس ان تكسب عيشها بطريقة اخرى ، فان اختيارها لهذه المهنة لا يجب ان يدفعنا للحكم عليها بوجود ميول فطرية داخل نفسها تدفعها الى امتهان البغاء ، والاحرى بنا ان نوجه اللوم الى هذا المجتمع الذي جعل من مهنة البغاء في نظر المومس اشد المهن سهولة واكثرها ربحا .

ان الناس يتساءلون : لماذا اختارت هذه المهنة ؟ والاحرى بهم ان يتساءلوا : لماذا كان الواجب ان لا يقع اختيارها عليها . وقد لوحظ ان عددا كبيرا من (الفتيات) يأتين من اوساط خادمات المنازل ، لان الخادمة تتعرض خلال عملها في اغلب الاحيان الى مختلف انواع الاستعباد والعبودية ، ولا تعامل الا كأداة ، وقد تضطر في بعض الاحيان الى تحمل مضايقات وتحرشات رب البيت الجنسية ، ولذلك يجب ان لا نعجب اذا انحدرت من العبودية المنزلية نحو عبودية اخرى ، لا تنظر اليها الفتاة على انها اشد اهانة لكرامتها بل قد تحلم بانها ستجلب لها السعادة والحرية المفقودتين .

وقد دلت التحقيقات العلمية على ان اغلب محترفات الدعارة ينحدرن من اصل ريفي او من بعض الاوساط العمالية . ولوحظ بصورة خاصة انه بقدر ما تحيط البورجوازية العمل الجنسي وبصورة خاصة البكارة العذرية بهالة من القدسية والمنع والتحريم فان بعض الاوساط الريفية والعمالية تعتبرها امورا عديمة الاهمية . فهنالك عدد كبير من فتيات هذه الاوساط يسمحن بازالة بكارتهن من قبل اول رجل يتعرفن عليه ثم يجدن من الطبيعي بعد ذلك ان يمنحن انفسهن لكل عابر سبيل . وقد

دل تحقيق شمل (١٠٠) مومسة ان واحدة منهن زالت بكارتها وعمرها لم يكن قد تجاوز (١١) عاما و (٢) منهن حول الـ (١٢) سنة من العمر و (٢) حول الـ (١٣) و (٦) حول الـ (١٤) و (٧) حول الـ (١٨) و (٦) حول الـ (١٩) ، اما الاخريات فقد ازيلت بكارتهن بعد سن الـ (٢١) • وقد صرح نصف هذه الفتيات بانهن منحن انفسهن عن حب،اما الاخريات فمن جهل تام بالموضوع •

وقد اشار (كومانغ) في احدى دراساته الى (٥٧) فتاة صغيرة تتراوح اعمارهن بين ١٢ — ١٧ عاما ، سمحن بازالة بكارتهن من قبل اشخاص مجهولين ، لم يتيسر لهن بعد ذلك رؤيتهم مرة ثانية ، وقد وافقن على العملية بدون اي اهتمام ودون الشعور بأية لذة جنسية •

واليكم بعض الحالات التي وردت في دراسة الدكتور (بيزار) :

— الآنسة ج••• من بوردو : تخرجت من معهد الدير وعمرها (١٨) سنة ، تركت احد سكان الغابة وهو مجهول الهوية ، يجرها بدافع الفضول وبدون اية نية سيئة من طرفها نحو عربة مهجورة ، حيث ازال بكارتها •

— ر••• ازيلت بكارتها حوالي السابعة عشرة من عمرها ، من قبل شاب لم يقع نظرها عليه في السابق صادفته لدى احد الاطباء حيث عرض عليها توصيلها في سيارته الى بيتها ، لكنه تركها وحيدة في احد الشوارع المهجورة بعد ان نال وطره منها •

— ب••• ازيلت بكارتها حول الخامسة عشرة من عمرها «دون ان تفكر ماذا تعمل» من قبل شاب لم تره من قبل في حياتها ، وقد انجبت

طفلا جميلا على اتم ما يكون من الصحة بعد تسعة شهور .

— س... ازيلت بكارتها في الرابعة عشرة من عمرها من قبل شاب اصطحبها الى منزله بحجة تعريفها الى اخته . والواقع انه لم يكن للشاب اي اخت وانما كان مريضا بالزهري الذي انتقلت عدواه الى الفتاة الصغيرة .

يفسر البعض هذه السهولة في الاستسلام لدى بعض الفتيات ، بوجود بعض التخيلات الوهمية حول مزاولة الدعارة التي تكلمنا عنها سابقا ، بسبب حقد عائلي او بسبب اشمئزاز الفتاة من العواطف والعمل الجنسي ، او بسبب رغبتها في لعب دور المرأة الكبيرة . وقد لوحظ ان بعض الفتيات يقلدن في صغرهن الغانيات ، فيتزين ويتبرجن بشكل يلفت الانظار . انهن يفعلن ذلك بشكل صبياني في عمر لا يشعرن فيه باية عاطفة جنسية فيحسبن انه بوسعهن اللعب بالنار دون اي ... الى ان يأتي يوم فيصادفن رجلا يأخذ التمثيل على انه حقيقة واقعة فينحدرن من الاحلام الى الاعمال .

«حين يفتح احد الابواب فانه من العسير بقاءه مغلقا» هذا ما صرحت به مومس شابة تبلغ الرابعة عشرة من عمرها . ومع ذلك فمن النادر ان تنزل الفتاة الى الشارع لممارسة مهنة الدعارة ، اثر ازالة بكارتها ، بل هي تمر بمراحل عديدة فتنتقل من عشيق الى آخر ، الى ان يشجعها على مزاولة المهنة طمعا في الربح . ويحدث في بعض الاحيان ان تدفع الاسرة نفسها ، بناتها لممارسة البغاء ، كما تضطر بعض الفتيات اللواتي هجرهن اهلهن الى النزول الى الشارع بعد ان يكون الجوع قد ارهقهن . ومن المعروف كذلك ان موجة الدعارة والبغاء تشتد خلال فترات الحرب

والازمات التي تعقبها .

تقص مؤلفة كتاب (حياة مومس) المنشور جزئيا في مجلة (الازمنة الحديثة)، قصة خطواتها الاولى على النحو التالي (نشرت المؤلفة قصتها تحت اسم مستعار هو ماري تيرز):

«تزوجت وانا لم اتجاوز السادسة عشرة من عمري ، من رجل يكبرني بثلاثة عشر عاما . ولقد تزوجت منه املا في التخلص من جو العائلة المقيت الذي كنت اعيش فيه، ولم يكن زوجي يحلم سوى بانجاب الاطفال ، كان يقول لي : «وهكذا فانك ستضطرين الى البقاء في البيت ولن يتسنى لك الخروج منه» . ولم يكن يوافق على استعمال مواد الزينة او يصحبني الى السينما . وكان علي بالاضافة الى ذلك ان احتمل حماتي التي كانت تتردد على البيت كل يوم وتأخذ جانب ابنها اللعين في كل المناسبات . كان (جاك) اول صبي انجبته .. وبعد اربعة عشر شهرا من ولادته ، انجبت بطرس ... وبما اني كنت اشعر بالملل كثيرا فقد اخذت في متابعة بعض الدروس في التمريض، وكان هذا الاتجاه يسرني جدا ، فدخلت مستشفى في احدى ضواحي المدينة ، وتعلمت من ممرضة شابة اشياء كثيرة كنت اجهلها ، ثم مكثت في مستشفى الرجال ستة شهور دون القيام باية مغامرة . وفي احد الايام دخل غرفتي شاب ضخم الجثة كالبقرة ، لكنه كان صبيا جميلا ، وافهمني انني استطيع تغيير طراز حياتي اذا ذهبت معه الى باريس حيث استطيع ان اجد عملا يدر علي الربح الوفير .. كان يعرف تماما كيف يستطيع اقناعي .. فقررت الذهاب معه ، وكنت سعيدة جدا خلال شهر واحد .. وفي احد الايام صحب معه امرأة تتميز باناقة ثيابها ، وقال لي : «انظري الى هذه ، انها

تعرف كيف تدافع عن نفسها وتكسب اموالا طائلة بكل سهولة • لم اوافق في البدء على انتهاج منهجها ، حتى انني توصلت الى ايجاد عمل لي في احد المستشفيات ، لكي اثبت انني لا اريد ان امتهن مهنة فتيات الشوارع ، لكنني لم استطع المقاومة طويلا • كان يقول لي : «اذا كنت تحبينني • حين تحب المرأة رجلها ، عليها ان تعمل وتضحي لاجله» وكنت ابكي واشعر بالحزن وانا اعمل في المستشفى • اخيرا ••• سمحت لهم بان يأخذونني الى مصفف الشعر وبدأت اتجول في الشوارع ! بينما كان (جول) يتبعني من الخلف ليرى فيما اذا كنت اقوم بمهام المهنة خير قيام ، ولكي ينذرني فيما اذا خطر للبوليس مداهمة المكان ••

تنطبق هذه القصة من عدة وجوه مع القصة الكلاسيكية للفتاة ، التي قدر لها النزول الى الشارع وممارسة البغاء تحت ضغط صديقها وحاميها • ويحدث احيانا ان يلعب زوج الفتاة هذا الدور كما قد تقوم به امرأة اخرى •

وقد اجرى (ل• فيفر) عام ١٩٣١ تحقيقا حول (١٥٠) مومس شابة ، فوجد ان (٢٨٤) منهن ، كن يعشن لوحدهن ، ١٣٢ مع صديق و٩٤ مع صديقة تربطها معها روابط السحاق ، وتشهد بذلك بعض المقتطفات من رسائلهن الحافلة ، باغلاط الاملائية :

سوزان ١٧ سنة • انصرفت الى البغاء مع بقية المومسات • وقد احتفظت بي احداهن زمنا طويلا وكانت تغازلني وتداعبني كثيرا ، لذلك تركت شارع •••

اندره ١٥ سنة ونصف • تركت اهلي لاعيش مع صديقة لي صادفتها

في احدى الحفلات الراقصة ، وتبينت بسرعة انها تريد ان تحبني كما يفعل الرجال ومكثت معها اربعة شهور ثم ..

ولا تعتبر المرأة البغاء في اغلب الاحيان الا وسيلة موقتة لزيادة دخلها المحدود ، لكنها تجد نفسها في جميع الحالات مندفعة في براثن دوامه عارمة لا قبل لها بمقاومتها . واذا كانت (حالات الرقيق الابيض) حيث تجر الفتاة جرا تحت تأثير العنف والضغط المادي ، نحو البغاء ، نادرة الحدوث نسبيا ، فان الفتاة في الحالات الاخرى الاكثر حدوثا ، مضطرة في اغلب الاحيان على البقاء في المهنة رغم ارادتها ، اذ ان حاميها الذي يسلفها المال اللازم للمباشرة في ممارسة المهنة ، يصبح ذا حقوق عليها ، ويضع يده على اكبر قسط من ارباحها استثمارا لماله ، ولا يمكنها بحال من الاحوال ان تتحرر ماديا .

جعلت الكتابات العديدة حول المومس وحياتها الخاصة وجه (جول) شعبيا فهو يلعب في حياة الفتاة دور المحامي والمنقذ ويسلفها الاموال اللازمة لتشتري بها ما يلزمها من ادوات الزينة ، وهو يدافع عنها ضد منافسة النساء الاخريات وضد البوليس — يحدث بعض الاحيان ان يكون الحامي احد رجال البوليس — وضد الزبائن . ذلك ان هؤلاء يكونون في غاية السرور اذا استطاعوا قضاء وطرهم لدى الفتاة دون ان يدفعوا الثمن ، كما يلجأ بعضهم الى اشباع ميولهم (السادية) في شخص الفتاة المومس . ومنذ عدة سنوات كان بعض الشباب الفاشيست في مدريد يلهون ويسلون انفسهم في قذف المومسات وسط النهر خلال الليالي القارسة ، وفي فرنسا كان الطلاب يسحبون بكل جبور النساء نحو الريف حيث يهجرونهن وحيدات وسط الظلام عاريات عراء تاما .

ان المومس في حاجة لحماية رجل لكي تستطيع ان تحصل على موارد رزقها وتتحاشى المعاملات السيئة • ويقدم (الحامي) للمومس دعما معنويا • (لانها تعمل بنشاط اقل اذا تركت لوحدها) كما تقول بعض المومسات • وفي اغلب الاحيان تكن المومس للحامي حبا عنيفا لانها تكون قد رضيت بالانحدار الى هذا المستوى تحت ضغطه ورغبة في ارضائه •

الا انه تحدث في بعض الاحيان ان تبدي المومس خصومة وحقدا شديدين نحوه وفي هذه الحالة لا تتابع المومس القيام بدورها الا خوفا منه تلجأ اغلب الاحيان الى اختيار احد زبائنها عشيقا لها •

وكثيرا ما تعزي المومس نفسها بمزاولة علاقات عاطفية مع امرأة اخرى • وقد دلت الاحصاءات ان عددا كبيرا من المومسات يزاولن السحاق وقد رأينا ان السبب في اختيار بعضهن لمهنة الدعارة يعود الى الرغبة في ارضاء صديقاتهن اللواتي يمارسنا معهن علاقات عاطفية شاذة •

اما علاقات المومس مع الزبائن فهي تختلف بحسب الاحوال وقد اتضح ان المومس تحتفظ لعشيق قلبها بامتياز تقبيلها من فمها الذي يعد تعبيرا عن عاطفتها الحرة التي لا علاقة لها بالمهنة •

كانت ماري تيريز (التي استشهدنا بقصة حياتها سابقا) تبدي خلال مزاولة مهنتها عدم اهتمام تام ، لكنها مع ذلك اشارت الى شعورها في بعض الليالي باللذة الجنسية ، فقد كان لها حسب ما تقول بعض المغامرات العاطفية الصحيحة مع بعض الزبائن ، كما اكدت في كتابها ان رفيقاتها يصادفن نفس الشعور في بعض الاحيان ، ويحدث كثيرا ان المومس

ترفض تقاضي الثمن من احد زبائنها الذي اثار اعجابها ، كما تلجأ في بعض الاحيان الى مد العون له اذا كان في حاجة الى المساعدة • لكن المومس بشكل عام تعمل (ببرود) ولا تشعر بعضهن الا بعدم الاهتمام وحتى الاحتقار نحو زبائنهن • كتبت ماري تيريز تقول : «اوه يا لهم من خنازير هؤلاء الرجال وكم تستطيع المرأة ان تضحك عليهم وتهزأ بهم !» • ولكن بعض المومسات يشعرن بالحقد والاستياء تجاه الرجال الذين يحاولن التفنن في معاشرتهن • كانت ماري تيريز تشتكي بصورة خاصة من ان الفرنسيين يتمتعون بخيال خصب لا حدود له في هذا المجال وقد اسرت بعض المومسات المريضات الى الدكتور بيزار بان «جميع الرجال بصورة عامة يحبون التفنن في اساليب المعاشرة الجنسية» • وقد تحادثت احدى صديقاته بصورة مطولة مع مومس شابة ذكية جدا في مستشفى (بوجون) فقالت بانها بدأت حياتها كخادمة وكانت تعيش مع حاميها الذي كانت تحبه لدرجة العبادة ، كما صرحت بان «جميع الرجال يحبون التفنن في اساليب المعاشرة الجنسية الا رجلي ولهذا فانا احبه ، ولن اتردد في هجره اذا حاول ذلك يوما ما • ان الزبون يبدو باديء ذي بدء عاديا طبيعيا فلا يجرأ على المطالبة بتنويع الاساليب لكنه حين يتردد عددا من المرات على البيت ، يبدأ في طلب بعض الاشياء القطيعة •• انت تقولين ان زوجك لا يستسيغ هذه الاشياء ! سوف ترين انهم جميعهم يطلبون ذلك»

ويعبر كره بعض المومسات لنوع خاص من الرجال عن بعض الرواسب الطبقية • وقد وصفت (هيلين دوتش) باسهاب قصة (آنا) المومس الشقراء الجميلة ، اللعوب اللطيفة • الا انها كانت تتعرض الى

حالات عصبية عنيفة اذا صادفت بعض الرجال • كانت تنتمي الى عائلة عمالية ، وكان ابوها يكثر من معاقرة الخمرة بينما كانت امها فريسة للمرض • وقد دفعتها جملة هذه الاسباب الى الشعور بكرة حياة الاسرة بصورة عامة لدرجة انها لم توافق مطلقا على الزواج على الرغم من انها خطبت كثيرا خلال مزاولتها المهنة • وقد نقلت الى المستشفى في آخر الامر نتيجة لاصابتها بالسل ، فاخذت تظهر كرها شديدا للاطباء : «كانت تحتقر الرجال المحترمين» ولم تكن تتحمل السلوك المهذب فتقول : «الا تعلم ان هؤلاء الرجال يفقدون بسهولة تامة قناع لطفهم وعزتهم وبرودة اعصابهم ؟ ويتصرفون عندئذ كالحيوانات ؟»

لكن مصاعب حياة المومسات لا تنحصر في حالتهن الاخلاقية والنفسية وانما في شروط حياتهن المادية كذلك • مستثمرات من قبل حاميهن ، تعيش المومسات في جو من الضيق والقلق المادي ، ان ثلاثة ارباعهن لا يملكن شيئا يذكر في الحياة ويقع ٧٥٪ منهن في ظرف خمس سنوات فريسة للامراض الزهرية ، اما القاصرات اللواتي لا خبرة لديهن ، فانهن يصبن بالعدوى بسهولة مخيفة وتصاب المومسات بالسل بمعدل واحدة كل عشرين ، ويصاب ٦٠٪ منهن بالادمان على الكحول ، كما يموت ٤٠٪ منهن قبل الاربعين من العمر •

ولكن الدعارة اذا كانت في درجتها الاخيرة شاقة للغاية ، اذ تضطهد المرأة فيها جنسيا واقتصادية وتتحمل مضايقات البوليس ، والرقابة الطبية ، والاعيب الزبائن ان مصيرها محتوم فلا بد ان تقع فريسة للجرائم والامراض والبؤس والشقاء •• فتنحدر الى مستوى الاشياء •

هنالك درجات عديدة بين المومس من الدرجة الاخيرة والمحظية

الكبيرة . والفرق الاساسي بينهما يكمن في ان الاولى تتاجر بجسمها بشكل عام كامرأة عادية ، فتبقيها المنافسة الشديدة في مستوى حياة منخفضة بائسة ، بينما تحاول الاخرى اثبات وجودها كشخصية لها كيانها ، وتتميز بصفات خاصة ، فاذا ما نجحت في ذلك استطاعت بلوغ مركز مرموق في المجتمع .

وقد وجدت على الدوام بعض الصلات الغامضة بين الفن والبغاء ، لان الناس يخلطون بين الجمال والجنس في اغلب الاحيان وتعددت في الايام الاخيرة مظاهر عرض الاجسام العارية تحت اسم الفن ، كما ان الرجال المسنين يؤكدون ان «العري هو طهارة» ويجمعون تحت اسم «العري الفني» مجموعات من الصور الخليعة . ولم تعد المومس التي تطمح في الحصول على منزلة خاصة ، تكتفي بعرض جسمها ومحاسنها امام عيون الناس ، بل هي تحاول بشتى الطرق ابراز مواهب اخرى كامنة لديها . وفي الماضي كان «عازفات الناي» يسحرن الرجال بموسيقاهن ورقصاتهن ، كما ان بنات النيل اللواتي يرقصن رقصة البطن ، والاسبانيات اللواتي يرقصن ويغنين في بعض اماكن اللهو ، يعرضن انفسهن بطريقة راقية تحت ستار الفن الى هواة الدعارة . وبالطبع فانه توجد راقصات عاريات وعارضات للازياء وفتيات للغلاف ، ومغنيات وممثلات ، لا يسمحن بحال من الاحوال للامور الجنسية بالتدخل في حياتهن الفنية . لكن المرأة التي تظهر امام الجمهور تضطر في اغلب الاحيان ، لكسب عيشها الى عرض مفاتنها الجسدية . وتتمنى المحظية على العكس ، مزاولة مهنة تكون بمثابة مبرر لها في ممارسة الدعارة ، فتنشد الظهور بمظهر الفنانة ذات المواهب ، ويصبح بوسعها

بواسطة هذه الطريق ان تحصل على حريتها التامة واستقلالها الاقتصادي .

يحدث في كثير من الاحيان ان تمثل الخدمات او الاموال التي تجنيها المحظية من الرجال ، تعويضا لها عن مركب نقصها الانثوي ، وحينئذ تلعب النقود دور المطهر وتقضي على نضال الجنسين . واذا كان بعض النساء يجدن لذة كبيرة في الحصول على اكبر كمية ممكنة من الشبكات والهدايا من الرجال فهذا لا يعود الى طمعهن وجشعهن ، وانما لان هذه الطريقة تحول الرجل الى اداة في ايديهن ، وبهذه الطريقة تنتقم المرأة لنفسها كأداة جسدية في يد الرجل ، الذي يحسب انه يمتلكها ، لكن هذا التملك الجنسي سطحي بعض الشيء ، ما دامت هي التي تملكه في ميدان الاقتصاد ، الامر الذي يشبع عزة نفسها وكبرياءها .

الفصل الخامس

من النضوج الى الشيخوخة

يتعلق تاريخ المرأة – بسبب دورها الانثوي – اكثر من الرجل بمصيرها الفيزيولوجي ، والخط البياني لهذا المصير هو اكثر تعرجا وانقطاعا من الخط البياني لمصير الرجل الفيزيولوجي • ان كل فترة من حياة المرأة ؛ تمتاز برتابتها وركودها : لكن الانتقال من مرحلة الى اخرى يجري بشكل فجائي خطير ، وتنتج عنه ازمات اشدة حدة من الازمات التي يتعرض لها الرجل في مختلف ادوار حياته: البلوغ، التدرب الجنسي، سن اليأس • وبينما يهرم الرجل تدريجيا وبصورة مستمرة ، تجد المرأة نفسها فجأة مجردة من انوثتها ، فتفقد وهي لا تزال شابة نسبيا ، الجاذبية الجنسية ، التي تستمد منها امام المجتمع ، تبرير وجودها وحظها في السعادة : لم يبق لها سوى ان تعيش محرومة من كل مستقبل خلال نصف حياتها تقريبا •

تتميز (السن الخطيرة) ببعض الاضطرابات العضوية لكن قيمة هذه الاضطرابات العضوية تشكل مرحلة هامة من حياتها • وتشعر المرأة بالازمة الجديدة في حياتها بشكل اقل حدة فيما اذا كانت لم تعلق في حياتها الماضية اهمية كبيرة على عناصر انوثتها فاذا كانت تعمل في البيت

او في الخارج فانها تستقبل بارتياح تام انقطاع الدورة الشهرية وعبوديتها، كما تصبح المرأة الريفية او العاملة سعيدة جدا حين تتخلص من مخاطر الحمل المتكرر • ولا تنتج عن وعيها بحلول هذه الفترة العصبية من حياتها • وتبدأ الازمة النفسية لديها عادة قبل حلول المظاهر الفيزيولوجية بوقت طويل •

تبدأ تباشير هذه الازمة حين ينصرف الرجل الناضج نحو مشاريع واعمال يعتبرها اكثر اهمية من الحب ، فتصبح ميوله الجنسية اقل حدة مما كانت عليه في صباه ، وما دام المجتمع لا يتطلب منه صفات سلبية في مظاهر حياته فان تجعدات وجهه وترهل جسمه لا تهدم جميع امكانياته في اثارة الاعجاب • وعلى العكس من ذلك حين تبلغ المرأة الخامسة والثلاثين من عمرها تكون قد تغلبت على جميع ما يتصدى لها من موانع في حياتها الجنسية وبلغت مرحلة تفتحها الجنسي الكامل فتتفتح غرائزها وتصبح اشد عنفا وتود من صميم قلبها اشباعها لانها علقت في حياتها على القيم الجنسية اهمية اكثر من الرجل فقد كان عليها كي تحافظ على زوجها وتحصل على الحماية الكافية في مختلف المهن التي تمارسها ، ان تثير الاعجاب فنجاحها في الحياة لا يمكن ان يتحقق الا بواسطة الرجل • ماذا يحدث والحالة هذه حين لا يعود لها اي تأثير عليه ؟ هذا ما تتساءل عنه باستمرار وبقلق خلال السنين التي تبدأ فيها جاذبيتها الجنسية بالاضمحلال والضعف ، انها تناضل فتصنع المساحيق المختلفة وتجري العمليات التجميلية ، لكن كل هذا لا يفيدها الا في اطالة حالة النزع الاخير لشبابها ! ولكن حين تبدأ التطورات المقدرة التي لا يمكن صدها او وقفها والتي ستهدم في نفسها البنيان الذي اشادته خلال عهد البلوغ،

تشعر المرأة كأنها اصيبت بحتمية الموت تعسه ، وقد يتبادر الى الذهن ان المرأة التي تمتعت اكثر من غيرها بمحاسنها وشبابها ، ينتابها القلق والاصطراب وتتعرض لشتى انواع الضيق النفسي ، لكن الواقع هو على العكس من ذلك،لان الفتاة المولعة بنفسها وبجمالها اي الفتاة النرسيسية، تفكر دائما بنفسها وبمصيرها ولا بد وانها اعدت لمرحلة سن اليأس عدتها وضمنت لنفسها مركزا تتراجع اليه • ولا بد لها بالطبع من ان تتعذب من هذا النقص الذي سيحل بها لكنها لن تفاجأ به بسبب توقع حدوثه • اما المرأة التي نسيت نفسها وقضت حياتها مضحية بكل شيء لديها فانها تتعرض لصدمة شديدة حين تكتشف حلول هذا التغير الجديد في حياتها : «لم يكن لدي سوى حياة واحدة لاعيشها فانظروا ما آل اليه مصيري » وينتابها حينئذ لدهشة المحيطين بها تغير جذري لانها تكون قد استفاقت فجأة على واقع حالها فتكتشف ان جسمها اصبح بدون امل وان احلامها ورغباتها التي لم تحققها في الماضي ستبقى كذلك الى الابد ، وفي هذا الجو المضطرب تلتفت نحو الماضي وقد حان الاوان للتفكير به واجراء الحسابات بشأنه • انها لترتعد من شدة ما قسرت نفسها على الانطواء وعدم التمتع بامكانياتها ، وامام هذا التاريخ القصير المخيب للامل ، المعبر عن حياتها التافهة تجد نفسها مضطرة الى رفض النهاية في حياتها فتقاوم فقر وجودها بثروة وكمال شخصيتها • ويبدو لها بسبب كونها امرأة تحملت مصيرا بسنية وخنوع ان المجتمع قد سرق حظها في الحياة وخدعها وانها قد انزلقت من الشباب الى النضوج دون ان يأخذها الوعي بشخصيتها • انها لتكتشف ان زوجها ووسطها ومشاغلها لم تكن في مستوى امكانياتها ، ولذلك فهي تشعر

بانها غير مفهومة من الناس فتنعزل عن المحيطين بها لانها تتخيل نفسها متفوقة عليهم ، وتحاول دراسة امكانياتها التي لن تتيسر لها فرصة الاستفادة منها فتتكب على تحرير يومياتها الخاصة ، واذا ما وجدت اشخاصا تركن اليهم فانها تفتح لهم مغاليق قلبها في احاديث طويلة لا تنتهي ، معبرة في كل مناسبة ليلا ونهارا عن حسرتها واتهاماتها • وكما تحلم الفتاة الصغيرة بما سيكون عليه ماضيها ، وتتخيل بنفس الوقت الفرص التي فشلت في انتهازها وتشيء لنفسها قصصا طريفة سحرية عن ماضيها الفاشل • تقص علينا (هـ• دوتش) قصة امرأة قطعت علاقاتها الزوجية وهي شابة بشكل مبكر ثم تزوجت بعد ذلك وقضت سنين طويلة بقرب زوجها الثاني • وحين بلغت الخامسة والاربعين من عمرها بدأت تتحسر بحرارة على زواجها الاول وانطوت منعزلة على نفسها في ظلمات حزن عميق • تستسلم المرأة في بعض الاحيان الى حالة من الكآبة الحالمة السلبية ، لكنها تحاول في اغلب الاحيان ان تنقذ حياتها الفاشلة فتراها تشيد بمزاياها وتطالب بعنف في ان تنصف وتفكر بانه قد يكون في وسعها لو اتيحت لها الفرص في ان تنتقم من نفسها وتبرز قيمتها • انها تحاول يائسة ان توقف الزمن • فنرى مثلا المرأة الام تؤكد بانها تستطيع ان تنجب الاطفال بعد سن اليأس فتحاول بحماس شديد ان تخلق الحياة من جديد • وتحاول المرأة الشهوانية ان تحصل على عشيق جديد لنفسها ، كما تظهر المرأة المتبرجة نهمها وحبها اكثر فاكثر لاثارة الاعجاب • انهن يصرحن جميعا بان دماء الشباب لا تزال تجري في عروقهن ويحاولن اقناع الآخرين بان مرور الزمن لم يؤثر عليهن مطلقا • فنرى المرأة الناضجة ترتدي من جديد ازياء الشباب وتتكلم بلهجة

الفتيات الصغيرات . تعرف المرأة المشرفة على الشيخوخة بانها اذا لم تعد تصلح لان تكون متعة جنسية فهذا لا يعود الى كون جسدها لم يعد يقدم للرجل ما تشتهيه نفسه ، انما يعود كذلك الى ان ماضيها وتجربتها جعلا منها رغما عنها او برضائها شخصية مستقلة ، فقد ناضلت واحبت وارادت وتعذبت وتمتعت لحسابها .. ان هذا الاستقلال ليبعث الخوف في نفسها ولذلك فهي تحاول رفضه وعدم الاعتراف به مبالغة في انوثتها مضاعفة كمية المساحيق والروائح العطرية متكلفة التلطف والاستسلام الانثوي مبدية اعجابها نحو الرجال ببساطة كبساطة الاطفال ذاكرة من حين لآخر بشكل مثير حياتها وقصصها حين كانت شابة صغيرة . وتلجأ المرأة في هذه السن عوضا عن ان تتكلم الى الصياح وضرب اليدين بعضهما البعض والقهقهة بصوت عال . وتجعلها هذه الاهمية الجديدة والرغبة العميقة في انتزاع نفسها من براثن حياتها الماضية الرتيبة والانطلاق نحو حياة جديدة ... كل هذا يجعلها تتخيل نفسها وكأنها تبدأ الحياة من جديد .

والواقع ان الامر لا يمكن ان يشكل بالنسبة اليها بداية جديدة لانها لا تكتشف في الحياة اهدافا تسعى الى تحقيقها بحركة حرة خيالية ، وانما تتخذ ثورتها شكلا متناقضا لا جدوى منه هدفها التعويض رمزيا عن اخفاقاتها الماضية ولذلك فهي تحاول ان تحقق قبل فوات الاوان جمع رغباتها حين كانت طفلة او راشدة . فهذه تباشر دروسا في العزف على البيانو ، وتلك تمارس الرسم او الكتابة او تقوم برحلات واسفار ، او تتعلم التزلق على الجليد ، او التكلم باللغات الاجنبية .

وقد تظهر المرأة في هذه السن اشمئزازها من زوج كانت تشعر بلذة

الحياة الجنسية معه فاذا بها تجد نفسها باردة بين ذراعيه ، او تلجأ على العكس من ذلك الى ترك المجال لحماس الجنس الذي كانت تكبته بعض الشيء فتنهكه بطلباتها ، وقد تعود الى مزاولة العادة السرية التي هجرتها منذ ايام طفولتها ، كما قد تتحول في بعض الاحيان الى السحاق ولو لم تكن قد عرفته قبلا اثناء شبابها .

تظهر الحدود بين الخيالي والحقيقي لدى المرأة الناضجة بنفس الغموض الذي كان يظهر فيه لدى الفتاة البالغة . ومن الظواهر الاكثر حدة لدى المرأة المشرفة على الشيخوخة هو شعورها بازدواج شخصيتها الذي يفقدها كل مفاهيمها الموضوعية . وقد اكد بعض الناس الذين اشرفوا على الموت ثم نجوا منه ، انهم شعروا بازدواج الشخصية : لست (انا) الذي تعرض للموت دهسا بواسطة السيارة : لست (انا) هذه المرأة المسنة التي تعكس المرآة خيالها . ان المرأة التي لم تشعر بنفسها اكثر شبابا مما هي الآن ، والتي لم تكن في يوم من الايام اكبر سنا مما عليه في الوقت الحاضر ، لا تتوصل الى التوفيق بين هذين المظهرين من ذاتها ، لان الوقت يجري وينساب والحقيقة تبتعد وتتضاءل . وما دام الحب لا يزال كما كان في السابق ، شغلها الشاغل فمن الطبيعي اذن ان تستسلم لوهم الشعور بانها محبوبة .

الا ان القدرة على تجاوز الحقيقة والواقع بهذه البراعة لا تشير لجميع النساء بل تشعر اكثرهن بألم الحرمان من الحب فيلجأن الى الله لاستمداد العون منه . وتجنح المرأة في هذه الفترة من حياتها الى التقى والورع ، والايمان بالمعجزات والسحر والخزعبلات والشعوذة ، وقد يؤدي بها الامر الى اقتحام ميدان الاعمال فتلقي بنفسها في مختلف

المشاريع والمغامرات وتشعر وكأنها تمثل بطلة من بطلات الحرية وحاملة لشعل الحكمة والتعقل .

تقصم ازمة سن اليأس حياة المرأة الى شطرين بشكل جذري . وهذا الانقطاع هو الذي يعطي للمرأة وهم «الحياة الجديدة» انه عهد جديد تتسلل اليه بحمية التائبة ، نحو الحب ، والحياة والفن ، وكأنها ماتت وتبعث اليوم من جديد . وانها لتنظر الى العالم بعين من سبر غور الارض ونفذ الى اسرارها ، ويخال اليها انها تحلق في الفضاء نحو القمم الشامخة التي لم تصل اليها يد الانسان .

غير ان الارض تبقى ثابتة في مكانها لا تتبدل ، والقمم الشامخة تبقى فوق مستوى الانسان ، والانوار الساطعة تخبو وتتضاءل ، ولا يبقى امام المرأة سوى طيف امرأة شاخت يوما واحدا منذ البارحة . فتتبع لحظات النشوة والحماس ساعات يلف الغم خلالها قبضته من جديد حول عنقها . لقد استنفدت اسباب حياتها دون ان يستقبلها الموت على اعتاب داره ويا لها من حياة مقيتة ، تدفعها في آخر الامر الى التخلي عن النضال والانصراف الى تنغيص حياتها وحياة من يحيط بها من الناس ، فتتناثر الاتهامات من فمها ، وتتصاعد الحسرات من صدرها وتتصور ان الجيران يدبرون ضدها المؤامرات ، ويحيكون من حولها الدسائس وقد تظهر فجأة عواطف الغيرة العمياء على زوجها ، فتغار من اصدقائه واخوانه ومهنته وتتهم كل انسان تصادفه في طريقها بانه سبب تعاستها . واذا كانت لا تملك سوى محاسنها كرأسمال لها في حياتها فانها تناضل خطوة خطوة للمحافظة عليها ، وتحارب مجبرة لاتقاء غرائزها على حالتها من التفتح والانطلاق ، ويروى ان الاميرة (ميترنخ) اجابت على سؤال وجه اليها ،

عن السن التي تتوقف فيها المرأة عن الشعور بالغريزة الجنسية فقالت : «لا اعلم اذ ليس لي سوى ٦٥ سنة من العمر !»

الا انه لا بد وان يأتي يوم تضطرفيه المرأة الى الاذعان والاعتراف بكبر سنها وحينئذ تتبدل حالتها ، كانت حتى الآن امرأة شابة متحمسة للنضال ضد مركزها الضئيل في المجتمع ، لكنها تصبح شخصا آخر لا يشعر بالعاطفة الجنسية ويتمتع بخبرة كبيرة : انها امرأة مسنة ، ولكنه لا يجب ان نستنتج من ذلك بان الحياة اصبحت سهلة لانها اذا كانت قد تخلت عن النضال ضد حتمية الزمن ، فعليها بعد ذلك ان تخوض حربا جديدة ••• يجب عليها ان تحافظ على مكان لنفسها فوق سطح الارض.

تتحرر المرأة في خريف حياتها او في شتائها من قيودها ، وتعتبر كبر سنها مبررا لها لتحاشي تحمل الالتزامات التي كانت تثقل كاهلها ، انها تعرف طبيعة زوجها بعد هذا العمر الطويل ، ولذلك فهي تنظم حياتها بشكل من الاشكال الى جانبه ــ في جو من الصداقة او عدم الاهتمام او العداء ــ فاذا ما انهار زوجها قبلها ، نراها تستلم زمام قيادة البيت من جديد وتعاند الناس والرأي العام ، وتهمل بنفس الوقت التزاماتها الاجتماعية ، والعناية بمحاسنها وجمالها .

تكتشف المرأة اخيرا حريتها بعد فوات الاوان وهذه الظاهرة تتكرر دائما في حياة كل امرأة ، انها تكتشف حريتها في الوقت الذي لا تجد امامها ما تصنعه في الحياة ، ولا يمكن اعتبار هذا التكرار وليد الصدفة المحضة ، لان المجتمع الذي يرتكز على سلطة الرجل يضفي على جميع الوظائف النسائية شكل العبودية ، ولا تستطيع المرأة التخلص منها الا حين تفقد كل فعالياتها ، لقد علمها الناس طوال حياتها ان تخلص لشخص

ما ، ولم يعد هنالك اي انسان يود التمتع باخلاصها ، غير ذات فائدة ، ولا مبرر لوجودها ، تأمل المرأة الناضجة هذه السنوات الطويلة بدون امل ، هذه السنوات التي بقي عليها ان تحياها في عزلة تامة ، فتهمس حينئذ لنفسها قائلة : ولم يعد هنالك اي انسان يحتاج الي !؟ .

وحينئذ توجه آمالها نحو اولادها ، فهم لا يزالون في ربيع العمر ، والمستقبل لا يزال مفتوحا امامهم . وفي هذا المجال تتمتع المرأة التي اسعفها الحظ بانجاب اولادها بصورة مبكرة بامتياز على غيرها من النساء ، فهي لا تزال شابة تستطيع ان تستمتع بسعادة اولادها كأنها سعادتها ، لكن الام بصورة عامة تبلغ الاربعين من العمر في وقت يبلغ فيه اولادها مرحلة الاستقلال،وفي هذه اللحظة التي ينفلتون من سيطرتها، نجدها تحاول ان تعيش من خلال حياتهم ، لتعوض النقص والحرمان اللذين تعانيهما ، فتنصرف نحو اولادها وتحاول التدخل في حياتهم كأنها حياتها الخاصة ، لقد انجبت من نفسها جسدا في شخص ابنها وهي تحاول الآن ان تجعل حياته حياتها ، فاعماله اعمالها ، وفرحه فرحها ، وحزنه حزنها .

لكن الامور لا تجري دائما على هذا المنوال ، فقد يكون الابن دون مستوى تمنيات امه . وهذه ترغب في ان تستجم مشاريع (ابنها الاله) مع مثلها الاعلى في الحياة . وكل ام تريد ان تنجب بطلا عبقريا ، لكن جميع امهات الابطال والعباقرة يشتكون من ان اولادهن قد حطموا قلوبهن وآمالهن ، وقد توافق الام على مشاريع ابنها لكنها تبقى دائمة التشكي، يمزق قلبها هذه التناقضات المماثلة التي تعذب قلب الفتاة المحبة . ولكي يبرر الرجل حياته ــ وحياة امه ــ يجب عليه ان ينشد الاهداف البعيدة،

وهو مضطر والحالة هذه الى ارهاق صحته والتعرض للاخطار ، لكنه ينكر في نفس الوقت قيمة ما منحته اياه امه ، حين يضع نصب عينيه اهدافا لا تقتصر على مجرد العيش البسيط ، وهذا ما يثير استنكارها لانها لا تسود على الرجل وتسيطر عليه الا اذا اعتبر هذا الجسد الذي انجبته شيئا مقدسا ، فلا حق له في هدم هذا البناء الذي شيدته من خلال العذاب والآلام . «سوف تتعب نفسك ، وستتعرض للمرض وسيصيبك مكروه اذا ... الخ» لكنها تعلم مع ذلك انه مجرد العيش لا يكفي الانسان والا لاصبح التناسل امرا عديم الفائدة ، وهي اول من يستاء اذا كان ولدها كسولا او جبانا . وانها لتتمنى عودته من الحرب ، لكنها تفضل ان يعود اليها وصدره محلى بالنياشين . وهي تتمنى من كل قلبها ان ينجح في حياته لكنها تخشى عليه التعب والاجهاد ، ومهما فعلت فان حياته تجري امامها دون ان يكون في مقدورها ان تحولها او تحكم فيها . انها تتخشى عليه من ان يخطىء الطريق او يفشل في حياته او يسقط مريضا ، لكن فوق السن يجعل من المتعذر عليها مساعدته والمساهمة عمليا في بناء مستقبله .

مهما يكن الامر ، اذا كانت الام تعجب بابنها وتفخر به وتجد في الانصراف الى التفكير بمستقبله تعويضا لها عما تلاقيه من اهمال في حياتها الجديدة ، اذا كانت تشعر هذا الشعور فانها تبقى مع ذلك غير راضية لانها لا تستطيع ان تدخل في حياة ابنها بشكل ايجابي ، وهي بحاجة لان تشعر بضرورتها في كل لحظة من لحظات حياتها ، كما ان زوجة ابنها تجردها من وظائفها . لقد كتب الشيء الكثير عن العداء الذي تشعر به الام تجاه هذه الاجنبية التي (تأخذ) منها ولدها . انها هي التي

منحته الحياة ولذلك تشعر بترتب بعض الالتزامات عليه اتجاهها اما هذه الاجنبية زوجته فانها لم تعطه شيئا بل كان يجهل حتى وجودها منذ امد قريب • وانها لتنتظر ان ينكشف قناع الزوجة المزيف في يوم من الايام ، يشجعها في تفكيرها هذا خرافة الام الطيبة التي تعزي ابنها من سوء معاملة الزوجة الشريرة وانها لتتفحص على الدوام وجه ابنها لكي تعثر على ملامح التعاسة والشقاء وقد تكتشف هذه الملامح رغم انكار ولدها وتأكيده بأنه سعيد ، ثم هي تتصرف الى تفحص (كنتها) وتنتقد حركاتها وتصرفاتها وسكناتها ، وتشهر امام ما تحدثه من تجديد في البيت سلاح التقاليد والعادات التي تعطي الاهمية في البيت الى ام الزوج ، ان كلا منهما تفكر على طريقتها في اسعاد الرجل المحبوب فالمرأة ترى فيه رجلا تستطيع من خلاله ان تثبت وجودها في العالم ، اما الام فهي تحاول ان تعيده الى طفولته • وهي تقاوم مشاريع المرأة الشابة التي تنتظر ان يصبح زوجها غنيا او شخصية هامة في الحياة ، باشهار سلاح العطف والحنان او الرفق به فهو لا يتحمل الشدائد في نظرها وينبغي ألا يجهد نفسه في العمل • وهكذا تتطور الخصومة بين الماضي والحاضر وتتفاقم حين تجد المرأة الجديدة نفسها حاملة بدورها «ان ولادة الاطفال تعني موت الاهل» ، وحينئذ تنكشف الحقيقة الساطعة بكل قوتها ! فتفهم المرأة التي كانت تأمل ان تداوم العيش في شخص ابنها بأنها محكوم عليها بالموت ، لقد منحت الحياة لكن الحياة تداوم سيرها بدون معونتها • انها لم تعد (الام) وانما هي حلقة من سلسلة طويلة ••• نعم لم تعد هذه المرأة التي قاست الامرين لتحصل على حريتها وشخصيتها وهي ليست سوى مخلوق انتهى امره وولى زمانه ، وحينئذ تشعر في الحالات الشاذة

جدا بالكره يحتاج نفسها ، هذا الكره الذي قد يؤدي بها الى بعض الحالات العصبية العنيفة او يدفعها نحو الجريمة وهذا ما فعلته السيدة (لوفيفر) التي شعرت بان كنتها حاملة فكرهتها زمنا طويلا ثم قررت قتلها ونفذت ذلك .

ولكن الحيرة تتغلب في الحالات العادية على كراهيتها وعدائها فتضر احيانا على اعتبار المولود الجديد وليدها الوحيد تحبه حبا عنيفا ديكتاتوريا ، لكن الام تقاوم بصورة عامة هذا الاتجاه لدى حماتها وتعلن حرب الغيرة سجالا بينهما وتتبدل عواطفها نحو صغيرها فتصبح عدائية ، فتكرهه تحت ستار من القلق والعطف المصطنع .

وبحدث في بعض الاحيان ان لا يكون للمرأة اولاد او انها لا تهتم باولادها وحينئذ نراها تحاول ان تخلق نظائر لهم بشكل مصطنع فتعرض على بعض الشباب عطفها الاموي ، وسواء كانت عواطفها عذرية ام لا فانها لا تبتعد عن الحقيقة حين تصرح بانها تحب ضيفها الشاب كما تحب (ابنها) . وتصطفي المرأة في اغلب الاحيان بعض الفتيات فتتعرض لديهن الحرمان الذي تشعر فيه ، وترتدي هذه العلاقات في بعض الاحيان الطابع الجنسي ، وعلى كل حال سواء كانت هذه العواطف عذرية بحتة او خالطها شيء من الشعور الجنسي ، فان ما تنشده المرأة هو تفريغ عواطفها في شخص تعتبره ازدواجا لشخصها ، وقد تلجأ في بعض الاحيان الى تبني بعض الاطفال الصغار كما تفعل العمات المسنات . على انه من النادر في جميع الاحوال ان تجد المرأة في خلقها الطبيعي او الاصطناعي تبريرا لحياتها السائرة نحو الانحطاط لانها لا بد وان تفشل في جعل حياة احد هؤلاء الشباب تبريرا لحياتها . وليس امامها سوى ان تصر على متابعة

جهودها للوصول الى هدفها فتستهلك حياتها في صداع ومآس ، تخيب املها وتتركها محطمة مقهورة ، واما ان تستسلم الى قدرها ، فتساهم بدور بسيط ضئيل في حياة ابنائها وهذه هي الحالة الطبيعية . لكنها لا تجد حينئذ لديهم اية معونة في محنتها القاسية وتبقى مهملة وسط صحراء المستقبل ، فريسة للوحدة والحسرة والملل .

ان هذا الوصف يعبر اصدق تعبير عن مأساة المرأة المسنة : فهي تعرف ان لا فائدة لها في الحياة ، وتتساءل في حيرة خلال حياتها الطويلة : كيف تقتل وقتها ؟ ولم تبتكر (الاعمال النسوية) الا لسد الفراغ الذي تشعر به المرأة في هذا التطور من حياتها ، فيداها تشتغلان الصوف وتخيطان الالبسة ، لكن هذا لا يعتبر عملا مفيدا بالنسبة اليها وانما هو وسيلة لتمضية وقتها واشغال نفسها . وكثيرا ما تختار المرأة شخصا تهديه نتاج عملها ، او تصطفي منظمة خيرية او تهديه بكل بساطة الى احدى صديقاتها ...

انها لتسلية سخيفة كما يصفها باسكال ، لان المرأة تنسج العدم في حياتها بواسطة الابرة . كما تمارس الفنون كالرسم والموسيقى والقراءة ، الا انها لا تلبث ان ترمي الكتاب جانبا وتفتح البيانو ثم تغلقه ، وتعود الى شغل الابرة والصوف ثم تتثاءب وتنتهي بامساك سماعة الهاتف لتنظيم زيارة او رحلة او ما شاكل ذلك والواقع ان المرأة تنتهي الى نشدان التسلية وتمضية الوقت في صخب الحياة الاجتماعية ، فتحضر جميع حفلات الزواج ، كما تسير في مواكب الجنازات ، تتفحص الناس وتعلق عليهم ، وتعوض بطالتها بنشر الانتقادات والنصائح حولها ، كما تضع تجربتها في خدمة هؤلاء الذين لا يطلبون منها اية خدمة . وقد

تفتح ندوة ادبية اذا توفرت لديها الوسائل المادية ، تستقبل فيها الادباء والفنانين والشخصيات . وهنالك طرق اخرى لدى المرأة اكثر فعالية للتدخل في حياة الناس ، ففي فرنسا تنتشر الجمعيات النسائية ومؤسسات الاعمال الخيرية ، ولكنها تكثر بصورة خاصة في امريكا حيث يجتمع النساء في نوادي خاصة فيلعبن (البريدج) ويمنحن الجوائز في المسابقات، ويقمن بمختلف المشاريع الاجتماعية المختلفة . ومن الصفات الاساسية لهذه المنظمات ان الاهداف المعلن عنها في انظمتها ليست سوى مبرر رسمي لوجودها وبقائها . وهكذا يمضي نساء الجمعيات جل اوقاتهن في تنظيم اعمالهن ، فتجري انتخابات المكتب الاداري ، وتناقش الانظمة ، وتتصارع المنتسبات فيما بينهن للوصول الى مركز الادارة ، كما يحاربن المنظمات الاخرى المنافسة ، فلا يجب على اي انسان ان يجرأ على سرقة (فقرائهن) و (مرضاهن) و (جرحاهن) و (ايتامهن) وانهن على استعداد تام لترك هؤلاء المساكين يموتون دون عناية من التخلي عنهم الى جيرانهن . ولا شك انهن بعيدات كل البعد عن تمني وجود مجتمع تنعدم فيه المظالم والمسائل الاجتماعية الامر الذي يجعل اعمالهن عديمة الفائدة، وانهن ليلهجن بالشكر ويباركن الحروب والمجاعات التي تحولهن الى خيرات محسنات تجاه البشرية .

لا تجد المرأة المحسنة عادة هدوءها وطمأنينتها الا في اواخر ايام حياتها حين تكون قد تخلت عن النضال وحين ينقذها دنو اجلها من قلقها وخوفها على مستقبلها وكثيرا ما يكون زوجها اكبر سنا منها فتحضر مشهد انهيار زوجها بسكون الراضي ، وكأنها تنتقم في شخصه من الحياة، واذا ما توفي قبلها تراها تتحمل بسرور الحداد المفروض عليها . وقد

لوحظ في عدد كبير من الحالات ان الرجال يتأثرون اكثر من النساء من حالة الترمل المتأخر لانهم يستفيدون اكثر من المرأة من نعم الزواج وبصورة خاصة خلال الايام الاخيرة لان محور حياتهم في تلك الفترة يتركز في البيت • كما ان الرجل يصبح غير ذي فائدة على الاطلاق حين يفقد عمله لسبب كبر سنه ، لكن المرأة تحافظ على الاقل على ميزة ادارة البيت ، وهي ضرورية لزوجها في وقت لم يعد يقدم لها اية خدمة وحينئذ تستمد المرأة من حريتها نوعا من الكبرياء فتنظر لاول مرة نحو العالم بعينيها لا بعيني رجل احلامها، فتكتشف انها كانت طوال حياتها مخدوعة، هدفا للتلاعب والاحتيال • ولكن اذا كان بوسعها ان تكتشف الاكاذيب وطرق الاحتيال فانها لا تتوصل الى اكتشاف الحقيقة بكاملها لان حكمة المرأة المسنة تبقى سلبية حتى نهاية حياتها : انها احتجاج وشك ، واتهام ورفض ، لا تستطيع في اية مرحلة من مراحل حياتها ان تكون فعالة ومستقلة •

الفصل السادس

وضع المرأة وطبائعها

•

يمكننا الآن ان نفهم لماذا نشاهد نقاطا مشتركة في الحملات الموجهة ضد المرأة منذ عهد اليونان الى الوقت الحاضر ، فقد بقي وضعها على ما هو عليه رغم التغيرات السطحية . وهذا الوضع هو الذي يحدد ما يسمى طبع المرأة : فهي لا تملك الحس بالحقيقة وهي تفعية ، كاذبة ، مهرجة ... ان هذه التأكيدات تتضمن شيئا من الحقيقة ، الا ان سلوك المرأة لا تفرضه عليها هورموناتها ولا تكوين دماغها بل هو نتيجة لوضعها . لذلك سنحاول ان ننظر الى هذا الوضع نظرة تركيبية لندرك ما يسمى بالانثى الخالدة في مجموع الشروط الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية .

يقابل بعضهم احيانا بين « العالم النسائي » و « عالم الذكور » ولكن ينبغي ان نؤكد ان النساء لم يشكلن قط مجتمعا مستقلا مغلقا بل كن دائما مندمجات بالجماعة المحكومة من قبل الذكور . انهن متحدات فيما بينهن بتضامن آلي وليس بينهن هـذا الترابط العضوي الـذي تتأسس عليه الجماعات الموحدة . فقد اجتمعن دائما ليؤكدن «عالما معاكسا» ولكنه يبقى عالما مطروحا في كنف عالم الرجال . عن ذلك

ينشأ تناقض وضعهن : فهن يتبعن عالم الذكور ويتبعن في نفس الوقت حلقة ينكر فيها هذا العالم . لذلك يصاحب خضوعهن دائما نوع من الرفض والانكار .

ان المرأة تقر بان العالم في مجموعه عالم ذكور . فالرجال هم الذين صاغوه واداروه وهم الذين يحكمونه هذا اليوم . وهي تتلقف نفسها ككيان سلبي امام هذه الآلهة التي لها وجوه البشر والتي تحدد الغايات والقيم . اما نصيب المرأة فتقديم الخضوع والطاعة وابداء الاحترام .

لا يبدو العالم للمرأة كمجموعة ادوات تلعب دور الوسيط بين ارادتها وغاياتها ، بـل هـو ، على العكس ، مقاومة عنيدة لا يمكن ترويضها ، يتحكم فيه القدر وتتخلله النزوات المبهمة . وان الاعمال المنزلية تقترب من النشاط الفني الا انها بدائية جدا ومن الرتابة بحيث لا تقنع المرأة بالقوانين والسببية الميكانيكية . وعقلية المرأة تخلد عقلية الحضارات الزراعية التي تعبد الفضائل السحرية للارض . ولا يكتسي الزمن بالنسبة اليها صفة التجديد ولا يشكل ينبوعا للابداع . ولما كانت منذورة للتكرار فهي لا ترى في المستقبل الا صورة مطابقة للماضي .

انها لا تجهل ما هو العمل الحقيقي القادر على تبديل سطح العالم فحسب بل انها ضائعة وسط هذا العالم كما لو كانت في قلب السديم .

ولما كانت لا تعمل شيئا في مملكة الرجال فان تفكيرها لا يتميز عن الحلم ولا تملك الحس بالحقيقة . على كل حال ، ليس من شأنها التبصر بالاشياء فقد علموها ان ترضخ لارادة الذكور . فما عليها اذن الا ان تزهد في النقد والتمحص وابداء الاحكام تاركة كل هذه الامور للطبقة

العالية . لذلك يبدو لها عالم الذكور كواقع متسام ، كشيء مطلق .

وتحب النساء خاصة ان يتجسد النظام والقانون في رئيس . وعن عجزهن وجهلهن ينشأ هذا الاحترام الذي يولينه للابطال ولقوانين عالم الرجال . وهن يقبلن ، بصورة عامة ، ما هو موجود والرضوخ احدى الصفات التي تميزهن .

لا تؤمن المرأة بتحريرها لانها ، على الاخص ، لم تشعر قط بامكانيات الحرية . ويبدو لها ان العالم يديره قدر غامض لا يمكن مجابهته . ولكن اذا ما فتحنا امامها ابواب المستقبل فلن تتشبث بالماضي . وكثير من المثالب التي تؤخذ على المرأة كالخجل والخمول والخفة والعبودية تعبر في الحقيقة عن ان الافاق مسدودة امامها . واذا ما بدت ثرثارة فانها تعزي نفسها عن بطالتها مستعيضة عن الافعال المستحيلة ... بالكلام . يعيبون عليها خنوعها واستعدادها الدائم للارتماء عند اقدام سيدها وتقبيل اليد التي ضربتها ، ولكن ماذا تستطيع المرأة ان تعمل دون ان يدعمها الرجل الذي هو بالنسبة اليها الوسيلة الوحيدة والسبب الوحيد للعيش ؟ ولئن كانت نفعية غير طموحة فذلك لانهم يفرضون عليها الاعباء الرتيبة التي لا تخلق العظمة وعلو النفس . انها لا تنتج الا الوسائل كالاكل واللباس وهذه وسائط غير جوهرية بين الحياة البهيمية والوجود الحر . والصفة الوحيدة المرتبطة بالوسائل غير الجوهرية هي المنفعة . هكذا تحتل المنفعة في سماء ربة المنزل مكانا اعلى من الحقيقة والجمال والحرية وهي لا تواجه العالم كله الا من خلال هذه الزاوية .

اننا نحبس المرأة في المطبخ او في المخدع وبعد ذلك ندهش اذ نرى

افقها محدودا ، وتقص جناحيها ثم تشكو من انها لا تعرف التحليق .

كل الذين يتلقون اسرار المرأة كالاطباء مثلا يعرفون جيدا ان الشكوى هي النغمة الاساسية . ولكن الآخرين هم السبب فيما يحل بها ، لذلك هم المسؤولون عن مصائبها وشقائها . فهي دائما ضد شخص ما او شيء ما . وهي تظن ان كل ما يحدث هو مثلا بسبب اليهود او الماسونيين . ولما كانت يدها لا تقع على هؤلاء المسببين فانها تبحث عن متهم تستطيع ان تحقق عليه بصورة ملموسة ، فيكون الزوج الضحية المختارة .

ففيه يتجسد عالم الذكور ومن خلاله يتكفل المجتمع بالمرأة ويحيطها بالتعمية ، انه يحمل ثقل العالم ، واذا ما سارت الاشياء سيرا سيئا فهو المسؤول ، وعندما يحل المساء فانها تشتكي اليه من الاطفال والباعة والطقس .. وهي تريده ان يحس بنفسه مذنبا . هذا الخصام الذي تحسه تجاه رجلها يربطها به بدل ان يبعدها عنه .

ليس من شك في ان حياتها المرتكزة الى اساس من الثورة العاجزة هي سبب سهولة ذرف الدموع عندها بالاضافة الى كونها اقل من الرجال سيطرة على اعصابها . واذا ظهر لها ان الدموع غير كافية للتعبير عن ثورتها فانها تلجأ الى تمثيل الادوار العنيفة . اما المنفذ الاخير فهو الانتحار ولكن يبدو انها اقل لجوءا اليه من الرجال . ولئن كانت تمثل لعبة الانتحار اكثر من الرجال فانها لا تريده ارادة فعلية .

هناك تصرفات كثيرة لا ينبغي ان تفسر الا على انها احتجاجات . فالمرأة غالبا لا تخون زوجها رغبة في اللذة بل عن تحد ، وهي تسرف

عمدا في مشترياتها لان زوجها منظم ومقتصد . وتنجم روح المماكسة الذي يؤخذ عليها غالبا من حرمانها من ميدان مستقل ، ومن عدم تمكنها من مجابهة الذكور بقيم ايجابية مماثلة، لذلك لا تستطيع سوى المكارهة.

لقد خصصوا للمرأة دور الفضولي والفضولي يلجأ حتما للاستثمار . وارادوا لها ان تكون متاعا فجعلت من نفسها متاعا . ويعرف الرجال جيدا ان مساوىء المرأة تعبر عن وضعها . ولما كانوا يحرصون على ابقاء التسلسل والتمايز بين الجنسين فانهم يشجعون لدى النساء نفس الصفات التي تخول لهم احتقارهن .

لا تملك المرأة الحس بالشمول بل يبدو لها العالم كمجموعة مبهمة من الحالات الفردية . وليس من شك في انها تكن الاحترام للكتب ولكن هذا الاحترام يمر بالصفحات المكتوبة دون ان يلم بمحتواها . وعلى العكس ، تكتسب الحادثة او القصة التي يرويها شخص ما في احد اماكن التجمع صحة دافعة . كل شيء في ميدانها محاط بالسحر وكل ما في الخارج تحيط به الالغاز لذلك لا تقنع بالتجربة المباشرة .

وهي تؤمن بحالات الكشف التي تمر بها اكثر من المحاكمات الصحيحة بالنسبة الى الجميع ، معتقدة بسهولة ان هذا الكشف منزل عليها من الاله او من ارواح مبهمة مجهولة . ومن النادر ان تمط بالتجربة بل تنتقل من فشل الى آخر دون ان تستفيد من مجموع تجاربها . ولهذا السبب لا تنجح النساء في بناء «عالم معاكس» راسخ الاركان كيما يتحدين الذكور .

يعيش الرجل في عالم متماسك ، في واقع يخضع للتفكير ، اما

المرأة فعلى اتصال مع واقع سحري لا يستجيب للفكر تهرب منه بالاعتماد على افكار خاصة ذات مضمون واقعي • وبدل ان تأخذ وجودها على عاتقها تتأمل في السماء فكرة مصيرها الصرفة ، وبدل ان تعمل تصب في الخيال هيكلها وتمثالها ، وبدل الاعتماد على المحاكمة تسبح في الاحلام . هكذا رغم كونها مادية ارضية تجعل من نفسها كائنا اثيريا •

ان هـذه التبعية المزدوجة للعالم المادي والعالم الشعري تحدد الحكمة التي تلوذ بها المرأة بصورة متفاوتة الظهور • واحد مفاتيح العالم النسوي هو مفهوم الانسجام الذي يستدعي الكمال ضمن السكون والتبرير الفوري لكل عنصر اعتبارا من الكل ومن مساهمته السلبية في المجموع •

تحتاج المرأة الى الدين شأنها في ذلك شأن الشعوب وتماما لنفس الاسباب • فحينما تحكم على احد الجنسين او على افراد طبقة ما بالجمود فلا بد من ان تقدم لهم سراب الصعود والتسامي • ومن مصلحة الرجل ان يدعم بضمان الاله مجموعة القوانين التي يصنعها بيده • وخاصة لما كان يمارس على المرأة سلطة الحاكم المطلق فمن المستحسن ان تكون هذه السلطة ممنوحة له من الكائن الاعلى المطلق •

ان خشية الله تخنق عن المضطهد كل رغبة في الثورة •• ولكن الايمان الصادق يساعد الطفلة كثيرا على تجنب كل مركب نقص لانها لا تكون حينئذ ذكرا او انثى بل من مخلوقات الله •

والدين يغذي احلامها ويملأ فراغ ساعاتها ولكنه ، على الاخص ، يؤكد النظام السائد في العالم ويبرر الرضوخ ، بالماشه الامل في مستقبل

افضل وفي سماء لا تفرق بين الجنسين .

نرى ان مجموع طباع المرأة اي معتقداتها ، قيمها ، حكمتها ، اخلاقها ، ذوقها ، سلوكها تفسر بوضعها . ولما كان التسامي محرما عليها فان ذلك يشكل حائلا دون بلوغ المواقف الانسانية العليا كالبطولة والثورة والابداع والاختراع . الا ان هذه المواقف ليست كثيرة الحدوث حتى عند الرجال انفسهم ، فهنالك رجال كثيرون مقيدون مثل النساء بميدان الوسائل غير الجوهرية . ان العامل يهرب من وضعه بالعمل السياسي معبرا عن ارادة ثورية ، اما الرجال التابعون للطبقة المتوسطة مثل التجار والمستخدمين فيقومون باعمال متكررة رتيبة مثل اعمال النساء ولا يشدون في الحياة الا شيئا من الراحة .

من السخف اذن ان تحدث عن المرأة بصورة عامة او عن «الرجل الخالد» . ولما كان وضعاهما مختلفين اختلافا عميقا اصبح من المفهوم ان تعتبر باطلة غير مجدية كل المقارنات التي تستهدف تقرير فيما اذا كانت المرأة اعلى او ادنى من الرجل او مساوية له .

من الواضح ، انتا اذا قارنا هذين الوضعين بالذات الفينا ان وضع الرجل خير من وضع المرأة ، بمعنى ان له امكانيات ملموسة اوسع ليظهر حريته في العالم . وينجم عن ذلك ان انجازات الرجال تفوق كثيرا انجازات النساء اللواتي يحرم عليهن تقريبا عمل اي شيء .

ان الحرية الكامنة في كل منهما تامة كاملة . وبما انها تبقى حرية فارغة مجردة لدى المرأة ، فان الطريق الوحيدة المفتوحة امامها هي طريق الثورة ، طريق العاجزين عن بناء اي شيء . وليس الرضوخ الا نوعا

من الاستسلام والهروب ولا يوجد امام المرأة منفذ سوى العمل على تحرير نفسها ٠

هذا التحرير لا يمكن ان يكون الا جماعيا ويستدعي قبل كل شيء انتهاء التطور الاقتصادي لوضع المرأة ٠ ولكن كان ولا يزال هناك نساء كثيرات يحاولن بصورة منعزلة تحقيق خلاصهن الفردي ٠ انهن يحاولن تبرير وجودهن ضمن اطار الجمود ٠ نجد هذا الجهد النهائي للمرأة المحبوسة التي تحول افق سجنها المحدود الى سماء واسعة ، وعبوديتها الى حرية عند محبة ذاتها ، وعند العاشقة وعند المتصوفة ٠

القسم الثالث

تبريرات

الفصل الاول

عاشقة ذاتها

•

من الناس من يدعي احيانا ان عشق الذات هو الموقف الاساسي لكل امرأة • ولكن هذا المفهوم يتهدم اذا جاوزنا الحدود في توسيعه كما هدم (لاروشفوكو) مفهوم الانانية • والواقع ان «الأنا» في حالة عشق الذات تصبح غاية مطلقة ، فينطوي الشخص على ذاته • والظروف، في الحقيقة ، تدفع المرأة اكثر من الرجل الى الالتفات الى ذاتها والى ان تنذر حبها لنفسها •

ان كل حب يستدعي الازدواج بين شخص وغرض • وتتجر المرأة نحو عشق الذات عن طريقين متلاقيين • فهي كشخص تحس بانها محرومة ، لذلك تخلع على نفسها اهمية مطلقة لانها لا تجدي اي شيء مهم متيسر لها • ولئن كانت تستطيع ان تعرض نفسها لرغباتها الذاتية فلانها تبدو لنفسها كغرض منذ طفولتها (ماري باشكيرتسيف) التي بطلة نفسي» •

والحقيقة ، لا يمكن للمرء ان يكون شيئا آخر بالنسبة لنفسه بصورة موضوعية ؟ ولا يستطيع ان يعيش الازدواج الا في الحلم • الدمية هي التي تجسد هذا الحلم لدى الطفلة • ولكن المرأة تجد

عونا كبيرا في جهدها لمغادرة ذاتها والالتقاء مع نفسها بسحر المرآة ، بعكس الرجل الذي يحس بنفسه كمالية ويأبى ان يتعرف على ذاته في الصورة الجامدة • والمرآة الفارقة في صورتها المنعكسة تهيمن وحدها على الزمان والمكان وتحس ان لها كل الحقوق على الرجال •

ولئن كانت المرآة اداة الازدواج المفضلة فانها ليست الوسيلة الوحيدة ، بل هناك ايضا الحوار الداخلي • والمرأة التي تعاني الوحدة والسأم تسلى بتحويل شخصها الى حلم • والمعلوم ان النساء يتمسكن بذكريات الطفولة تمسكا كبيرا لانهن كن آنذاك يشعرن بسلطة الاب كما كان يذقن مباهج الاستقلال •

وليس من حاجة الى ان تكون المرآة جميلة كيما تعبر عن شخصيتها في زينتها وفي باطنها وتتناسب الصورة في تماسكها واصالتها مع ذكاء المرأة وعنادها ومدى انخطافها • واذا لم تتصور المرأة في نفسها الجمال والسعادة فانها تختار شخصية الضحية •

وهناك نساء كثيرات يؤمن بتفوقهن ولكنهن عاجزات عن ابرازه امام اعين الناس ، فيدفعهن الطموح الى الاستعانة برجل يقنعنه بمواهبهن • انهن يلتفتن اذن الى الرجال المتمتعين بالشهرة آملات بالتوحد معهم اذا ما صرن ملهمات لهم •

مثال ذلك (مابل دودج) في علاقاتها مع (لورنس) •

«كنت اريد ان اسحر فكره وان ادفعه الى انتاج بعض الاشياء ••• كنت بحاجة الى نفسه وارادته ومخيلته المبدعة ورؤيته المنيرة • كان ينبغي لي السيطرة على دمائه كيما اصبح سيدة لهذه الوسائل الجوهرية» •

كما ان (جورجيت لوبلان) كانت تريد ان تكون للشاعر ماتزلنك «غذاء ولهيبا» ولكنها كانت تريد ايضا ان ترى اسمها مسجلا على كتاب الشاعر .

ان عاشقة ذاتها لا تتحمل رؤية اعراض الآخرين عنها . فاذا تأكدت انها ليست معبودة فسرعان ما تفترض انها مكروهة .

على ان مهزلة عشق الذات تجري على حساب الحياة الواقعية ، واذا ما صارت المرأة فريسة لنفسها فانها تفقد تمكنها من العالم الملموس ، ولا تحرص على اقامة اية علاقة واقعية مع الآخرين . ولما كانت الصورة غير موجودة فان عاشقة ذاتها تتعرض الى فشل جذري . ومن الخطأ الاعتقاد انها تتحرر من التبعية ، بل على العكس ، تزداد عبوديتها .

الفصل الثاني

العاشقة

•

ليس للحب ابدا نفس المعنى الى كل من الجنسين وهذا من اسباب سوء التفاهم الخطير الذي يفصل بينهما • وصدق (بيرون) بقوله ان الحب بالنسبة الى الرجل احد المشاغل فقط اما بالنسبة الى المرأة فهو حياتها بالذات •

مهما تدله الرجل في حبه فان المرأة المحبوبة بالنسبة اليه تبقى قيمة من بين قيم اخرى في حين ان الحب بالنسبة الى المرأة خضوع تام لمصلحة سيد •

والحقيقة ان ذلك لا يعبر عن قانون طبيعي ، بل ان اختلاف وضعهما هو الذي ينعكس في المفهوم الذي يتبناه الرجل والمرأة عن الحب • فالمرأة تحلم في الاتحاد والتمازج مع كائن اسمى وليس امامها من مخرج سوى ان تذوب جسدا وروحا في الشخص الذي حدد لها على انه المطلق والجوهري • ولما كانت مقيدة بالتبعية فالافضل لها ان تخدم الها من ان تطيع طاغية • وتصل بها اللهفة في ارادة العبودية حد اعتبار هذه العبودية كتعبير عن حريتها • ويصبح الحب دينا وعبادة بالنسبة اليها •

تتمنى الفتاة الساذجة دائما ان يلخص الحبيب جوهر الرجل . الا ان ما يحدث غالبا هو ان المرأة لا تنجح في تحويل اي رجل الى اله .

ان المرأة لا تستطيع التوفيق المنسجم بين الشبق وعشق الذات الا بالحب ولكن التضاد بينهما يجعل تكيف المرأة مع مصيرها الجنسي صعبا جدا . فالتحول الى متاع جسمي ، الى فريسة ، يناقض ما تكنه المرأة من عبادة لذاتها . لذلك يصطفي بعض النساء البرود الجنسي علما منهن انهن يحافظن هكذا على سلامة ذاتهن ، في حين ان البعض الآخر يفصلن بين الملذات البهيمية والمشاعر السامية .

وتحس العاشقة برغبة ولهى في تخطي حدودها الخاصة لتصبح غير محدودة الآفاق بفضل شخص آخر تفتح امامه ابواب الواقع اللامتناهي . انها تستسلم للحب في الاول كيما تنقذ نفسها ولكن التناقض الكامن في الحب المتعبد هو ان العاشقة ينتهي بها الامر الى انكار ذاتها .

ان الهدف الاخير للحب البشري كما للحب الصوفي هو التوحد مع ذات المحبوب . ولما كان قياس القيم وحقيقة العالم في وجدانه ، فليس كافيا اذن ان تخدمه المرأة ، بل انها تحاول ان ترى بعينيه .

الحب الصحيح ينبغي لـه ان تقبل النواقص والحدود في شخص المحبوب ولا يدعي ان يكون سوى علاقة انسانية . اما الحب المتعبد فيكسب شخص المحبوب قيمة مطلقة ، وهذه كذبة اولى تفضحها انظار الآخرين . وحتى لو كان جديرا باعمق حب فان حقيقته انسانية وطينته بشرية .

ان رفض تطبيق القياس البشري على شخص المحبوب يفسر كثيرا من تصرفات النساء المتناقضة • فما دام الحبيب محبوبا فانه يرفع الى مرتبة الالوهية ومتى كفت المرأة عن عبادته عمدت الى دوسه بالاقدام •

لا تكاد المحبة تذوب في شخص المحبوب حتى تعمل على انتشال ذاتها • انها تستسلم له بكليتها ولكن ينبغي له ان يكون مستعدا بكليته ليستلم هذه الهدية •

الا ان المرأة لا تقبل حقا ان يكون الرجل سجينها ولا شيء سوى ذلك ، وهذا من المتناقضات المؤلمة الكامنة في الحب • لان الاله اذا صار سجينا تعرى من الوهيته •

وتبذل العاشقة الحذرة الجهود كيما تحول هوى عشيقها الى حنان وصداقة او تحاول ان تربطه بوشائج متينة كالطفل • ولا يعتبر فشل الحب المطلق تجربة خصيبة الا اذا بقيت المرأة قادرة على التحكم بنفسها، مثل هذه العاشقة التي انقذت نفسها باهتمامها بادارة احد الاديرة ، اي انها بنت لنفسها كيانا مستقلا •

يجب ان يؤسس الحب الصحيح على الاعتراف المشترك بوجود حريتين دون ان تتخلى اي من المحبين عن نزوعه الى الارتقاء •

يوم تستطيع المرأة ان تحب بقوتها لا بضعفها ، لا لتهرب من ذاتها بل لتكتشف نفسها ، في ذلك اليوم يصبح الحب للمرأة كما للرجل ، ينبوع حياة لا مصدر خطر قاتل • وفي انتظار حدوث ذلك ، يلخص الحب اللعنة التي تحيق بالمرأة المحبوسة في العالم النسوي والعاجزة عن كفاية نفسها بنفسها •

الفصل الثالث

المتصوفة

•

كتب على المرأة الحب كفاية قصوى ، وحينما تحب رجلا ما فانها تبحث فيه عن الآلهة • فاذا حالت الظروف دون ان تحب حبا انسانيا او صدمت في قلبها او كانت كثيرة الالحاح فانها تميل الى عبادة الالوهية في الاله نفسه • والنساء بعكس الرجال ، يعشن لهفتهن الصوفية بصورة عاطفية لا فكرية • والمحبوب يبقى غائبا ولكنه يتصل بعابدته عن طريق الرموز المبهمة • وليست المرأة في حاجة الى الرؤية واللمس كيما تحس بالحضور الى جانبها ، ويتمازج الحب الانساني والحب الالهي لا على ان الحب الثاني تصعيد للاول ، وانما لان الحب الاول هو ايضا وثبة نحو السامي ، نحو المطلق •

يشاهد لدي كثير من الورعات هذا الخلط بين الرجل والاله • وان ما تصبو اليه كل متصوفة هو بلوغ ينبوع القيم الاسمى • وهي بحاجة احيانا الى الرجل كوسيط نحو السموات ، على ان ذلك ليس ضروريا دائما •

وبدعي بعضهم احيانا ان فقر اللغة يضطر المتصوفة الى استعارة المفردات الجنسية ، ولكنها لا تستعير من الحب الارضي الكلمات فقط ، بل تستعير ايضا بعض التصرفات الجسمية ، فيصدر عنها كيما

تهب نفسها للرب ، نفس السلوك الذي يصدر عنها حينما تهب نفسها للرجل • على ان ذلك لا يقلل ابدا من قيمة مشاعرها •

لا نقاس قيمة التجربة الصوفية بالطريقة المعاشة شخصيا بل بحسب اهميتها الموضوعية • فالقديسة تيريز تطرح مشكلة العلاقة بين الفرد والكائن الاسمى بصورة فكرية ، ولكنها تشكل استثناء لان الاكثرية تقدم لنا صورة نسوية عن العالم والخلاص •

ان المرأة تبحث في الحب الالهي ما تنشده المحبة من حب الرجل •

واغلب المتصوفات لا يكتفين بالاستسلام السلبي للاله بل يقبلن بكل نشاط على افناء ذاتهن باحتقار وتحطيم جسدهن • وهذا الاله يظهر لهن غالبا في صورة الزوج •

النشوة والرؤى والحوار مع الاله هذه هي الاشياء ، هذه هي التجربة الضمنية التي تكفي بعض النساء • الا ان هناك اخريات يشعرن بالحاجة الى الاتصال بالعالم من طريق الافعال • وتأخذ الصلة بين الافعال والتأملات شكلين مختلفين جدا : فالنساء مثل (جان دارك) يعرفن اهدافهن تمام المعرفة ويستنبطن عن بصيرة الوسائل لبلوغها • وهناك نساء لا يهمهن الا ان يعملن شيئا ما ، مهما يكن هذا الشيء •

ان كل هذه الجهود لتحقيق الخلاص الفردي لا يمكنها في حد ذاتها ان تؤدي الا الى الفشل • فالمرأة اما ان تتصل بشيء غير واقعي او انها تخلق علاقة غير واقعية مع كائن واقعي ، لذلك تبقى حريتها خاضعة للتعمية • وليس هناك سوى طريقة واحدة لاستكمال هذه الحرية استكمالا صحيحا وهي ان تقذف بها في اعمال ايجابية ضمن المجتمع الانساني •

نحو تحرُّر المرأةُ

القسم الرابع

الفصل الاول

المرأة المتحررة

•

لم تعد اغلبية القوانين المدنية تتضمن نصوصا تلزم المرأة المتزوجة بطاعة زوجها والولاء له • كما ان كل مواطنة اصبحت تتمتع بحق التصويت • لكن هذه الحريات المدنية تبقى خيالية اذا لم يصحبها استقلال المرأة الاقتصادي ، وما دامت المرأة تعيش على عاتق الرجل — سواء كانت زوجة او محظية — فان بطاقة الانتخاب لا تكفي لتحريرها من سيطرة الرجل ، واذا كانت العادات في الوقت الحاضر تفرض عليها التزامات اخف وطأة مما كانت عليه في الماضي ، فان هذه الحريات السلبية التي حصلت عليها لم تغير حالتها ووضعيتها بصورة جذرية ، فهي لا تزال تعيش ضمن نظام التبعية للرجل • وقد قطعت المرأة خطوات واسعة من المسافة التي تفصلها عن الرجل بفضل العمل ، الذي يستطيع لوحده ان يضمن لها ان تتمتع بحرية واقعية ملموسة وان تشعر بالنتيجة بمسؤولياتها بواسطة الاموال والحقوق التي تملكها ، وتحس بشخصيتها المستقلة • الا انه يجب علينا ان لا نعتقد ان مجرد حصول امرأة على حق معنوي ، ومزاولتها مهنة من المهن يشكل بحد ذاته تحريرا كاملا لشخصية المرأة : ان العمل في يومنا هذا لا يعني مطلقا الحرية ، ولا يمكن

للمرأة ان تتحرر تحررا تاما بواسطة العمل الا ضمن المجتمع الاشتراكي ، لان اغلبية العمال في المجتمع الرأسمالي ، مستثمرون من قبل رأس المال . كما ان البيئة الاجتماعية من جهة ثانية لم تتغير تغيرا جذريا نتيجة لتطور شروط حياة المرأة العصرية . ان هذا العالم الذي كان يعتبر ملكا للرجال ، لا يزال يحافظ على الشكل الذي طبعه به هؤلاء ، ويجب ان لا يغيب هذا الامر عن اذهاننا حين نعالج قضية ممارسة المرأة للعمل ، وتأثير ذلك على اوضاعها الاجتماعية . وقد اكد اغلبية عاملات مصانع (رينو) للسيارات تفضيلهن البقاء في المنزل عوضا عن العمل خارجه ، كما يجب ان نلاحظ ان هؤلاء العاملات توصلن الى استقلالهن ضمن طبقة مضطهدة اقتصاديا ، وان اعمال المرأة خارج البيت لا تعفيها من القيام باعبائها المنزلية . وفي يومنا هذا لا تستطيع اغلبية النساء العاملات التهرب من الحكم النسوي التقليدي ولا تلقين من المجتمع او من الازواج اية مساعدة ، لكي يصبحن حقيقة مساويات للرجال ، ولا يستثنى من ذلك سوى النساء اللواتي يؤمن بعقيدة سياسية وينتظمن في صفوف النقابات ، الامر الذي يؤدي الى تحريرهن تحريرا كاملا من سطوة الرجل .

هنالك عدد كبير من النساء في يومنا هذا ، يتمتعن بميزة الاستقلال الاقتصادي والاجتماعي ، من خلال ممارسة احدى المهن . والاحاديث تدور في المجتمعات عن امكانيات المرأة التي تنتمي الى هذا النوع من النساء ، وعما سيكون عليه مستقبلها . وعلى الرغم من انهن لا يشكلن سوى اقلية ضئيلة بين النساء فان دراسة اوضاعهن بشكل خاص هو امر هام بحد ذاته ، لان المناقشات والمساجلات بين انصار واعداء تحرير

المرأة تدور حولهن • يؤكد المعادون للمرأة المتحررة انها لا تنتج في حياتها اي شيء له قيمة او اهمية ، وانها تجد مشقة كبيرة في التوصل الى توازن نفسها الداخلي • اما انصار المرأة فانهم يبالغون في النتائج التي حصلت عليها ويتعامون عن قلقها واضطرابها في حياتها الجديدة • والواقع انه ليس هنالك ما يدل على ان المرأة لم تختر الطريق القويم ومع ذلك فانها لم تشعر بعد بطمأنينة وسلام في حياتها الجديدة : انها في منتصف الطريق ، لان المرأة التي تتحرر اقتصاديا من رابطة التبعية نحو الرجل لا تجد نفسها على الرغم من ذلك في شروط اخلاقية ، واجتماعية ونفسية مماثلة لشروط الرجل • والواقع هو ان الطريقة التي تمارس فيها المرأة مهنتها تتأثر بمجموع شروط حياتها • وهي حين تباشر حياتها كراشدة لا تخلف وراءها نفس الماضي الذي يخلفه الفتى وراءه ، كما ان المجتمع لا ينظر اليها نفس نظرته الى الفتى ، فالعالم ينفتح امامها في شروط تختلف عن شروطه وصفتها كامرأة يفرض عليها كانسان مستقل مشاكل خاصة •

★ ★ ★

ان الامتياز الذي يتمتع به الرجل ، والذي يشعر به منذ طفولته ، هو ان ميله لان يكون انسانا بشريا مستقلا لا يتعارض مطلقا مع مصيره كذكر • اما المرأة فان المجتمع يطلب منها ان تكون متعة وفريسة ، لكي تكتمل عناصر انوثتها ، وهذا يعني بالنسبة لها ، التخلي عن مطلبها في ان تكون انسانا حيا يتمتع بالسيادة • وهذا الخلاف الذي يميز بشكل خاص حالة المرأة المتحررة ، فهي ترفض ان تقتصر على القيام بدور الانثى لانها لا تريد ان تنتقص من شخصيتها ، لكن تخليها عن هذا الدور

ينتقص من قدرها كامرأة ، ان الرجل هو انسان بشري له جنس خاص ، ولا يمكن للمرأة ان تكون بالمقابل فردا كاملا مساويا للرجل الا اذا كانت هي نفسها شخصا بشريا لها جنسها الخاص ، فالتخلي عن انوثتها يعني التخلي جزئيا عن انسانيتها ، وكثيرا ما نرى اعداء المرأة يوجهون اللوم اليها ، اذا كانت متحررة ، لانها تحمل جمالها وزينتها وانوثتها ، لكنهم لا يتورعون عن تقديم النصح للمرأة التي تطمع في الاستقلال فيقولون لها : اذا اردت ان تحصلي على المساواة معنا ، توقفي عن طلاء وجهك بالمساحيق ، واظافرك بمختلف انواع الاصبغة ، ان هذه النصيحة الاخيرة هي سخيفة جدا بحد ذاتها لان مفهوم الانوثة تفرضه العادات والتقاليد دون ان يكون لها اي مجال للاختيار ، وقد يتطور هذا المفهوم فيفترق بعض الشيء عن القواعد التي يتبعها الرجل : فعلى الشاطيء يصبح السروال زيا نسائيا ، لكن هذا لايغير في الواقع من طبيعة الاشياء لان الفرد لا يتمتع بالحرية في تعديل طراز حياته كما يشاء ولا شك ان قيمة المرأة تقل جنسيا اذا لم تخضع للقواعد المألوفة ، وهذا يؤدي بالتالي الى فقدانها لمنزلتها الاجتماعية ، لان المجتمع الذي تعيش فيه يأخذ بعين الاعتبار القيم الجنسية ، وتخلي المرأة عن صفاتها الانثوية لا يعني آليا حصولها على ميزات وصلاحيات الرجل ، ولو انها لجأت الى التنكر في زي وشكل الرجل لما استطاعت ان تغير من طبيعتها كامرأة لانها تبقى في مفهوم وعرف الناس امرأة متنكرة ، ولقد استقرت الامور على ان الفرد الذي يخالف قاعدة تفرضها العادات والتقاليد يصبح متمردا ثائرا على المجتمع وان المرأة التي ترتدي ثيابا بشكل غريب يلفت الانظار ، تكذب حين تؤكد بكل بساطة انها تشبع ميلها الفطري

لا اكثر ولا اقل لانها تعلم بان المرأة التي تتبع ميولها وغرائزها دون الالتفات الى القواعد التي استقرت عليها مفاهيم المجتمع ، هي امرأة غريبة متمردة عليه وبالعكس فان المرأة التي لا تود ولا ترغب في الظهور بشكل مثير غريب تكون قد خضعت للقواعد المشتركة المألوفة .

وباستثناء بعض الحالات فانه من الخطأ اختيار موقف التحدي تجاه العادات والتقاليد ، لان من يقدم على ذلك يستهلك وقته وقوته دون اي جدوى في اغلب الاحيان ، ولذلك فان المرأة التي لا ترغب في صدم مفاهيم الناس والتي لا تريد ان تفقد منزلتها الاجتماعية ، ان هذه المرأة يجب عليها ان تعيش حياة بقية النساء وفي اغلب الاحيان لا تستطيع ان تنجح في عملها الا اذا تبعت هذا الاتجاه .

ان المرأة تعلم بأن الناس يحكمون عليها ويحترمونها ويرغبون فيها من خلال زينتها وثيابها نفسها تؤهلها منذ البداية لان تظهر بمظهر العاجزة : فجواربها تتمزق وكعوب احذيتها تتآكل بسهولة وفساتينها ذات الالوان الفاتحة تتسخ ومع ذلك فانها مضطرة الى معالجة ذلك بنفسها ، وتصلح ثيابها كي تستطيع ان تظهر بشكل لائق امام الناس .

وحين تعود المرأة العاملة او الطالبة مساء الى بيتها فانها لا تجد الراحة بل تضطر في اغلب الاحيان الى الانصراف الى تحضير زينتها ومظهرها لليوم التالي ، ولا شك انه بوسعها اذا كانت تحصل على ارباح طائلة ان تتلافى هذه المشاغل المملة المتعبة لكنها مضطرة مقابل ذلك الى ان تظهر باناقة اكثر تقيدا فتضيع وقتا طويلا في شراء حاجياتها وفي الذهاب الى دور الخياطة والازياء . وتفرض التقاليد على المرأة كذلك ، حتى ولو كانت عزباء ، بعض الاهتمام بحياتها الداخلية فالموظف الذي يعين

في مدينة جديدة يقطن في الفندق بكل سهولة بينما تسعى زميلته في ان تسكن دارا خاصة بها يتوجب عليها العناية بها وعدم اهمالها .

الا ان المرأة لا تخصص هذه الاوقات الطويلة من حياتها للعناية بجمالها ومنزلها تلبية لرغبة المجتمع وحسب ، وانما تفعل ذلك ارضاء لنفسها والشعور على الدوام بصفتها كامرأة . ولانها لا يمكن ان تعيش بهدوء اذا لم تجمع بين حياة عملها الذي اختارته مع حياتها كأنثى ، هذه الحياة الاخيرة التي استعدت لها في طفولتها بعز شبابها ، تغذيها احلامها الترسيمية ، انها تريد ان تعرض نفسها وتسحر جميع الناس المحيطين بها . لقد كان الحصول على بيت خاص بها ، الشكل البدائي من الاستقلال والتحرر وهي الآن لا تود التخلي عنه بعد ان حصلت على حريتها في مجالات اخرى لانها تعلم بانها تستطيع ان تاوى الى هذا البيت حين ينتابها القلق والاضطراب في عالم الذكور . امينة على التقاليد الانثوية ، تداوم المرأة العاملة على القيام بجميع الاعباء المنزلية ، انها تريد ان تعيش في وقت واحد حياة الرجل وحياة المرأة ، وبذلك تتعدد مشاغلها وتتضاعف متاعبها وجهودها .

واذا كانت المرأة تأمل في ان تبقى متمتعة بصفات الانوثة فانها تود كذلك ان تحتك بالحب الخشن مع اكبر حظ لها في النجاح ، ومهما تمتعت المرأة العاملة بالثروة والشهرة فان مجرد ممارستها نشاطا مستقلا يناقض انوثتها ، وانها لتعلم ذلك تمام العلم . ان المرأة المستقلة — وبصورة خاصة المثقفة — تعاني من مركب النقص بصفتها انثى ، اذ ليس لديها الوقت الكافي لتخصيصه الى العناية بجمالها ، ومهما اتبعت نصائح الاختصاصيين فلن تكون في ميدان الاناقة سوى مجرد هاوية .

انها تحاول على الدوام ان تحصل على اعجاب الرجل لكنها تفشل في اغلب الاحيان وهذا الفشل يولد في نفسها شعورا بالمرارة والنقص ، فترتكب اخطاء تماثل اخطاء المرأة في سن اليأس : فهي تحاول ان تتجاهل قوتها الذهنية كما تحاول المرأة المشرفة على الشيخوخة ان تتجاهل سنها ، فنراها ترتدي ازياء الفتيات الصغيرات ذات الالوان الزاهية ، وتبالغ في الكلام باللهجة الصبيانية التي تستغرب كل شيء ، وقد تلعب كالاطفال وتقفز كالعصافير وتثرثر دون كلل او ملل .. لكنها تبدو في ذلك كالممثلات المبتدئات ... وانها لتحس بذلك وتستاء من نفسها ، ولذلك تبدو على مظهر الوجه البسيط ، من وقت لآخر لمحات خاطفة من الذكاء الحاد ، فلا تلبث الشفاه البرئية الممدودة من ان تتقلص .

ولا شك في ان الصعوبات التي تلاقيها المرأة المثقفة في الحصول على اعجاب الرجال يعود الى انها ليست فريسة لرغبة اثارة اعجاب الرجال بها فحسب ، ومهما كانت هذه الرغبة قوية لديها فانها لا تنبت من اعماق نفسها ، لانها ما ان تحس بتصرفها السخيف الغريب حتى تستاء من عبوديتها وتحاول ان تنتقم باستعمال اسلحة الرجال ، فتتكلم عوضا عن ان تصغي وتشرح افكارها بكل اسهاب وتعارض محادثيها عوضا عن الموافقة على آرائهم ، وتحاول التغلب عليهم .

مهما يكن الامر فان الرجال بدأوا يسلمون بالشروط الجديدة لحياة المرأة ، على انه واقع لا بد منه . واخذت المرأة تشعر بالراحة بدورها لانها لم تعد محكوما عليها بالبقاء في اوضاع التبعية . ومع ذلك فان هذا النجاح ـ الذي يشكل منذ الآن تقدما محسوسا نحو وضعية التوازن ـ لا يزال غير مكتمل العناصر . فحياتها الجنسية

والعاطفية تصادف حواجز شتى ، وهي لا تزال تجد صعوبة اكثر من الرجل في اقامة العلاقات التي تريدها مع الجنس الآخر ، على انه يجب ان لا يتبادر الى الذهن ان المرأة التابعة التي لا عمل لها كالزوجة او المحظية تتمتع بامتياز في هذا المجال ، لان حقوقها هي الاخرى مهضومة لانها اختارت النضال عوضا عن الاستسلام • ان جميع مشاكل الحياة بشكل جذري لكن المصاعب تجابه المرأة المستقلة بشكل اشد وضوحا تجد حلا نهائيا لها في الموت ، ولا ان المرأة التي تحاول ان تعيش بحرية هي اشد انقساما واضطرابا من الاخرى التي تدفن ارادتها ورغباتها وتستسلم لمصيرها الذي يفرضه عليها مجتمعها •

تحتاج المرأة العاملة التي تبذل الجهود الكثيرة وتتحمل المسؤوليات الضخمة ، والتي تعرف معنى النضال ضد مقاومة العالم الخارجي لها ، تحتاج هذه المرأة لا الى اشباع شهواتها الجسدية فحسب وانما الى الشعور بالهدوء والسكينة اللذين تجلبهما المغامرات الجنسية السعيدة • غير ان هنالك اوساط اجتماعية معينة لا تعترف لها بهذه الحرية وقد تتعرض اذا مارستها الى فقدان سمعتها ومهنتها ، وحتى في احسن الحالات ــ حين لا يكون لرأي الناس اية اهمية ، فان المرأة لا تتساوى مع الرجل ويعود السبب في اختلاف الحالتين الى التقاليد والمشاكل التي تثيرها الطبيعة الجنسية الخاصة للمرأة •

يستطيع الرجل بكل سهولة ان يطفىء ظمأه الجسدي دون ان يتولد عن ذلك اية نتائج ضارة • وقد طالب في الماضي عدد قليل من النساء بفتح محلات عامة لهن اسوة بالرجال ، وفي احدى القصص المنشأة (رقم ١٧) اقترحت المؤلفة تأسيس بيوت تلجأ اليها النسوة

لتصرف عاطفتهن الجنسية بواسطة (رجال ـ تاكسي) ، ويظهر ان مؤسسة من هذا النوع وجدت في مدينة سان فرانسيسكو ، وكان يؤمها بنات المحلات العامة فقط ، اللواتي كن على غاية السرور لانهن يدفعن ثمن لهوهن وتسليتهن ، وقد اغلقت هذه المؤسسة نتيجة لضغط حماة تلك الفتيات • وبالاضافة الى كون هذا المحل خياليا وغير مرغوب فيه ، فانه سيلقى في حالة تطبيقه نجاحا ضئيلا ، فقد رأينا ان المرأة لا تحصل على (التفريغ) الجنسي آليا كما هي الحالة لدى الرجل ، اما الحل الذي ينحصر في التفتيش عن رفيق ليلة او ساعة في الشوارع ـ بفرض ان المرأة تقبل الاقدام على هذا الامر ـ فانه اكثر خطرا بالنسبة اليها من الرجل ، لان الامراض التناسلية هي اشد خطورة لديها كما انها لا تستطيع ان تتلافى اخطار الحمل والولادة الخ •• غير ان اختلاف القوة الجسدية يشكل العقبة الكأداء في العلاقة من هذا النوع بين الرجل والمرأة ، فليس للرجل ان يخاف شيئا من المرأة التي يصحبها الى بيته ، لكن الامر على خلاف ذلك بالنسبة للمرأة التي تسمح بادخال رجل غريب الى بيتها • وقد حدثني البعض عن قصة امرأتين شابتين ذهبتا في زيارة خاصة لباريس ، «للتمتع بلذائذ الحياة» ، وبعد ان قامتا بجولة ليلية في احياء المدينة ، وجهتا الدعوة الى شابين فاتنين من حي مونمارتر لتناول العشاء في بيتهما • وقد سلب الشابان متاعهما في الصباح بعد ان تعرضتا للعنف والتهديد بالقتل • وقد نمي الي حالة اخرى تعطينا صورة واضحة عن اخطار مثل هذه المغامرات ، وهي قصة امرأة في الاربعين من عمرها ، مطلقة من زوجها ، كانت تعمل بجد واستمرار لاعالة اولادها الثلاثة وابويها المسنين • كانت لا تزال جميلة

جذابة ولم يكن لديها مطلقا الوقت الكافي لاقامة علاقات اجتماعية مع الناس ، ومع ذلك كانت غرائزها تدفعها الى القيام بعمل ما وكانت تعتبر انه من حقها كالرجل تماما ان تلبي نداء غرائزها وتطفىء ظمأها • وكانت تتجول في بعض الليالي في الشوارع مفتشة عن رجل يشبع رغباتها ، الا انها فوجئت في احدى المرات بعد ان قضت ساعتين مع رجل في غاية بولونيا ، ان رفض عشيقها السماح لها بالذهاب الا اذا اعطته اسمها وعنوانها وطلب ان يراها مرة ثانية وان يعيش معها على الدوام ، وحين رفضت ضربها بعنف ثم تركها مثخنة الجراح بين الموت والحياة • وقد تلجأ بعض النسوة الى اختيار عشيق يعيش معهن مقابل اعالته والانفاق عليه ، لكن هذه الطريقة لا ترضي اكثر الرجال لتعارضها مع رجولتهم ، كما انه من الصعب على المرأة اذا لم تكن مسنة ان تفصل عواطفها عن رغبتها الجسدية •

وهكذا نجد ان المرأة المتحررة منقسمة على نفسها بين مصالحها المهنية ومصيرها التقليدي كامرأة ، وهي تجد مشقة كبيرة في الوصول الى وضعية التوازن ، واذا اتيح لها الحصول على هذا التوازن ، فانها تكون قد دفعت الثمن سلسلة من التنازلات والتضحيات ، وعاشت حالات مخيفة من التوتر العصبي الدائم • وفي مثل هذه الامور يجب ان تفتش عن اسباب انفعال المرأة المستمر وانهيار اعصابها التي لا تعود حتما الى اسباب فيزيولوجية • وقد تساءل المختصون منذ زمن طويل عن الدور الذي تلعبه البنية الجسدية للمرأة في حياتها ، وبصورة خاصة هل تشكل الدورة الشهرية عائقا امام المرأة في سبيل حصولها على استقلالها وتحررها ، لكن التحقيقات دلت على ان اكثرية النساء اللواتي يمتزن

بالتفوق ، لا يعلقن اية اهمية على الدورة الشهرية لان انصراف المرأة الى عملها وتفوقها فيه يجعلها تنسى محاذير الدورة الشهرية وتقلل من اهميتها ، وهذا لا يعني ان متاعب المرأة الناتجة عن بنيتها الجسدية هي متاعب خيالية ، بل هي حقيقية كالحالة التي تعبر عنها . لكن حالة المرأة لا تنبع من حالتها الجسمانية وانما تتكيف نتيجة لاوضاعها الاجتماعية فصحتها وبنيتها لا تضرانها في عملها حين تجد المكان اللائق بها في المجتمع بل ان العمل يساعدها على العكس من ذلك في الوصول الى توازنها الداخلي فيجعلها تنسى متاعبها في غمرة مشاغلها المهنية .

يجب ان لا تغيب هذه الوقائع والملابسات عن اعيننا حين نحاول ان نحكم على مدى نجاح المرأة في ميدان العمل ، فهي تباشر مهنتها معذبة قلقة نتيجة للاعباء التي تجثم عليها تقليديا بسبب انوثتها . كما ان الشروط الموضوعية ليست بصالحها كذلك : من الصعب دائما على القادم الجديد ان يشق طريقه وسط مجتمع معاد له او ينظر اليه نظرات الريبة والشك . وقد بين ريتشارد رايت في كتابه (الصبي الاسود) كيف يحد المجتمع الاميركي منذ البداية من طموح الزنجي الشاب وكيف يتوجب عليه ان يناضل كي يرتفع الى مستوى المعاملة بالمثل مع البيض . كما ان الزنوج القادمين الى فرنسا من افريقيا يصادفون صعوبات مشابهة للصعوبات التي تصادف المرأة حين دخولها ميدان العمل .

تجد المرأة نفسها بادىء ذي بدء في حالة الفقر خلال فترة التحرير ، ولقد اشرت الى ذلك قبلا في الفصل المخصص لدراسة حياة الفتاة الشابة ، ويجب علي الآن ان افصله باسهاب . فمن النادر ان تتمكن المرأة خلال دراستها واثناء السنوات الاولى الحاسمة لممارستها المهنة ،

من الاستفادة استفادة تامة من فرص حظها في النجاح لان الازمات النفسية التي تكلمنا عنها تبلغ ذروتها بين سن ١٨ و ٣٠ وخلال هذه الفترة يتقرر مصيرها المهني . انها لا تستطيع ان تتصرف الى امور مستقبلها المهني بسبب انشغالها بامور اخرى غريبة عن عملها ولذلك فان مردود عملها يظهر ضعيفا كما ان وجود نساء في نفس مستواها الاجتماعي يعشن بدون عمل طفيليات على الرجال يضعف معنوياتها . فبعض الرجال يمتع بعض النساء بالثروة دون بذل اي عناء شخصي الامر الذي يغري النساء العاملات على ترك العمل واختيار الطريق السهلة .

ان الرجل يتبع الضرورة الحتمية حين يعمل ويكد ليكسب عيشه ، لكن المرأة مضطرة الى تجديد قرارها بالانصراف الى العمل في كل مناسبة لان اغراء الاستسلام الى الراحة والكسل والعيش في كنف الرجل لا ينفك يراودها ، وهكذا فانها لا تضع نصب عينيها هدف النجاح في عملها وانما تتردد وتتساءل في كل مناسبة عن ضرورة ما تقدم اليها . ومما يزيد في ترددها ، شعورها بفقدان جزء من انوثتها كلما توغلت في ميدان النجاح وانتهت في حياتها المهنية . وهذا النزاع المستمر بين النضال للحصول على حريتها المادية ، وبين دوافع الاغراء التي تدعوها للتخلي عن هذه الطريق الصعبة والاستسلام الى مصيرها كامرأة يؤثر على مردود عملها ويضعها في موقف العاجز بالنسبة للرجل الذي تنسجم شخصيته مع ضرورات الحياة المهنية التي اختارها .

تخلق شروط الحياة المستقلة في نفس المرأة التي تحنو الى ان تكون امرأة كما يريدها المجتمع ، مركب نقص شديد ، وتجعلها انوثتها

على العكس من ذلك تشك على الدوام في كفاءتها المهنية • وتكتسب هذه النقطة الاخيرة اهمية كبيرة فقد صرحت بعض الفتيان في سن الـ ١٤ : «ان الفتيات هم اشد كفاءة منا ويعملون بسهولة فائقة لا توجد لدينا» واكثرية الطالبات يؤمن بهـذه النظرة لان الاهل والاساتذة يجمعون على تفوق الفتيان • وقد دلت التحقيقات بالفعل على انه رغما من تماثل البرامج فان مستوى صف الفلسفة للطالبات اقل بكثير من مستوى نفس الصف للذكور ، وهذا طبعا باستثناء الحالات الشاذة • تتضاعف هذه العوامل وتتضامن وتضعف ثقة الفتاة بنفسها وتجعلها تؤمن بتفوق الرجل عليها فتشعر بالتعب والعصبية من الدراسة وبتلاشى من نفسها الميل الى النضال والاطلاع وتتمنى لو تستطيع ان تتزوج فتنتهي من هذه الحياة المملة المتعبة •

نتيجة لهذه الانهزامية تقنع المرأة بسهولة بنجاح بسيط في حياتها المهنية ولا تجد في نفسها الجرأة على بلوغ المراتب العليا فتبدأ بمزاولة مهنتها بخبرة سطحية وتضع سريعا الحدود لطموحها ، ويبدو لها في اغلب الاحيان ان مجرد توصلها الى كسب حياتها بجهودها يشكل بحد ذاته ميزة عظيمة لها • لقد كان بوسعها ان تضع مستقبلها بيد احد الرجال وتستسلم الى حياة الكسل والارتخاء ، ولذلك فانها بحاجة الى بذل مجهود كبير منهك لكي تثابر على عملها وكثيرا ما تخاف من الذهاب بعيدا في ميدان الاعمال بسبب شعورها بالضيق من عدم ثقة الناس بها وبقدرتها • ان الطبقة العليا الحاكمة في مجتمعنا الحالي وهي طبقة الرجال تستاء وتعارض مجيء القادمين الجدد من الطبقة الدنيا : فالبيض لا يذهبون مطلقا لاستشارة طبيب زنجي كما ان الذكور لا يلجأون الى

استشارة الطبيبة وبصورة عامة لا يحب الرجال او النساء الوقوع تحت سلطة امرأة ، كما ان رؤساءها في العمل ينظرون اليها نظرة الاستخفاف حتى ولو كانت ذات مقدرة وكفاءة نادرتين • يجب على المرأة ان تحصل دائما على ثقة الآخرين الذين لا يمنحونها اياها في البدء بل يقولون لها يجب عليك ان تثبتي كفاءتك ، الا ان مركب النقص المتولد من عدم الثقة ينعكس لديها ردود فعل غريبة تعرقل توازنها في عملها وتجعلها تبالغ في اظهار سطوتها وقوتها كما تفعل النساء الطبيبات •

هنالك فئة من النساء لا تنطبق عليها هذه الملاحظات لان مهنتهن لا تتعارض مطلقا مع انوثتهن بل تساهم على العكس في تقويتها كالممثلات والراقصات والمغنيات وقد بقين خلال ثلاثة قرون حاملات لواء الاستقلال والتحرر في وسط مجتمع معاد ، ولا زلن حتى الآن يشغلن مكانا ممتازا • ان الفائدة الكبرى التي تتمتع بها هذه الفئة من النساء هي ان نجاحاتهن المهنية تساهم ـــ كما هي الحال لدى الذكور ـــ في تقييم مزاياهن الجنسية ، فالممثلة مثلا لا تعاني الحيرة من جراء الاتجاهات المتضادة المتناقضة التي وجدناها في حياة المرأة العادية بل تجد في مهنتها على العكس من ذلك تبريرا لحبها لنفسها لان الزينة والجاذبية تشكل جزءا من واجبها المهني •

الا ان هذه الامتيازات النادرة تخفي وراءها عثرات وفخاخا : فموضا عن ان تدمج المرأة مسراتها النرسيسية في حياتها الفنية تجنح في اغلب الاحيان الى الانغماس في المسرات وتقديس نفسها وجمالها ، وهذا بحد من كفاءتها كفنانة لانها تكتفي حينئذ بتأثير مظهرها الخارجي • وتعتقد ان مجرد كونها هي هي كاف لابرازه وانه لا حاجة لبذل اي جهد جدي •

فتتابع في حياتها الخاصة مساوىء الرتيبة وتبدو مزهوة بنفسها مفرطة الحساسية، مستلة تعتبر العالم كله مسرحا وهي بطلته .

لم تعد الفنون التعبيرية في يومنا هذا المجال الوحيد المفتوح امام المرأة للحصول على استقلالها وحريتها، فعدد كبير من النساء يحاولن التوجه نحو مجالات اخرى خلاقة كالادب والفن، ان المرأة تعيش على هامش عالم الذكور ولا تتحسس به في شكله العام الشامل الا من خلال زاوية خاصة، فهو لا يبدو لها مجموعة من الوسائل والمفاهيم وانما مصدرا للتأثرات والانفعالات، متينة وضعية السلبية والرفض، فلا تجرأ المرأة على الاندفاع نحو العالم الحقيقي بل تكتفي بالاحتجاج عليه .

انها تنشد من خلال الطبيعة صورة روحها وتستسلم الى الاحلام محاولة ان تصل الى نفسها وان تكتشف شخصيتها وهي لا تستطيع ان تحقق كل ذلك الا ضمن نطاق عالم الخيال ولذلك تشعر بالحاجة الى التعبير عن نفسها فنراها تلجأ الى الاحاديث الطويلة ومحاولة الكتابة وتحرير المذكرات الخاصة .

لكن الشروط نفسها التي توجه المرأة نحو المهن الخلاقة تشكل امامها عوائق يصعب عليها في أغلب الاحيان تخطيها فهي اذا قررت الانصراف الى الكتابة والرسم لاملاء فراغ حياتها، تمت حينئذ محاولاتها الادبية ولوحاتها الفنية بـ (انتاج النساء) وهذا يعني انه انتاج متوسط لا يبلغ مطلقا مراحل الابداع . والواقع ان المرأة تتعرف الى الريشة والقلم في فترة سن اليأس لتعويض الفراغ الحاصل في حياتها، لكن الاوان يكون قد فات فلا تصبح حينئذ سوى هاوية في

فنها لا محترفة وحتى لو تيسر لها ان تبدأ حياتها الفنية او الادبية وهي شابة من النادر ان تعتبر فنها عملا جديا ، وكما تعودت في صغرها على الخداع والتزييف والمداهنة فانها تفعل نفس الشيء في حياتها الفنية فتكتفي بالمظهر الخداع وتهمل المحتوى الابداعي الخلاق •

من الطبيعي جدا ان تسعى المرأة للخلاص من هذا العالم الذي لا يفهمها وتجاهلها لكنه مما يدعو للاسف انها لا تجد في نفسها الجرأة للتعبير عن شخصيتها كي يفعل الرجال الكبار امثال (ادكار الان بو) • وهنالك اسباب عديدة تبرر هذا التصرف لان اثارة الاعجاب تحتل مركز الثقل في حياتها وينتابها الخوف دائما من ان يكف الرجال عن الاعجاب بها كامرأة اذا انصرفت الى الكتابة • ان الكاتب الحقيقي يتصف بقول الصدق بصراحة تقرب من الفضائح في بعض الاحيان ، والجديد يعتبر دائما مثارا لقلق وتخوف الناس ولذلك فان المرأة التي لا تزال مندهشة مزهوة بقبولها في عالم الفكر والفن الذي هو عالم الرجال ، تبقى خجلة منكمشة على نفسها لا تجرأ على ابتكار شيء جديد وكأنها تود الحصول على الغفران بسبب اقتحامها ميدان الفن بتواضعها •

ان الفن والآداب والفلسفة هي محاولات لاقامة العالم على دعائم الحرية الانسانية ، الحرية المبدعة الخلاقة ، ولا شك انه من الواجب على من يدعي المساهمة في مجالات الابداع ان يحرر نفسه قبل كل شيء من وطأة العادات والتقاليد والثقافة ومن المعترف به ان القيود التي تفرضها التربية والعادات على المرأة تحد كثيرا من قدرتها الابداعية •

لا شك ان الفتاة تخرج لوحدها في هذه الايام وتسافر وتتنزه

منفردة في اي مكان يروق لها لكني اوضحت من قبل كيف يكون الشارع عدائيا لها ، ففي كل مكان ترمقها العيون وتنتظرها الايادي ، وسواء تهادت في مشيها ام اسرعت الخطى ام اشعلت لفافة تبغ على سطح احد المقاهي او ذهبت الى السينما فانها بحاجة الى الظهور بمظهر الحذر لكي يحترمها الناس .

كل شيء يدعوها الى الاستسلام لسيطرة الآخرين وبصورة خاصة في ميدان الحب . الا انه يحدث ان يلعب الفشل في هذا الميدان دورا هاما في حياة المرأة : فانعزال اميلي برونتي هذا الذي اتاح لها كتابة قصة عظيمة عميقة لانها لم تكن تنتظر المساعدة الا من نفسها امام الطبيعة والقدر ، وروزا لوكسمبرغ كانت قبيحة لدرجة لم يكن هنالك ما يدفعها الى عبادة نفسها فتصبح فريسة للرجال ولذلك نبغت منذ حداثتها وكانت على الدوام روحا ومشعلا للحرية .

ان الرجال الذين ندعوهم الكبار ، هم هؤلاء الذين حملوا على اكتافهم بطريقة او بأخرى ثقل العالم واستطاعوا ان ينجحوا في ذلك ، الامر الذي لم تفعله اية امرأة في وقت من الاوقات . ولكي ينظر الانسان الى العالم كأنه عالمه ، ولكي يستطيع ان يجد في نفسه الكفاءة لتحمل مغبة اعماله واخطائه ومنجزاته ، يجب ان يكون منتميا الى طبقة اصحاب الامتياز ، الى طبقة هؤلاء الذين يمسكون زمام القيادة لوحدهم : الرجال . لقد تجسد الانسان حتى الآن في صورة الرجل لا في شكل المرأة ، ومن المعروف ان هؤلاء الاشخاص الذين يبدون لنا كمثل اعلى والذين نسميهم العباقرة ، هم هؤلاء انفسهم الذين حاولوا ان يلعبوا بواسطة حياتهم الخاصة مصير الانسانية جمعاء . هل كان بامكان

(فان غوغ) ان يولد امرأة ؟ وهل كان بامكان هذه المرأة ان ترسل في بعثة الى بلاد (البوريناج) تشعر ببؤس وشقاء الانسان وكأنها جربته ارتكبته بنفسها ؟ وهل كان بوسعها ان ترسم هذه اللوحات العبقرية الرائعة ؟ لا اعتقد انه كان بوسعها ان تفعل ما فعله (فان غوغ) ، وهذا دون الاخذ بعين الاعتبار طراز حياة الفنان الخاص وانعزاله وتردده على المقاهي والمحلات العمومية ، كل هذه الاشياء التي كانت تغذي فن فان غوغ التي لا يمكن للمرأة ان تقدم عليها •

مرة اخرى نعود للقول بان ضعف المرأة لا يعود الى اسباب فطرية في طبيعتها ، وانما الى حالتها العامة التي يفرضها عليها المجتمع منذ حداثتها حتى اواخر ايامها • وكل ما يقال عن انها لا تتمتع بالفكر الخلاق المبدع • ينبع من خيال اعداء تحرر المرأة •

لقد بدأت تباشير ولادة المرأة الحرة تلوح في الافق ، وسيكون بوسعها حين تحصل على حريتها التامة ان تثبت بانها لا تقل قدرة وابداعا عن الرجال •

وقد لا يكون اكيدا ما يقال بان (عالم افكارها) سيختلف عن عالم افكار الرجال ، لانها تنشغل بهم حين تحاول الحصول على حريتها ، لكنه اصبح من المؤكد ان المجتمع كبح جماح امكانياتها حتى الآن وضيع على الانسانية نتاج عبقريتها ونبوغها ، ولا شك ان الوقت قد حان ، في سبيل صالحها وصالح المجموعة البشرية ، لكي نمنحها حريتها لتجرب حظها في الحياة •

الخاتمة

يقول (جول لافورغ) :

«لا تربطنا بالمرأة ابدا رابطة الاخوة ، فقد جعلنا منها ، بالخمول والفساد ، كائنا منعزلا ليس له من سلاح سوى سحره الجنسي» .

الواقع ان الرجال والنساء ليسوا راضين عن بعضهم بعضا في يومنا هذا ، ولكن المسألة هي ان نعلم فيما اذا كانت هناك لعنة اصلية تحكم عليهم بالتخاصم والتنازع او ان الخصومات التي تفرق بينهم لا تعبر الا عن لحظة انتقالية في التاريخ الانساني .

لقد رأينا رغم ما جاء في الاساطير ، ان ليس هناك سبب فيزيولوجي يفرض على الذكر والانثى العداء الدائم لانهما من جنسين متمايزين ، ان الانسانية ليست نوعا بل هي صيرورة تاريخية ، ومهما يكن سوء النية كبيرا فمن المستحيل اكتشاف خصومة ذات طبيعة فيزيولوجية بين الانثى والذكر البشريين ، لذلك يعمد بعضهم الى اعتبار وجود هذا النزاع في ميدان متوسط بين البيولوجيا وعلم النفس اي ميدان التحلل النفسي (فرويد) ولكننا بينا ان المأساة لا تجري على الصعيد الجنسي ولم يبد لنا قط ان الغريزة الجنسية تحدد مصيرا انسانيا وانها تقدم بذاتها مفتاحا يفسر السلوك البشري .

ان المجتمع الذي وضع الرجل تشريعاته وقيمه يعتبر المرأة اقل من الرجل ، ولا تستطيع المرأة الغاء هذا النقص الا بتحطيم تفوق الرجل ، لذلك تحاول ان تسيطر عليه وان تناقضه وان تنكر حقيقته وقيمه . انها بذلك لا تفعل سوى الدفاع عن نفسها . هذا النقص لا ينجم عن جوهر ثابت او قدر سيء بل هو مفروض على المرأة فرضا . وان كل اضطهاد يخلق حالة نزاع . والكائن الذي تنتزع منه صفة الجوهر لتلصق به صفة التبعية والالحاق لا بد ان يحاول استرجاع سيادته .

اما اليوم فتأخذ المعركة شكلا آخر . فالمرأة لم تعد تحاول جر الرجل الى الجمود بل تحاول الهروب الى عالم الارتقاء والسمو . ولكن يطيب للرجل ان يبقى السيد المطلق والكائن المنفرد بالجوهر ويرفض ان يعتبر رفيقته مساوية له .

لم تعد المعركة اذن بين افراد ينحبس كل منهم في نطاقه بل ان هناك طبقة ذات مطاليب تهب الى النضال فتنتصر عليها الطبقة ذات الامتياز . نحن الآن امام حريتين نزاعتين الى السمو والارتقاء يسود بينهما الخصام بدل التعارف والوئام .

تحاول المرأة «الانثى» بجعل نفسها متاعا وفريسة سلبية ، ان تقيد الرجل بالرغبة التي تثيرها في نفسه . وعلى العكس من ذلك ترفض المرأة «المتحررة» السلبية التي يدعي الرجل فرضها عليها . ولكن المرأة «الحديثة» تقبل قيم الذكور وتؤكد نفسها كمثيلة لهم .

ان هذا المطلب مشروع ما دام يعبر عنه بتصرفات ملموسة . الا ان كثيرا من النساء اللواتي يردن ان يثبتن بنجاحاتهن انهن مثل الرجل ،

يتشدن تأييد الرجل عن طريق الجنس ، انهن يلعبين قسمين ظاهرين : فهن يطالبن بالاحترام التقليدي ، وباعتبار جديد ايضا ، معولات على سحرهن القديم وحقوقهن الجديدة ولكن الرجل ايضا لا يخلو من مثل هذا الازدواج . والحقيقة ان الصراع بين الرجل والمرأة لا يمكن ان يكون واضح المعالم لان المرأة لا تنتصب امام الرجل على اعتبار انها شخص ولكنها كمتاع ، كشيء له حياته الشخصية .

وسيدوم النزاع طالما لا يعترف احدهما انه شبيه الآخر ونظيره . واذا كان من الصعب تحطيم الحلقة الفاسدة والدوامة الفارغة فذلك لان كل من الجنسين هو في نفس الوقت ضحية الجنس الآخر وضحية نفسه . وليس من الصعب احلال الاتفاق بين خصمين يتنازعان في حريتهما الصرفة ولا سيما ان هذا النزاع لا يفيد احدا . الا ان تعقيد هذه القضية ناشيء عن كل فريق هو في نفس الوقت شريك خصمه ..

لقد رأينا لماذا استعبد الرجال النساء في الاصل . لقد كان انخفاض قيمة الانوثة مرحلة ضرورية في التطور البشري ، ولكن كان بالامكان ان يسود التعاون بين الجنسين . ان الاضطهاد يفسر بنزعة الكائن الى الهروب من ذاته والتخلي عن نفسه للآخر في سبيل هذه الغاية ، وحتى هذا اليوم توجد هذه النزعة عند كل الرجال .

اذا ما حررنا المرأة فاننا نحرر الرجل ولكنه يخشى ذلك بالذات ويصر على التعصبات التي تستهدف ابقاء المرأة في الاغلال . وقد رأينا كيف يجري اخفاء قيود الاعباء المنزلية المملة تحت ستار شعري ، بل ان هناك رجالا كثيرين يحاولون اقناع انفسهم ان المرأة تتمتع بامتيازات . والحقيقة ان المرأة تتمتع بامتياز عدم المسؤولية . وقد رأينا ان تربية

المرأة يقصد منها سد طريق الثورة امامها وان المجتمع كله يكذب، عليها اذ يتغنى بقيم الحب والتضحية ، وهي نفسها ترضى بهذا الكذب لانه يدعو الى انتاج طريق السهولة . وتخطىء المرأة خطأ كبيرا اذ تخضع للاغراء ولكن الرجل هو آخر من يحق له ان يأخذ ذلك عليها لانه هو نفسه الذي يغويها ، ان كلا من الجنسين يعتقد انه يبرر نفسه حين يعمد الى الهجوم الا ان اخطاء احدهما لا تبرىء الآخر .

لا يجري التبادل في علاقتهما بين غرضين لهما نفس الكيفية ، ويبرز عدم التساوي هذا في ان الوقت الذي يقضيانه معا ليس له نفس القيمة بالنسبة الى الشريكين . فالرجل لديه دائما شيء آخر يعمله اما المرأة فتحاول التخلص من وقتها . ولكن يستحيل تحقيق العدالة في كنف اللاعدالة : وفي الحياة كثيرا من الاحوال التي ليس لها حل مرض لانها تتعين بشروط هي ذاتها غير مرضية وان البلاء ناجم عن وضع يصبح امامه المسلك الفردي عاجزا كل العجز فلتسمح للنساء بكيان مستقل وليصبح بامكانهن النضال في الحياة لينتزعن معيشتهن ، كيما تلغى تبعيتهن وتبعية الرجل ايضا .

ولا ينبغي الاعتقاد ان من الكافي تعديل وضع المرأة الاقتصادي كيما تتغير . هذا العامل كان ولا يزال العامل الاساسي في تطورها ولكن طالما لم تنجم عنه النتائج الاخلاقية والاجتماعية والثقافية التي يبشر بها ، فلا يمكن للمرأة الجديدة ان تظهر ، ولكن اذا افترضنا مجتمعا تتحقق فيه مساواة الجنسين تحققا ملموسا فان هذه المساواة تتأكد في كل فرد .

ان اعداء الذكور لا يبدو كامتياز الامراء الا في كنف نظام يتآمر

بمجموعه ليثبت سيادة الذكور • والحقيقة ان الرجل مثل المرأة مكون من جسد اي ان له صفة السلبية وانه يتأثر بالنوع ويخضع للشهوة • وليس من شك في انا اذا اهتمنا طبقة ما في حالة النقص بقيت ناقصة ، الا ان الحرية تستطيع تحطيم هذه القيود • فلنعط المرأة مسؤوليات فانها تنهض بها • وان الاحوال الجديدة تنشأ احيانا من ثورة المضطهدين واحيانا من تطور الطبقة ذات الامتياز. هكذا اضطر الرجال في مصلحتهم بالذات ، ان يحرروا المرأة تحررا جزئيا •

وعلى كل حال سيبقى دائما بين الرجل والمرأة بعض الفروق • فعالم المرأة الجنسي ، لما له من وجه خاص ، لا بد انه سيحدث لديها حساسية خاصة • وان علاقاتها بجسمها وبجسم الذكر وبالطفل لن تصبح ابدا مطابقة تمام التطابق لعلاقات الرجل بجسمه وجسم الانثى وبالطفل •

ان تحرير المرأة يعني رفض تقييدها بالعلاقات التي تقيمها مع الرجل ولكن لا يعني ابدا انكار هذه العلاقات • ولن تحذف علاقاتهما المتبادلة الاعاجيب التي يحدثها انقسام الكائنات البشرية الى فئتين منفصلتين (الرغبة ، الامتلاك ، الحب ، الحلم ، المغامرة) • بل على العكس ، حينما يلغى ، استعباد نصف الانسانية وكل مجموعة الرياء الناجمة عنه ستظهر الانسانية مغزاها الصحيح وسيرى الزوج البشري وجهه الحقيقي •

الفهرس

الكتاب الاول

الكتاب الثاني